

تأليف

أبو الحسن علي الحسني الندوي
مدير ندوة العلماء لكهنؤ (الهند)





١٣٩٤ هـ – ١٩٧٤ م

اذا هبت ريح الايمان

[مقتطفات من تاريخ الدعوة والجهاد في الهنـــد في القرن الثالث عشر الهجري ، وأضواء على حياة قائد هذه الدعوة والحركة السيد الامام أحمـــد ابن عرفان الشهيد ، وسيرة أصحابه ورفاقه وأخلاقهم ، في أمانـة تاريخية وأسلوب قصصي] .

ابو الحسن علي الحسني الندوي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، أما بعد !

فإذا هبت ريح الايمان جاءت بالأعاجيب في العقيدة، والأعمال، والأخلاق، ورأى الناس روائع من الشجاعة واليقين ، والعفة والأمانة ، والايثـــار وهضم النفس ، وروح التطوع والاحتساب ، والتواضع في المظـــاهر ، وكبر النفس وسمو النظر ، ورأوا آيات من العدل والرحمة ، والمحبة والوفـاء كادوا ينسونها ويقطعون منها الرجاء .

وقد هبت هذه الريح المباركة في فترات تاريخية ، قصرت أحياناً وطالت أحياناً، وهي معلومة مسجلة في تاريخ الدعوة الاسلامية،والتجديد الاسلامي.

وقد هبت هذه الريح في الهنـــد في فجر القرن الثالث عشر الهجري ، وتجددت ذكريات القرون الأولى يوم قام الامام السيد أحمد بن عرفان الشهيد بدعوة التوحيد ، والتجديد والجهاد .

ودعا إلى الدين الخالص ، وأشعل في القلوب شعـــلة الايمان ، والحماسة الاسلامية ، والجهاد في سبيل الله ، ونظم جماعة كبيرة، وأحسن تربيتها الدينية والحربية ، وهاجر معها من طريق بلوجستان ، وأفغانستان إلى حـدود الهند الشمالية ، واتخذها مركزاً لدعوته ، ليتقدم منها إلى الهند لاجـــلاء الانجليز ، وتأسيس دولة إسلامية على منهاج الكتاب والسنة ، وقد هزم هؤلاء المجاهدون

السيخ (Sikhs) (الذين احتلوا بنجاب ، وأذاقوا المسلمين سوء العـذاب) في معارك كثيرة .

وأسس هؤلاء المجاهدون دولـة شرعية في الحدود الهندية الشمالية الغربية تشتمل على « بشاور » ، وما جاورها من البلدان والقرى ، ونفـذوا الحدود الشرعية ، وطبقوا النظام الاسلامي المـالي والاداري تطبيقاً دقيقاً ، ولكن ثارت عليهم القبائل التي تقطن الحدود لمصادمة هـذا النظام لمآربهم الشخصية وعاداتهم الجاهلية ، فقلبوا هذا النظام ، ثم اصطدم المجاهدون بجيش السيخ في وادي « بالاكوت » فاستشهد الامام أحمـد وصاحبه الشيخ إسماعيل ، وكبار أصحابها في ٢٤/من ذي القعدة / عام ١٢٤٦ هـ (٦/من مايو/عام ١٨٣١ م) ، ولجأ الفل إلى الجبال ، ولم يزل هؤلاء وأصحابهم في الهند قائمين على الحق ، باذلين في ذلك النفس والنفيس، والانجليز يطاردونهم، ويطاردون أملاكهم وأموالهم، ويحاكمونهم محاكمات طويلة عريضة [١] ، وهم صابرون محتسبون ، لا يضطربون ولا يتزعزعون ، ولا يلينون ولا يستكينون ، حتى كانت ثورة ١٨٥٧ م ، التي تزعمهـا المسلمون ، وأسهم فيها المواطنون ، وأخفقت لأسباب يطول ذكرها ، وقوبل زعماؤها بصفـة خاصة ، والمسلمون بصفة عامـة بوحشية نادرة [٢] ، واستتب الأمر للانجليز ، ودخلت الهند في الحكومة البريطانية بصورة عامة ، وبقي هـذا الوضع إلى ١٩٤٧ م ، حين نالت الهند الاستقلال ، وكان التقسيم ، وقامت الجمهورية الهندية ، وقـامت دولة باكستان الاسلامية وهي تشتمل على أكثر المناطق التي كانت مركز نشاط المجاهدين وكفاحهم ، وكانت في مقدمـة مخطط هذه الحركة الاصلاحية الجهادية وهدفها الأول .

---

(١) اقرأ كتاب The Great Wahabi Case وكتاب Indian Mudalmans لويليم هنتر W. W. Hanter .

(٢) اقرأ كتاب المؤلف « المسلمون في الهند » فصل « الدور الذي قـام به المسلمون في تحرير الهند » .

وقد شرح الله صدري في سنة ١٣٧٢ هـ (١٩٥٣ م) لأن اختار روايات من هـذا التاريخ العجيب ، فأصوغها في العربية في أسلوب أدبي ، قصصي شائق ، لا يشوبه شيء من المبالغة فضلاً عن الكذب ، تدل على مكانة قائد هذه الحركة العبقري ، وما أوتي من مواهب عظيمة ، وعناصر قوية ، وعلى مدى نجاحه في تربية النفوس وتزكيتها ، وعلى إخلاصه وتجرده للغاية التي كان يسعى لها ، وتفانيه في دعوته ، وتدل على نفسية هذا الجيل المؤمن المجاهد ، وخلقه ، ومبلغ تأثير الدعوة الاسلامية ، والتربيـة الايمانية في نفوس تلاميذها ، ونشرت هـذه الروايات في مجلة «المسلمون» الغراء حين كانت تصدر من القاهرة في سنة ١٩٥٣ م في عددي ينـاير ، وفبراير من هذه السنة ، ثم شغلت عنهـا لأعمالي الكتابية والتأليفية والدعوية الأخرى ، حتى مضى على ذلك عشرون سنة .

ثم لفت نظري بعض إخواني [١] الأعزاء إلى قيمة هذه السلسلة القصصية ، وما لهـا من تأثير في نفوس القراء ، واستجابة خفية لقبولها وتقليدها ، وإنني إذا لم تساعدني الظروف ، ولم يتسع وقتي لوضع تأليف مستقل في سيرة هـذا الامام الكبير ، وفي تاريـخ دعوته وجهاده ، وفي اللغة العربية ، كما فعلت في أردو [٢] ، فلا مانع من أن أكمل هذه السلسلة ، فقد تكون صورة مصغرة من هـذا التاريخ الكبير الذي يشغل آلافاً من الصفحات [٣] ، ويمتـد على مساحة مكانية تتكون من آلاف من الأميال وعلى مساحة زمانية تستغرق قرناً كاملاً [٤] ،

---

(١) في مقدمتهم محمد الحسني ، وسعيد الأعظمي محررا مجلة « البعث الاسلامي » .
(٢) لكاتب هذه السطور كتاب « سيرة سيد أحمد شهيد » في جزئين يقع كل جزء في نحو خمس مائة صفحة بالقطع الكبير .
(٣) للكاتب الباكستاني الشهير ، والصحافي الكبير المرحوم غلام رسول مهر كتاب « سيد أحمد شهيد » في أربعة مجلدات مجموع صفحاتها ١٩٢١ .
(٤) يبتدىء هذا التاريخ في الحقيقة من عام ١٢٢٥ هـ حين بدأ السيد نشاطه ، ويدوم إلى سنة ١٣٢٠ هـ العام الذي توفي فيه الشيخ عبدالله بن ولايت علي الصادقفوري أمير جماعة المجاهدين ، وهي مدة نشاط هذه الجماعة وقيادتها .

ويستطيع القارىء الذكي أن يكون من هذه الشذرات الملتقطة من هنا وهناك فكرة متناسقة جامعة ، عن هـذا الجهاد الطويل ، وعن هذه المدرسة المنجبة المنتجة ، فيكون في ذلـك سد إلى حـد لهذا الفراغ ، الواقـع في المكتبة الاسلامية ، العربية المعاصرة ،[1] وري لكثير من النفوس المتعطشة إلى معرفة هـذا الفصل الرائع من الجهاد الاسلامي ، وتاريخ التجديد الديني في الهند ، و « إن لم يصبها وابل فطل » .

وكنت إذا قرأت روايات « الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني » (م ٣٥٦ هـ) وأنا في أيام الطلب ، وريعان الشباب ، أوخذ بسحر أدبهـا ، ولغتها العربية الفصحى وتعبيرها الجميل ، وتصويرها البارع لخواطر النفس وأشكال الحياة ، وكنت أغار على هذه العربية الفصحى ، التي نزل بها القرآن ، وتكلم بها الرسول وأصحابه ، أن تسخر للأغراض التافهة ـ إذا لم أقل الخسيسة ـ التي ألف لهـا هـذا الكتاب ، وأن تضيع في الألحان والأغاني ، ورنات المثالث والمثاني ، وتصور جوانب الضعف ومواضع السقط ، ومكامن الريب في المجتمع الاسلامي الذي عاش في القرون المشهود لها بالخير ، وكنت أتمنى أن تستخدم هذه الملكة البيانية ، وهذه الثروة اللغوية الفذة ، وهذا الأسلوب القصصي الخفيف الجميل ، في مقاصد شريفة وأغراض نبيلة ، وفي تصوير جانب مشرق من تاريـخ جميل مشرق .

وقد حاولت بقدر استطاعتي أن أحاكي هذا الأسلوب في هذه القصص ، التي اخترتها على عجل ، من تاريخ الاصلاح والتجديد في الهند ، فـان لم يتحقق لي نجاح الأصبهاني وغيره ـ وأنى يدرك الضالع شأو الضليع ـ فلا تفوتني فائدة التقليد لأسلوب ساحر ، ولا تفوتني نية القاصد ، وأجر العامل .

---

(١) يجب أن ينوه المؤلف هنا بفضل صديقه الفاضل الكاتب القدير وأديب العربية الكبير الاستاذ علي الطنطاوي في تأليف أول كتاب يصدر من قلم أحد كتاب العرب وهو كتيب « احمد ابن عرفان الشهيد » في ١٠٤ صفحة صدر سنة ١٣٨٠ هـ في سلسلة « أعلام التاريخ » من دمشق .

ولهذه الحكايات التاريخية والروائع الايمانية والخلقية فائدة ، لايستهان بقيمتها وأهميتها ، وهي أنه يستطيع القارىء الذكي أن يقيس بها عظمة الشخصية التي هي مصدر كل هذا الفضل ، ومصدر كل انقلاب ، وكل دعوة وجهاد ،والتيمنها انبثق هذا التاريخ ، وانتشر هذا النور ،وعم هذا البر ، وهي شخصية الرسول الأعظم ﷺ ، ولم يكن المجددون في كل دور ، والمربون في كل جيل والمصلحون في كل بلد إلا رشحاً من رشحات هذه التربية والدعوة ، وظلا من ظلالها الفيحاء ، فاذا كان هؤلاء المجددون ، وأولئك الدعاة والمربون ، وهم تلاميذ هذه المدرسة المحمدية ، وأتباع أتباع المتخرجين فيها ، بهذه المكانة من الايمان والاخلاص ، وعلى هذه القدرة من التأثير والانتاج ، فكيف بالرسول الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وأكرمه بالوحي ، والكتاب المعجز الخالد ، وأيده بروح القدس ، وكيف بالناس الذين نشأوا في أحضانه ، وتربوا بين سمعه وبصره ، وكان وجود هؤلاء المجددين والمربين في القرون المتأخرة ، وفي بلاد بعيدة عن مهد الاسلام ، ومركز الدعوة الاسلامية ، دليلا على خلود هذا الدين ، وتدفقه بالحيوية والتوليد ، وعلى أن شجرة الاسلام لا تزال تثمر ، وخليته لا تزال تعسل ، وهي فائدة ليست ضئيلة القيمة ، ولا قليلة الأهمية .

ومن خصائص هذه الجماعة التي تلفت النظر ، أنها كانت تجمع بين جهاد النفس وجهاد العدو ، وبين الحب لله والخشية له ، والحب لله والبغض لله ، وبين الزهد والعبادة ، والحمية الدينية والغيرة الاسلامية ، وبين السيف والمصحف ، والعقل والعاطفة ، وبين التسبيح في المسجد والبيت في ظلام الليل ، والتكبير في ساحة الجهاد على صهوات الخيل ، صفات وجوانب خيل لكثير من المطلعين على التاريخ ، المختبرين لحركات الاصلاح انها متناقضة متضادة ، وذلك بفضل التربية الدقيقة التي أخذ بها قائدها ومربيها ، والوعي الديني الصحيح الذي نضج ورسخ ، واستوعب الحياة كلها ، وبسبب أنها لم تمر بمرحلة التربية الدينية

مراً عابراً سريعاً ، ولم تخض المعركة من غـير استعداد ، بل أخذت الأمور بنصابها ، وأتت البيوت من أبوابها، وذلك هو المثل الكامل لجيل مؤمن مجاهد ، والنموذج الرائع للربانية الصحيحة المطلوبة في كل عصر .

ورأيت من المناسب أن أضم إلى هذه الشذرات التاريخية تعريفاً موجزاً بامام هـذه الجماعة ، وقائد الحركة ، حتى يكون القارىء على بينة من أمره ، وإلمام بسيرته وحياته ، ووقع اختياري على ما جاء في المجـلد السابع لنزهة الخواطـر ، لوالدنا العلامـة السيد عبد الحي الحسني لاختصاره واحتوائـه على المعلومات الأساسية ، وجعلته مقدمة لهذا الكتاب .

وقد بدا للمؤلف أن يتناول بعض الكلمات الغريبة أو التي يلتوي فهمها على الطالب المتوسط في مدارسنا بالشرح والايضاح ، فعلق على بعض الكلمات عسى أن ينتفع بالكتاب في الأوساط الدراسية وتربية الناشئة الإسلامية .

والحمـد لله أولاً وآخراً وصلى الله على خير خلقه سيدنا ومولانا محمـد وآله وصحبه والتابعين لهم باحسان .

أبو الحسن علي الحسني الندوي

(يوم الخميس) بهوپال ــ ٤ محرم الحرام ١٣٩٣ هـ



السيد الامام أحمد بن عرفان البريلوى

السيد الامام الهمام حجة الله بين الأنام ، موضح محجة الملة والاسلام ، قامع الكفرة والمبتدعين وأنموذج الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين مولانا الامام المجاهد الشهيد السعيد أحمد بن عرفان بن نور الشريف الحسني البريلوى ، كان من ذرية الأمير الكبير بدر الملة المنير شيخ الاسلام قطب الدين محمد بن أحمد المدني .

ولد في صفر سنة إحدى ومائتين وألف ببلدة « رائي بريلي » [1] في زاوية جده السيد علم الله النقشبندي البريلوي ، ونشأ في تصون تام وتأله ، واقتصاد في الملبس والمأكل ، ولم يزل على ذلك خلفاً صالحاً ، براً تقياً ، ورعاً عابداً ، ناسكاً صواماً ، قواما ذاكراً لله تعالى في كل أمر ، رجاعاً إليه في سائر الأحوال ، وقافاً عند حدوده وأوامره ونواهيه ، لا تكاد نفسه تقنع من خدمة الأرامل والأيتام ، كان يذهب إلى بيوتهم ويتفحص عن حوائجهم ويجتهد في الاستقاء ، والاحتطاب ، واجتلاب الأمتعة من السوق ، ولكنه مع ذلك كان لا يرغب إلى تلقي العلوم المتعارفة ، فانه لم يحفظ من القرآن الكريم إلا سوراً عديدة ، ومن الكتابة إلا نقش المفردات والمركبات ، وذلك في ثلاث سنين ، وكان صنوه الكبير إسحاق بن عرفان البريلوي يحزن لذلك ، وكان بصدد تعليمه ، فقال والده دعوه وشأنه وكلوه إلى الله سبحانه ، فأعرض عنه ، فلم يزل كذلك حتى شد عضده فرحل إلى « لكهنؤ » مع سبعة رجال من عشيرته ،

(١) مدينة تبعد من « لكناؤ » عاصمة الولاية الشمالية بخمسين ميلا (٧٢ ك م) في جهة الشرق ، وهي مديرية من مديريات الولاية الشمالية (Utter Pradesk) .

وكان الفرس واحداً يركبونه متناوبين وقد ترك نوبته لهم ، فلما قطعوا مرحلة واحتاجوا إلى حمال يحمل أثقالهم ، وجدوا في البحث عنه فما وجدوه وهو يرى ذلك ،فقال لهم: إن لي حاجة إليكم أرجوكم أن تفضلوا علي باسعافها ،فقالوا له: على الرأس والعين ، فقال لهم : أكدوا قولكم بالأيمان فأكدوها ، فقال : اجمعوا أثقالكم وضعوها على رأسي فاني أقدر أن أحتملها فحملها ، ودخل لكهنؤ ، فلقيه أحد رجال السياسة وأكرمه ، وكان مأموراً من الدولة أن يجمع مائة رجل من الفرسان للعسكر ففوض إليه خدمتين من الخدمات العسكرية فتبرع بهما لرجلين من رفقائه وسار مع العساكر السلطانية ، فلما وصل إلى « بادية محمدي » ورغب السلطان إلى التنزه والصيد غاب ذات يوم عن رفقائه فاغتموا وظنوا أنه كان فريسة سباع حتى لقيهم رجل من أهل البادية وقص عليهم : إني رأيت رجلاً وضيئاً يلوح على جبينه علائم الرشد والسعادة وعلى رأسه جرة ملآنة يحملها ، ويذهب فرحان نشيطاً مع فارس من فرسان العسكر ، وكان العسكري يقول : إنه وجدني في أثناء الطريق ، وكان معي حمال ضعيف لا يستطيع أن يحمل إلا بشق النفس ، إلا أنه حملها خوفاً مني ،وكان يبكي ،فتقدم إلى هذا الرجل وشفع له ، فقلت له: إني لا استطيع أن أحملها فوق رأسي ، فاذا رق له قلبك ورثيت لضعفه فتقدم واحمل ، فرضي بذلك وحملها وكانت رفقته يعلمون عادته ، فعلموا أنه هو .

قال السيد محمد علي بن عبد السبحان البريلوي صاحب « المخزن » إنه : كان قبل غيبته يحرضني على الترك والتجريد ، والاقبال على الآخرة ، ويقول : اذهبوا إلى دهلي ولازموا صحبة الشيخ عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي واغتنموه ، فلما ظن أني لا ألازمه في ذلك السفر ، ولا أرضى أن يذهب ويلقي نفسه في الخطر غاب عني وذهب بنفسه حتى دخل دهلي ، فلما سمع الشيخ عبد العزيز المذكور أنه سبط الشيخ أبي سعيد وابن أخ السيد نعمان [1] تلقاه ببر وترحيب

(١) من كبار علماء عصرهما ، ومن كبار المربين والعارفين ، اقرأ ترجمتهما في الجزء السادس من « نزهة الخواطر » .

وأسكنه في المسجد الأكبر آبادي عند صنوه عبد القادر [1] ، واوصاه به فتلقى منه شيئاً نزراً من العلم ، وبايع الشيخ عبد العزيز وأخذ عنه الطريقة حتى نال حظاً وافراً من العلم والمعرفة ، وفاق الأقران ، وأتى بما يتحير منه أعيان البلدة في العلم والمعرفة ، وكان ذلك في سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف .

ثم غلب عليه شوق الجهاد في سبيل الله فذهب إلى معسكر الأمير المجاهد نواب مير خان ولبث عنده بضع سنين كان يحرضه على الجهاد ، فلما رأى أنه يضيع وقته في الاغارة ويقنع بحصول المغنم تركه ورجع إلى دهلي وشد المئزر بنصرة السنة المحضة ، والطريقة السلفية واحتج ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها ، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون وهابوا وجسر هو عليها حتى أعلى الله مناره ، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له ، وكبت أعداءه ، وهدى رجالاً من أهل الملل والنحل ، وجبل قلوب الأمراء على الانقياد له غالباً وعلى طاعته ، وأول من دخل في بيعته الشيخ عبد الحي بن هبة الله البرهانوي ، والشيخ اسماعيل بن عبد الغني الدهلوي [2] ، وناس كثيرون من عشيرة الشيخ عبد العزيز ، وكل ذلك في حياة شيخه ، فنهض من دهلي مع جماعة من الأنصار إلى « بهلت » و « لوهاري » و « سهارنفور » و « كدة مكتيسر » و « رامفور » و « بريلي » و « شاهجهانفور » و « شاه آباد » وغيرها من القرى والبلاد ، فانتفع بمجلسه وبركة دعائه ، وطهارة أنفاسه ، وصدق نيته ، وصفاء ظاهره وباطنه ، وموافقة قوله بعمله ، والانابة إلى الله

---

(١) هو العالم الجليل المصلح الكبير عبد القادر بن الامام ولي الله الدهلوي ، كان من كبار المخلصين والعلماء الربانيين ، وهو من أول من نقل معاني القرآن الكريم إلى لغة « اردو » الفصيحة ونفع الله بهذا العمل خلائق كثيرة ، وصحت عقائدهم وأخلاقهم ، اقرأ ترجمته الضافية في الجزء السابع من « نزهة الخواطر » .

(٢) من كبار العلماء المحققين وقادة الاصلاح في الهند في العهد الاخير ، ومن أخص أصحاب السيد ، اقرأ ترجمتها الحافلة في الجزء السابع من نزهة الخواطر ، (الندوي) .

سبحانه ،خلق كثير لا يحصون بحد وعد ، بل قام عليه جمع من المشايخ **قياماً لا** مزيد عليه ، بدعوه ، وناظروه ، وكابروه ، وهو ثابت لا يداهن ولا يهاب ، وله إقدام وشهامة ، وقوة نفس توقعه في أمور صعبة فيدفع الله عنه ، وكان دائم الابتهال كثير الاستعانة ، قوي التوكل ثابت الجأش ، له أشغال وأذكار يداوم عليها بكيفية وجمعية في الظعن والاقامة حتى دخل بلدته « راىء بريلي » وتزوج بها بحليلة صنوه المرحوم إسحاق بن عرفان وهو أول نكاح بأيم في السادة والأشراف ، بأرض الهند [1] ثم توارث فيهم ، وكان الشيخ اسماعيل بن عبد الغني ، والشيخ عبد الحي بن هبة الله المذكوران ، وخلق آخرون في العلماء والمشايخ في ركابه يأخذون عنه الطريقة ، فلبث ببلدة « راىء بريلي » مدة ثم سافر إلى لكهنؤ ، وأقام بها على تل الشيخ بير محمد اللكهنوي على شاطىء « نهر كومتي » مع أصحابه ، فبايعه ألوف من الرجال،وتلقاه الوزير معتمد الدولة بالترحيب والاكرام وضيفه، وعرض عليه خمسة آلاف من النقود،وكاد أن يلقاه السلطانغازي الدين حيدر ملك « لكهنؤ »فخاف مجتهد الشيعةأن يبدل مذهبه فاحتال في المنع ، فنهض السيد الامام وخرج من لكهنؤ ، ودار البلاد فنفع الله به خلقاً كثيراً من عباده .

ثم رجع إلى « راىء بريلي » وسافر إلى الحجاز ومعه سبعة وخمسون وسبع مائة من أصحابه فركب الفلك في « دلمتو » من أعمال راىء بريلي ، وهي على شاطىء « نهر كنك » فركب وبذل ما كان معه من شيء قليل من الدراهم على

---

(١) كان المسلمون في الزمن الاخير يتعيرون جداً من تزويج الايامى وزواجهن ، وكانوا يعدون ذلك سبة وعاراً قد يؤدي إلى مطاردة من يرتكب هذه « الجريمة » وإقصاء الزوجين ومقاطعتهما ، وأصبح ذلك عرفاً في البيوتات الشريفة ، والاسر الكريمة ذات النسب والحسب ، ظهر ذلك في آخر الدولة المغولية بتأثير الاختلاط بالهنادك الذين يحرمون نكاح الايم ، ويرون فيه عاراً كبيراً واستفحل هذا الداء على مر الايام حتى حاربه السيد بكل عزم وصرامة ، ودعا إلى إحياء هذه السنة ، وضرب له مثالاً عملياً ، حتى شاع ذلك في المسلمين ، وأصبح شيئاً عادياً، (الندوى) .

المساكين ، وقال نحن أضياف الله سبحانه لا نلجأ إلى الدينار والدرهم ، فانطلق ومر على « إله آباد » و « وغازي پور » و « بنارس » و « عظيم آباد » وغيرها من بلاد الهند ، فدخل في بيعته خلق لا يحصون بحد وعد ، حتى وصل إلى « كلكته » وأقام بها أياماً قلائل باذن الحاكم العام للهند ، ثم ركب السفينة وذهب إلى الحجاز سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف وحصل له الوقائع الغريبة وكشوف وكرامات في ذلك السفر الميمون المبارك ، وانتفع به خلق كثير من أهل الحرمين الشريفين[1] وحج وزار ، وقفل بعد سنة حتى وصل إلى « راى بريلى » في سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف فلبث بها نحو سنتين وبعث الشيخ اسماعيل والشيخ عبد الحي المذكورين إلى بلاد شتى للتذكير والارشاد ، فدارا البلاد وهدى الله بهما خلقاً كثيراً من العباد .

وكان السيد الإمام يجهز للهجرة والجهاد في تلك الفرصة ،وخرج مع أصحابه في سنة إحدى وأربعين من بلدته ، وسافر إلى بلاد « أفغانستان » فلما وصل إلى « بنجتار » وقف بها ، وحرض المؤمنين على الجهاد وبعث أصحابه إلى « كابل » و « كاشغر » و « بخارا »ليحرضوا ملوكها على الشركة والاعانة فبايعه الناس للجهاد ، وولوه عليهم واجتمع تحت لوائه ألوف من الرجال ، وزحف على جيوش « رنجيت سنكه » ملك « بنجاب » وهو من قوم طوال الشمور ، ففتح الله سبحانه على يده بلاداً حتى قرئت باسمه الخطبة في بلدة « بيشاور » فأعلى الله مناره . وكبت أعداء الدين ، وجبل قلوب الأمراء والخوانين على الانقياد له غالباً وعلى طاعته ، فأحيا كثيراً من السنن المماتة ، وأمات عظيماً من الاشراك والمحدثات ، فتعصب أعداء الله ورسوله في شأنه وشأن أتباعه حتى

---

(١) منهم بعض أعيان مكة وعلمائها كالشيخ مصطفى إمام المصلى الحنفي ، وخواجه آغا الماس الهندي ، والشيخ شمس الدين شطا ، والشيخ حسن آفندي نائب سلطان مصر ، وعدد من كبار علماء المغرب كالسيد محمد ، حافظ الجامع الصحيح للبخاري مع شرحه للقسطلاني،والمحدث شيخ حمزة ، والشيخ أحمد بن إدريس . (الندوي)

نسبوا طريقته إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي[1] ، ولقبوهم بالوهابية ، ورغبوا إلى الكفار وصاروا أولياءهم في السر ، حتى انحازوا عنه في معركة « بالاكوت » فنال درجة الشهادة العليا ، وفاز من بين أقرانهم بالقدح المعلى ، وبلغ منتهى أمله وأقصى أجله في الرابع والعشرين من ذي العقدة سنة ست وأربعين ومائتين وألف ، واستشهد معه كثير من أصحابه .

وقد صنف كثير من أصحابه كتباً مبسوطة في حالاته ومقاماته منها « الصراط المستقيم » بالفارسية للشيخ اسماعيل ، وللشيخ عبد الحي كليهما ، وقد عربه الشيخ عبد الحي المذكور في الحجاز لأهل الحرمين الشريفين ، ومنها « منظورة السعداء » للشيخ جعفر علي البستوي ، كتاب بسيط بالفارسي ، ومنها « مخزن أحمدي » للشيخ محمد علي بن عبد السبحان الطوكي ،ومنها « سوانح أحمدي » للشيخ محمد جعفر التهانيسري ، ومنها « الملهمات الأحمدية » للفقي إلهي بخش الكاندهلوي ،اقتصر فيه على ما وصل منه إليه من الأذكار والأشغال، ومنها « الوقائع الأحمدية » للشيخ محمد علي الصدر پوري في مجلدات كبار[2] .

---

(١) اعتاد الانجليز أن ينسبوا كل حركة إصلاحيةودعوة إلى التوحيد والدين الخالص وهجر البدع والخرافات في العهد الاخير الى حركة الشيخ محمد عبد الوهاب ويثبتوا ان صاحبهاقد تتلمذ على الشيخ واقتبس من فكرته ودعوته ، كذلك كان موقفهم من دعوة السيد الامام وصاحبه الشيخ العلامة اسماعيل الشهيد لمصالحهم السياسية وهذا وان لم تكن فيه غضاضة ، فقد ظل المصلحون يقتبس بعضهم من بعض . لم يثبت تاريخياً كما حققه كثير من الباحثين ولم يتحقق أن احدهما لقي أحد تلاميذ الشيخ أو دعاته . (راجع الحركة الاسلامية الاولى في الهند تأليف الاستاذ مسعود الندوي) أما ما يجده القارىء من موافقات او التقاءات في الدعوتين او بين « رسالة التوحيد » للشيخ وكتاب « تقوية الايمان » او «الصراط المستقيم» للشيخ اسماعيل الشهيد فلأن مصدرهما واحد ، وهي الدراسة العميقة الاصيلة للكتاب والسنة والتضلع من روح الاسلام الصافية والغيرة على عقيدة الاسلام ودعوته ليس إلا . (الندوي)

(٢) « نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر » الجزء السابع ، طبع دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد (الهند) .

اذا هبت ريح الايمان

سموه باسمي

قام السيد الإمام احمد الشهيد بجولة إصلاحية دعوية، ما بين دهلي وسهارنفور في سنة ١٢٣٣ هـ و زار القرى ، والمدن ، ومكث بها أياماً وأسابيع ، يدعو الناس إلى الله ، والتمسك بالسنة ، وهجر البدع والخرافات ، ويحث على تزكية النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، ويقوم شيخ الإسلام عبد الحي البرهانوي ، وهو من أخص أصحابه ، والمجاهد الجليل الشيخ اسماعيل بن عبد الغني بن ولي الله الدهلوي ، وغيره من علماء الجماعة بالوعظ ، والنصح ، والارشاد ، وقد هدى الله في هذه الجولة الموفقة خلقاً يبلغ عددهم إلى الألوف ، وتاب على يد السيد خلق لا يعلم عددهم إلا الله ، وتابوا عن الشرك ، وعادات الجاهلية ، وشعائر الوثنية ، وبايعوا على الجهاد في سبيل الله .

وتاب على يد أصحابه الذين خرجوا في القرى يعظون ، ويعلمون الناس الدين ، غلام هندكي في التاسعة من سنه ، كان يحضر وعظه ، وشرح الله صدره للإسلام ، وأحب هذا الدين وأهله وأراد أن يسلم ، فذهب إلى الشيخ رمضان - وهو الواعظ الذي غرس في قلبه حب الاسلام فإذا بجمع من الوثنيين من اهل قريته ، واقفون تحت المسجد يستمعون وعظه ، قال : فوقفت بينهم ،

وتهيبت لصغر سني ، ومكان هؤلاء ، ثم خامرني سرور عجيب لا عهد لي به واعترتني نشوة لم أعرفها من قبل ، فغلبت على أمري فتقدمت اليه ، وأنا لا أملك من أمري شيئاً ، وقلت للشيخ :أنا أريد أن أدخل في الاسلام ، فلقنني الشهادة ، وأدخلني في زمرة المسلمين ؟ فأجلسني بجواره ، وأحد إلي النظر وقال : هل تريد أن تدخل في الإسلام حقاً ؟ قلت نعم ! فأرسلني مع أخ له إلى السيد ، وهو في سهارنفور ، وأسلمت على يده الكريمة ، وقد غمرتني موجة السرور .

يقول من كان في هذا المجلس : إنه لما وصل هذا الغلام إلى السيد ، أدناه بلطف ، وأجلسه في جنبه ، وكان يمسح رأسه بلطف وشفقة ، مرة بعد مرة ، ويقول : يا سبحان الله ، ما أعظم هدايته ، إذا أراد بأحد خيراً ، قذف في قلبه نوراً ، فبحث عن الصراط المستقيم ،ثم التفت إلى الشيخ عبد الحي البرهانوي ، وقال : بالله لقنه كلمة التوحيد ، ولا تتأخر في هذا البر العظيم طرفة عين ، فلقنه الشيخ التوحيد ،ومبادىء الاسلام ، وقال السيد :اختر له اسماً إسلامياً ، وبادر الشيخ وقال : نسميه « كريم الدين » .

وكان في هذا المجلس جم حاشد من أعيان البلد ووجهائه ، وسراة[1] الناس ، وكان اسم عدد منهم « كريم الدين » فقال بعضهم : لا تسموه بهذا الاسم ، فانه اسم كثير من أعيان الناس وإنهم يأنفون من أن يكون لهم هذا الغلام سمياً ، وإنهم يشعرون في ذلك بإهانة ، فابتدر السيد قائلاً : إذاً سموه باسمي ، سموه « أحمد » ؛ فسكت الناس ، وانقطع لسان المعترضين .

وأسلمه السيد إلى الشيخ « مغيث الدين » وهو من أخص أصحابه ، وقال : علمه الصلاة والقرآن ، وأحكام الشرع ، وآداب الدين ، فاذا أعلمتك بقصدي

---

(١) السراة : كرام الناس

للحج ، أخذته معك ، فانـــه سيسعد بالحج إن شاء الله ، وكان كذلك ، فقد رافق السيد في رحلته التاريخية للحج ، واشتهر « بالحاج أحمد » .

وكان لا بد من الانكار على هذه الحمية الجاهلية ، والأنفة النفسانية ، فأقبل السيد على الشيخ عبد الحي ، ومولانا محمد إسماعيل ، وقال : لا تزال في قلوب المسلمين ، وحياتهم ، في هـــذه البلاد بقايا جاهلية ، ورواسب عهد الشرك ، والوثنية ، إذا لم تقتلع جرثومتها [1] من القلب ، يخاف أن يكون في ذلـــك زوال إيمانهم ، وخلل في دينهم .

منها : أنـــه إذا مات ولد أحدهم ، ورزقه الله ولداً آخر ، لم يسمه باسم السابق تشاؤماً ، وحذراً من أن يموت .

ومنها : أن فقراء المسلمين لا يستطيعون أن يسموا أولادهم بأسماء الأغنياء والأعيان ، والوجهاء .

ومنها : أن الأغنياء ، وأشراف الناس يستنكفون عن قبول دعوة الفقراء ، ويرون في ذلك غضاضة وعاراً [2] .

ومنها : أن الفقراء ، وعامة الناس لا يستطيعون أن يطبخوا في ولائمهم ، ومآدبهم الأطعمة التي يطبخها الأغنياء والأشراف ، وإن ذلك يعتبر معارضة ومنافسة لهم ، فيما يعتقد من خصائصهم .

وذكر أمثال هذه « الأعراف » الجاهلية ، ومـــا تواضعت عليه الطبقات الرفيعة ، وعلية القوم ، من مصطلحات وعادات ، ما أنزل الله بها من سلطان ،

---

(١) الجرثوم والجرثومة من الشيء : أصله

(٢) ذلة ومنقصة

وما جاءت في الحديث والقرآن ، ولم تعرف في القرون المشهود لها بالخير ، وإنما هي أسماء سموها هم ، وآباؤهم ، واخترعها كبراؤهم ، ورؤساؤهم ، ثم أمر الشيخ عبد الحي بأن يلقي في هذا الموضوع خطبة ، وينبه الناس على ما فيها من مفاسد، ومكايد للشيطان ، فألقى خطبة بليغة ، أخـــذت بمجامع القلوب ، وذرفت العيون بالدموع ، حتى بلت الثياب ، وعـــلا هتاف الناس ، يقولون : آمنا وصدقنا، وسمعنا وأطعنا ثم دعا السيد في ابتهال وخشوع ، وكان يوماً مشهوداً، وتقدم الناس الذين منعوا من تسمية « كريم الدين » فبايعوا السيد من جديد ، وتابوا على يده .



توبة نصوح

نزل السيد وأصحابه في « لكناؤ » سنة ١٢٣٤ هـ على تل مشرف على البلد ، فيه الجامع الكبير ، واشتغل بالدعوة والاصلاح وقد اجتمعت في العاصمة [١] جميع الأسباب ، والعوامل التي تفسد الأخلاق ، وتلهي الناس عن الخالق والآخرة ، وعن غاية الحياة ، وترضي الشيطان ، من شباب وفراغ وجدة [٢] ، ووجود طبقة مترفة ، لاهم لها في الحياة إلا إرضاء الشهوات ، والاشتغال بالملاهي والملذات ، وبسبب وجود حكام جائرين ، لا يخافون عقاباً ، ولا يرجون حساباً ، وحكومة شيعية ، غالية متطرفة ، وفشت الأخلاق الجاهلية ، وانتشرت الملاهي والمعازف [٣] وظهرت القينات ، والمغنيات ، والطبقات المحترفة بتسلية الأمراء والأغنياء ، وظهر الشطار والمتكسبون بطرق غير

---

(١) كانت لكناؤ عاصمة امارة أوده (Oudh) في الولاية الشمالية في آخر أيام الدولة المغولية ، كانت تحكم فيها أسرة ايرانية الأصل ، شيعية المذهب ، استقلت في أوائل القرن الثالث عشر الهجري ، وانقرضت هذه الحكومة في سنة ١٨٥٧ م ، وكان شاه غازي الدين حيدر ملك البلاد ، حين زار السيد لكناؤ ، ومعتمد الدولة آغا مير رئيس الوزراء .

(٢) قال أبو العتاهية : ان الشباب ، والفراغ ، والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة
والجدة : الغنى والقدرة

(٣) آلات الطرب .

مشروعة وغير شريفة ، وفشا في المسلمين تقليد الأعاجم ، والوثنيين ، في الشعائر ، والعادات ، والأزياء والأخلاق .

واجتمع في المدينة الحذاق في كل صناعة وفن ، ولما كانت مركز حكومة وإدارة ، جذبت أهل الكمال والنبوغ ، وأصحاب الفتوة والفروسية ، والنبل والمروءة كما يجذب المغناطيس القطع الحديدية ، واجتمع أهل الرذيلة والفضيلة في البلد سواءاً ، شأن العواصم والمدن الكبرى ، فكانت مركز العلم والأدب ، والتدريس والتأليف ، كما كانت مركزاً للهو والعبث ، والمجون .

وتسامع أهل البلد بقدوم هذه الجماعة الغريبة ، وبأميرها ، وشيخها السيد أحمد ، وشاعت أخبار أخلاقه وتواضعه ، وتأثير صحبته وحديثه ، وبعلماء الجماعة ، ومواعظهم البليغة ، المؤثرة في النفوس ، المرققة للقلوب ، وبتقشفهم في الحياة وبساطتهم في المعيشة ، وبأنهم سواسية في الطعام والشراب ، واللباس والمنام ، لا يمتاز أحد عن آخر ، وأنهم بالليل رهبان ، وبالنهار فرسان ، يخدم كل واحد صاحبه ، ويؤثره على نفسه ، فأقبلوا عليهم من كل صوب وناحية . بين زائر متفرج ، وبين مستخبر متفحص ، وبين طالب للدين ، وراغب في الاصلاح . وبين نادم على حياته السابقة ، مقبل على الآخرة ، والسيد يتلقى الجميع ببشاشة وترحيب ويسعهم بأخلاقه . ويوطىء لهم أكنافه . ويؤنسهم بحديثه العذب الرقيق ، وقد يشركهم في طعام الجماعة ، فترق القلوب القاسية ، وتلين النفوس العاصية ، وتكثر التوبة والاقلاع عن المعاصي والذنوب ، وهجر عادات الجاهلية ، وشعائرها ، وتقليد غير المسلمين في أزيائهم وشعاراتهم ، ولا يرجعون عن هذا المكان إلا بزاد من التقوى ، ونور من اليقين ، وتغير في الحياة ، وثناء عاطر على هذه الجماعة ، وقائدها .

وبينما السيد جالس يوماً في مكانه المعتاد ، دخل الجامع رهط في مقدمتهم أمان الله خان ، وسبحان خان ، ومرزا همايون بيك [1] ، وحول السيد جماعة

---

(١) حفظ الراوي أسماء هؤلاء الثلاثة ، ونسي أسماء غيرهم .

من أصحابه ، وحانت منهم التفاتة إلى هؤلاء الداخلين، فتقطبت [1] جباههم ، وظهرت الكراهة في وجوههم وشعر بذلك السيد ، وسأل عن السبب ، وقال : من هؤلاء القادمون ؟ قالوا : إنهم رجال سوء ، ليس نوع من أنواع الشطارة واللصوصية ، إلا وقد فاقوا فيه ، واشتهروا به ، قال السيد : إياكم أن تفشوا هذا السر ، وتتفوهوا بما يسوؤهم ، ويكسر خاطرهم، وإني لأرجو الله أن يكره إليهم الفسوق والعصيان ، ويزهدهم في الأعمال الشنيعة ، ويوفقهم للتوبة والاصلاح ، ويختم لهم بالحسنى .

وما أتم السيد كلامه ، حتى وصل هؤلاء النفر ، وصافحوه ، وعانقوه ، وتلقاهم السيد بحفاوة وإكرام ، وأجلسهم في جنبه . وأقبل عليهم ينظر فيهم طويلاً ، وجلسوا قليلاً ثم استأذنوه ، وأرادوا الانصراف ، حينئذ سألهم السيد عن مهنتهم ، وصناعتهم ، وقال : بماذا تشتغلون أيها السادة ! قالوا في حياء وخجل ، لا تسألنا عن ذلك ، وأعفنا عن هذا السؤال ، وقاطعهم بعض أصدقائهم الذين حضروا ، فقالوا : لا تتضايقوا يا إخواننا ! بهذا السؤال ، ولا تتحرجوا من الصراحة والاخبار بالأمر الواقع ، فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم !

وشجعهم السيد ، فذكروا ما يشتغلون به من أمور منكرة ، ويتكسبون بها ، ويعيشون عليها . واسترسلوا في الكلام ، وأفاضوا فيه ، فما تركوا نوعاً من أنواع الجريمة والرذيلة ، إلا وذكروا صلتهم به ، وتعاطيهم له ، وقالوا في اعتراف وصراحة ، لقد كان هذا دأبنا ، وصناعتنا إلى هذا اليوم ، ولكننا نتوب الآن على يدك الكريمة عن جميع هذه الأعمال ، وكل ما يخالف أحكام الاسلام ، ويغضب الله ورسوله ، ولم يدر هذا بخاطرنا قط ، حين قصدنا هذا المكان ، إنما كان غرضنا أن نتفرج ونتمتع ، ولكننا لما جلسنا عندك ، ورأينا

---

(١) انزوت وتجعدت .

أخلاقك الفاضلة ، وأكرمت وفادتنا ، وعاملتنا بما لا نستحقه ، ولم نكن نتوقعه ، أنكرنا نفوسنا وقلوبنا ، فاذا هي غير ما كنا نعرفها وإذا بها تحدثنا بأن نهجر بيوتنا وأهلنا ، ونلزمك فلا نفارقك ، فاسمح لنا أن نبايعك ونتوب إلى الله على يدك .

قال السيد : لا داعي إلى العجل ، فتعالوا يوم الجمعة ، نأخذ منكم البيعة ، ونحقق ما تطلبونه .

وانصرف هؤلاء الرهط إلى بيوتهم ، فلما كان يوم جمعة ، وتعالى النهار ، حضروا ، ووعدهم السيد بتحقيق مطلبهم بعد صلاة الجمعة ، فلما صلى الناس الجمعة طلبهم السيد ، فبايعهم على طاعة الله ورسوله ، وترك المعاصي ، وعلى التوحيد ، والدين الخالص ، والابتعاد عن جميع أنواع الشرك والبدع ، وقدموا نقوداً كهدية ، وأخذها السيد ، ثم ردها إليهم ، وقال : هذه هدية مني لأطفالكم وعيالكم ، قالوا نريد أن يبايعوا كذلك ، ويتوبوا إلى الله ، قال سوف نزورهم إذا مررنا بناحية قريبة ، وهكذا كان ، فقد بايعوا السيد في يوم ، وتابوا على يده .

ولما بايع أمان الله خان ، وسبحان خان ، ومرزا همايون بيك ، وكانوا من زعماء هذه الطائفة ، ومقدميها ، لم يعلم بذلك كثير من أصدقائهم ، فجاء غلام رسول خان ، وغلام حيدر خان ، وصدر خان ، إلى أمان الله ، وقالوا له ، إننا في ضائقة في هذه الأيام ، ولا بد من حيلة وسعي ، يعني يجب علينا أن نفكر في وضع خطة للوصول إلى هذا الغرض ، قال أمان الله خان : لا شأن لي بذلك ، وإنني لا أستطيع أن أساعدكم بشيء ، وتعجب الأصدقاء الثلاثة ، وقالوا : لم نفهم ما تقول ! أتريد أنك لا تستطيع أن ترافقنا في هذا اليوم ، وتستطيع أن تخرج معنا في يوم آخر ، أم ماذا ؟

قال مرزا همايون بيك : ليست القضية قضية اليوم والغد ، إنما هي قضية

الحياة ، والسر في هذا أننا تبنا إلى الله من هذه الأعمال ، فلا نعود إليها أبداً ، قالوا : ومتى كان هذا ؟ وفي أي مكان يا أخي ؟!

قال همايون : قد ذهبنا أنا وزميلاي إلى تل [1] الشيخ « بير محمد » فبايعنا فيه السيد أحمد الذي جاء من « راي بريلي » وتبنا على يده عن جميع المعاصي ، وذكر شيئاً من أخبار السيد وفضله ، وأخلاقه .

واشتاق غلام رسول خان وأصحابه إلى زيارة السيد ، وأن يجربوا ما جربه زملاؤهم ، وأخبر السابقون السيد بخبر هؤلآء ، وما كان من أمرهم ، فأذن لهم السيد ، فجاؤا ووجدوا أكثر مما سمعوه ، وبايعوا السيد ، وتابوا توبة نصوحاً ، وتغيرت أخلاقهم وحياتهم ، وصاروا يعافون مال الحرام ، فلا يقربونه ، وشق عليهم أن يستعملوا ما كان في بيوتهم من مال مشكوك فيه ، وما كان من المتاع القديم من مكاسب من غير حل ، ولما أراد السيد أن يعود إلى بلده ، طلبوا منه المرافقة ، لأنهم يخافون أن يتورطوا في حرام ، أو يتمتعوا بما في بيوتهم ، فأثنى عليهم السيد ، ودعا لهم بالبركة ، وأشار عليهم بالاشتغال بالمهن المشروعة ، وكسب الحلال ، والكد باليمين وعرق الجبين .

ولما هاجر السيد للجهاد ، رافقه أكثرهم ، فمنهم من استشهد في سبيل الله ، ومنهم من عاش على الصلاح والعفاف ، وخدمة الاسلام والمسلمين ، والنصح لله ولرسوله ، والسعي لاعلاء كلمة الله .



---

(١) المكان الذي نزل فيه السيد وجماعته ، ولا يزال مشهوراً بهذا الاسم في « لكناؤ » وفيه جامع كبير ، بناه السلطان عالمكير اورنك زيب ـ رحمه الله ـ .

من الترف الى الشظف

كان « ولايت علي » العظيم آبادي من أبناء اليسار والشرف ، نشأ نشأة أبناء الأمراء وكبار الأغنياء ، أبوه « الشيخ فتـــح علي » عالم البلد ، ومن أعيانها وسراتها ، وجـــده ـ لأمه ـ رفيـع الدين حسين خان ، حاكم مقاطعة بهـــار « رئيسها الاداري » .

تعلم « ولايت علي » في بيته وبلده مـا تعلم ، ثم سافر إلى لكهنؤ ـ بلد العلم ودار الحكومة ومركز الحضارة ـ فكان فيها مثلاً في أناقــة اللباس ، وحسن الهندام [1] ، وجمال الشارة [2] ، وكان يؤثر أغلى الملابس ، وأفخرها ، ويكثر من الطيب والعطور .

اتفق قدوم الامام السيد أحمد مع ركبه الميمون في لكهنؤ ، وجاء الشيـخ محمد أشرف اللكهنوى ، يزور السيد ، ويختبر علمه ، وجاء معه تلميذه النجيب « ولايت علي » ليشهد انتصار أستاذه ، وسأل الشيـخ محمد أشرف السيد عـن معنى قوله تعالى « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وتكلم السيد عن الآية ، وبدأ يفسرها في أسلوبه العجيب ، فسمعا كلاماً لم يسمعاه من قبـــل ، ولم يقرآه في

---

(١) الهندام : حسن القد واعتداله ،

(٢) الشارة : اللباس والزينة .

كتـاب ، وبكي الشيخ حتى اخضلت لحيته ، وبايعا السيد ، ولزمـــه الشاب « ولايت علي » وصحبه إلى قريته .

وهنا في القرية تغير الشاب عما كان عليه من التجمل في اللباس ، والتنعم في العيش ، وهانت في عينه المظاهر ، وملكت قلبه حقائق ، هي أعلى وأحلى ، من الملبس والمطعم ، ورأى حياة أجمل وأقرب إلى الطبيعة من الحياة المصطنعة الأولى ، فاندمج فيها ، واشتغل مع زملائه بكل ما يشتغلون به من عمل وحمل، ورأى أنه أنعم بالاً ، وأهنأ عيشاً من ذي قبل .

وبينما هو ذات يوم يشتغل بالماء والطين ـ وهو في ملابس متواضعة ـ إذ جاء خادمــه القديم ، وقد أرسله أبوه مع أربعـــمائة روبيــة ، ومجموعة كبيرة من الملابس الفاخرة ، ومتاع غير ذلك،وصادفه الخادم ـ وقد تغيرت هيئة الشاب ـ فسأله عن « ولايت علي » فقال : أنا ولايت علي ! قال الخادم : لا تسخر مني ، فانما أسأل عن ولايت علي ابن العالم الكبير الشيخ فتـــح علي ، وسبط الأمير الجليل رفيــع الدين حسين خان ، فقــال : إذا لم تصدقني ، فاذهب ، وابحث عـــن صاحبك ، فذهب الخادم وجعل يسأل عن السيد ولايت علي ، والناس يشيرون إلى الأول ، ويقولون هوذا ! ، فرجع الخادم وبكى ، وقدم إليه المال والملابس ، وذهب الشاب إلى شيخه ، ووضع كل ذلك بين يديه ليقسمه على من يستحقه ، ويضعه حيث يرى ، ثم عاد ، فاشتغل مع زملائه كأن لم يقع شيء .



مجتمع اسلامي متجول

تعطلت فريضة الحج في الهنـد من مدة قريبـة ، أفتى بعض العلماء ، الذين كان أكثر اشتغالهم بالعلوم العقلية ، ولم تكن لهم قدم راسخة في علوم الكتاب والسنة ، وكان معولهم على بعض الكتب الفقهيـة ، والأقوال الشاذة ، بسقوط فريضة الحج عن ذمة المسلمين في الهند ، على أساس أن السفر في السفن الشراعية في البحر خطر على النفوس والأرواح ، فـلا يتحقق الشرط « من استطاع إليه سبيلا » وخاف أهل الغيرة الدينية ، والفراسة الايمانية ، والراسخون في العلم ، أن المسلمين لو استجابوا لهذه الدعوة وانصرفوا عـن الحج ، صعبت عودتهم إلى هذه الفريضة ، وشق تجديد هذا الركن العظيم في الاسلام ، ووقـع خلل عظيم في الدين ، وثلمـة لا تسد في حصن الاسلام الحصين ، فقام السيد الامام أحمد بن عرفان الشهيد ، وصاحباه مولانا عبد الحي البرهانوي ، ومولانا إسماعيل الشهيد الدهلوي بحملة علمية وعملية قوية ضد هذه الفتنة [١] العمياء ، ثم نادى السيد في الناس بالحج ، وأرسل البعوث ، وكتب الرسائل ، وتكفل نفقات كل من ليس عنده زاد ، وطار ذلك في الهند ، وشاع في الناس ، فالتهبت جمرات الشوق والايمـــان الخامدة ، وقويت الهمم الفاترة ، وصار المسلمون في أنحـــاء الهند

---

(١) اقرأ القصة بطولها في الكتب التي ألفت في « سيرة السيد أحمد شهيد » ـ رحمه الله ـ .

يستعدون للسفر ، ويتزودون له بكل طريق ممكن ، ودبت في المسلمين حياة إيمانية جديدة ، وقوى الحنين إلى البيت الحرام ، وأم الناس من كل ناحية من أنحاء الهند مركز هذه الدعوة وقطبها، والتفوا حوله ، فما من يوم إلا وفيه وفد من قاصدي الحج ، والمستجيبين لدعوة الله ، ونداء خليله إبراهيم .

« وأذن في النـاس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

وجاء اليوم الموعود المشهود ، وتوكل السيد على الله ، وخرج مع الناس في سلخ شوال سنة ١٢٣٦ هـ ، وعبر النهر الصغير الذي يجري أمام قريته ، وودع الذين جاؤا لوداعه ، وتوجه إلى « دلمئو [١] » ليركب منها على سفن تصل به إلى « كلكته » وقد بلغ عدد رفاقه وأتباعه إلى أربعمائة نفس حين خرج من بلده [٢] .

وكانت هذه القافلة مدرسة سيارة ، وثكنة جوالة ، ومجتمعاً دينياً متنقلا ، تلقى فيه المواعظ والخطب ، ويتعلم النـاس الدين وأحكام الشرع ، وآداب الاسلام ، ويخدم بعضهم بعضاً ، ويتعاونون على البر والتقوى ، ويسود جو من الأخوة والمواساة ، والعدل والمساواة ، لا يستنكف أحد عن عمل مهما كان حقيراً ، ويتحملون المشاق، ويستلذون بها ، ويحتسبونها في سبيل الله ، ويهنئون عليها نفوسهم وإخوانهم ، وكانوا كأعضاء جسد واحد ، وأبناء أسرة واحدة، وكان يغشاهم سحاب من سكينة ووقار ، وهدوء وسلام وإخاء ووئام [٣] ، قد تناسوا أوطانهم وبيوتهم ، وما كانوا فيه من نعيم ورخاء ، وسكون واستقرار ، يحدوهم حادي الحب والشوق ، ويقودهم قائد الايمان والاحتساب ، وقد سمعوا

---

(١) قرية كبيرة في مديرية « راي بريلي » على شاطىء نهر الكنج (GANGA) .
(٢) فقد تكامل هذا العدد في « كلكته » وبلغ إلى سبعمائة نفس .
(٣) موافقة .

ما ورد في فضل « من أحيا سنة بعد ما أميتت (١) » فكيف بفضل من سعى لاحياء فريضة وهجرت وعطلت .

وقـــد وقف السيد بعد صلاة الصبح بعد ما بدأت القافلة رحلتها وقطعت مسافة قصيرة ، وخاطب أصحابه قائلاً :

« إخواني ! إنكم هجرتم أوطانكم ومنازلكم ، لتسعدوا بالحـــج والعمرة ، ابتغــاء رضوان الله ، فيلزمكم أن تكونوا إخوة متحابين ، كأنكم أشقاء ، أبوكم واحد وأمكم واحدة ، ويحب أحدكم لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه ، وليشارك كل واحد صاحبه فيما يشتغل به ، ولا يستنكف عن خدمته ، بل يعتبر ذلك شرفاً وفخراً ، فاذا رأى الناس فيكم هذه الأخلاق حرصوا على صحبتكم ومرافقتكم ، وقالوا هؤلآء من طراز خاص ، ونوع فريد ، ففاز هؤلآء القوم ، وحسن أولئك رفيقاً » .

ثم حث الناس على التوكل ، وذكر أن الله هو الرزاق الحقيقي ، وأنه يرزق الانسان من حيث لا يحتسب ، « وما من دابــة في الأرض إلى على الله رزقها » وقال إنني لأرجو أن الله يهدي في هذه الرحلة مئات آلاف من الناس ، ويخرج آلافاً من الذين قد غاصوا في مستنقع (٢) الشرك والبدع ، والجهالة إلى أذقانهم ، وجهلوا شعائر الاسلام جهلا باتاً ، فيعودون باذن الله موحدين ، مؤمنين متقين .

وإنني دعوت الله كثيراً لأهل الهند ، وقلت يا ربنا ! إن الطريق إلى بيتك قد أصبح مسدوداً ، وقد سول الشيطان لكثير من الأغنياء ، أن الأمن مفقود

---

(١) جاء في مسند رزين عن علي ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً : من أحيا سنة من سنتي أميتت بعدي فقــد أحبني ومن احبني كان معي ، وعـــن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من تمسك بسنتي عند فساد امتي فله اجر مائة شهيد (رواه الطبراني) .

(٢) مكان يجتمع فيه الماء .

في الطريق ، فلا حج عليهم ، فماتوا من غير أن يحجوا ، ولا يزال آلاف من أصحاب الثراء واليسار الذين وسع الله لهم في الرزق ، وأغدق عليهم الأموال لا يفكرون في الحج ، وقد استولى عليهم هذا الخوف ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل ، فيا رب افتح الطريق إلى بيتك برحمتك ، فلا يخف أحد ، ولا يحرم هذه السعادة العظمى ، والفريضة الكبرى ، وقد أجاب الله دعائي ، فمن يعش منكم يرى ذلك بأم عينه ، ويشاهده عياناً » .

وهكذا كان ، فقد فتح باب الحج على مصراعيه ، وتدفق الناس للحج في كل سنة ، وهم في ازدياد وتقدم ، وأصبحت الفكرة المعارضة أثراً من آثار التاريخ، وأسطورة من الأساطير .



روح التطوع والخدمة

وصل السيد ورفاقه في طريقهم إلى « كلكته » إلى بلد على شاطىء النهر ، اسمه « مرزاپور » ، وإذا بسفينة حمولة ، واقفة على الشاطىء ، مشحونة بغرائر وجواليق من القطن ، وصاحب السفينة ينتظر الحمالين ، الذين ينقلون هذه الجوالق إلى مخزنه ، فاضطرت سفن الحجاج إلى الانتظار بعيداً عن الشاطىء حتى يأتي دورها ، سأل السيد عن السبب ، فقالوا : سفينة حمولة قد حجزت الشاطيء ، وسدت طريقنا ، وهي تنتظر التفريغ ، والحمالون غائبون ، فقال : ومن يمنعنا عن أن نباشر هذا العمل ؟ ألسنا بشراً ، أم أيدينا مكتوفة أو مغلولة ؟ ، ولم يتم الأمير هذه الكلمة ، حتى وثب الناس – وفيهم كبار العلماء وأبناء الأشراف والأغنياء – إلى السفينة ، وتخطفوا هذه الأعدال [1] الثقيلة ، يحملونها على رؤوسهم وأكتافهم ، منهم من يستقل بحمله ، ومنهم من يتعاون مع صاحبه ، ينقلونها إلى حيث يريد التاجر ، حتى فرغت السفينة في وقت قصير ، وكفى التاجر مؤنة الحمل والأجرة ، والناس ينظرون إلى هذه الجماعة في دهشة واستغراب ، وفي سرور وإعجاب ، ويقولون : عجباً لهؤلاء الحجاج يقومون بهذا العمل الشاق تطوعاً واحتساباً ، وليس بينهم وبين هذا التاجر سابق معرفة ، ولا يد يحفظونها ، ولا نعمة يجزونها ، إنهم من نوع آخر من الرجال .

(١) جمع عدل ، وهو الجوالق والفرارة .

المساواة الاسلامية

تأثر المسلمون في الهند لطول إقامتهم في هذه البلاد ، وضعف التعليم الديني، وتأثير العنصر الحاكم ، الذي لم يسغ التعاليم الاسلامية كل الاساغة ، وكانت فيه بقايا الجاهلية من عادات المواطنين ، وظهر فيهم التمييز بين الطبقات ، واحتقار بعض الصناعات ، والتفاخر بالأنساب ، وكان كثير من أبناء البيوتات الشريفة يتعيرون من مخالطة أصحاب الحرف الوضيعة ، ومؤاكلتهم ، ويرون في ذلك غضاضة وعاراً ، وكان السيد يحارب هذه النزعة بكل عزم وجد ، ويدعو إلى التعاليم الاسلامية لاحترام الانسانية ، والمساواة بين المسلمين .

وكان في « مرزا پور » سبعة بيوت ، يشتغل أهلها بصنع الآجر والقرميد ، يطبخونها ثم ينقلونها إلى بيوت من يشتريها ويرغب فيها ، وكانوا يستخدمون في ذلك الحمير والبغال ، يربونها ويقتنونها [١] ، وكان بعضهم يملك خمسين حماراً وبغلاً فأكثر ، وبعضهم ستين ، وكانت هذه صناعتهم وحرفتهم ، وقد اشتهروا في البلد « بالحمارة » أو أصحاب الحمير ، وأصبح لهم لقباً وشعاراً ، فهجرهم الأشراف ، وأبناء البيوتات ، وكانوا يتعيرون من مجالستهم ، ويتقززون [٢] من الأكل معهم ، وأصبح ذلك شعاراً للاشراف والأغنياء .

---

(١) اقتنى المال : جمعه واتخذه لنفسه .

(٢) تقزز من الدنس : عافه وتجنبه .

ولما وصل السيد إلى « مرزا پور » ورأى هؤلاء الحمارة إقبال الناس على هذه الجماعة ، ورأوا تواضعهم ، ودماثة خلقهم وعرفوا أنهم قد خرجوا من بيوتهم يقصدون بيت الله ، ووقع حب أميرهم في قلبهم ، أرادوا أن يتبركوا بهذه الجماعة ، ويضيفوا ضيوف الله فدعوا السيد وزملاءه إلى الطعام ، وهم بين خوف ورجاء ، وشجاعة وحياء ، تثبط همتهم التجارب السابقة ، وقد أقيم بينهم وبين غيرهم من المسلمين سور لا يتسوره أحد ، وتطمعهم أخلاق هذه الجماعة في إجابة هذا الطلب ، ثم تشجعوا أخيراً ، وتوكلوا على الله ، وقالوا للسيد :

أتكرمنا يا سيدي بقبول دعوتنا ، والأكل على مائدتنا مع زملائك الكرام ؟ .

قال السيد : نعم وكرامة !

وفرح « الحمارة » واغتبطوا به ، ورجعوا إلى بيوتهم مسرورين .

ولما سمع الناس بذلك في البلد ، أفزعهم ذلك ، وكبر على الأشراف وسراة الناس ! ومشى كثير منهم إلى السيد ، وقالوا له : إنا لا نرى لكم رأياً أن تلبوا دعوة هؤلاء الحمارة، وتأكلوا عندهم ، وليس في البلد من يأكل عندهم من المسلمين.

قال السيد : ولماذا ؟ أليسوا مسلمين ؟ ألا يتكسبون بالحلال ؟ وما ذنبهم ؟ إن الركوب على الحمار سنة ثابتة ، وقد أثر عن الأنبياء والأولياء ركوب هذه الدواب ، واقتناؤها ، وتربيتها ، فلا تزال هذه العادة في الحرمين الشريفين ، يركب الناس الحمير والبغال ، ولا يرون بذلك بأساً ، ووعظهم السيد ، وبين لهم ، أن التعيير بمثل هذا من عادات الجاهلية ، وتسويلات الشيطان .

ذهب السيد مع أصحابه إلى صانعي الطوب ، المشهورين بالحمارة في البلد ، وآنسهم وانبسط لهم ، وتناول الطعام .

وبعدما انصرف من الأكل قدم إليهم أصحاب الدعوة مبلغاً من المال ، ورزمة [1] من الثياب الفاخرة ، والقماش الغالي هدية ، واعتذر السيد عن قبول هذه الهدية ، ولما رأى الكراهة والحزن في وجوههم ، قال لهم : هونوا عليكم يا إخواني ، فانني لم أعتذر عن قبول هديتكم إلا لمصلحتكم ، فإنا لو قبلنا هذه الهدايا ، لقال الناس : إنما قبلوا الدعوة طمعاً في هذه الطرف والهدايا ، والأموال الطائلة ، أما الآن فلا يجد الناس شيئاً يتعللون به ، وسيقبلون على مؤاكلتكم ومجالستكم ، ولا يرون في ذلك غضاضة .

وهكذا كان ، فقد انهار هذا السور الحاجز بين هؤلاء وأهل البلد ، وبدأ الناس يؤاكلونهم ويجالسونهم .



(١) الرزمة من الثياب وغيرها : ما جمع وشد معا ، ج رزم .

التائب من الذنب كمن لا ذنب له

كان الشيخ عبد الحي البرهانوي – وهو شيخ الاسلام في قافلة الحجاج وجيش المجاهدين – قائماً بالوعظ والارشاد في الاقامة والظعن ، كلما حل السيد وجماعته ببلد واجتمع النـــاس ، قام يخطب ويدعو الناس إلى الله ، وإلى إصلاح الحال ، والاقلاع عن الذنوب والمعاصي ، وهجر البدع والخرافات ، وعادات الجاهلية ، وشعائر الوثنية ، فـترق القلوب ، وتدمع العيون ، ويجـــدد الناس الاسلام والايمان ، ويعاهدون الله على الطاعة وترك المعاصي ، وقد ساق امرأة تتكسب بالبغاء سائق التوفيق إلى مجلس من مجالس الوعظ ، وندمت على حياتها السابقة ، وتابت من عملها ، وبايعت السيد على الايمان والطاعة ، وحياة الطهر والعفاف .

وكانت كثير من العادات الجاهلية ، قد تسربت إلى أسر المسلمين وبيوتاتهم الشريفة ، ودب إليهم داء الكبر والخيـــلاء ، والتطاول بالنسب ، وأصبحوا يعتقدون لهم فضلاً على غيرهم ،

وكان كثير منهم يحتقر من تلوث بمعصية أو تورط في ذنب ، ولو تاب منه ، وكانت سيدات البيوت الكريمة العريقــة في النسب والشرف يتعيرن من مخالطة من ليست في درجتهن من النسب ، والدين والمروءة ، وغـــلون في الحجاب ، وبالغن فيه مبالغة لم يكلفهن بها الشرع حتى جر ذلك في بعض الأحيان إلى ترك بعض الفرائض الدينية ، وتضييع الصلوات في السفر .

ولما تابت هذه المرأة السعيدة ، أمر السيد ابن أخته السيد عبد الرحمن بأن يركبها في سفينة من سفن النساء ، فذهب بها السيد إلى سفينة من سفن الجماعة ، وأراد أن يركبها فتصايحت النساء وقلن : لا مكان لها في هذه السفينة ، أركبها في سفينة أخرى ، فذهب بهـا إلى سفينة أخرى وعافت النساء هنالك كذلك من أن تكون زميلة لهن ، وقلن : مومسة [1] لا نسمح لها بالمرافقة !

ولما سمع الشيخ عبد الحي ذلك ، ذهب إلى السفينة ، وهتف قائلاً : لماذا لا تسمحن بركوب هذه المرأة السعيدة ، إنها تابت اليوم عن جميع ذنوبهـا وآثامها « فهي اليوم أفضل منكن جميعاً عند الله ، وإنكن في شريعة الله سواء » قلن إن كان هذا حقاً ، فلتجلس محتجبة على ظهر السفينة ، قال الشيخ : ولماذا لا تجلس إحداكن على ظهر السفينة ، ولمـــاذا تجلس هي وحدها على الظهر ، ولا تجلس معكن ؟! فطال الكلام ، والأخذ والرد ، وغضب الشيخ وأمر زوجته بأن تخرج في الحجاب الشرعي ، ثم قال لها : ألم آخذ منك عهداً على أنك تعملين بأحكام الشريعة في هـذا السفر ، وتعملين كآحاد النساء . وتطحنين الحبوب ، وتمشين على الأقدام عنـد الضرورة ، ثم أشار إلى الناس ، وقال : انظروا هذه زوجة عبد الحي ، وهذا هو الحجاب الشرعي ، ثم أذن لها بالركوب ، وذهب الشيخ إسماعيل إلى السفينة ونادى أختها « رقية » وقال لها : يا أختي ! إفسحي لهـذه المرأة التائبة السعيدة المكان ، وأجلسيها في جوارك ، وعلميها الدين ، والآداب الاسلامية ، قالت السيدة « رقية » سمعـاً وطاعة ، وحباً وكرامة ، فتفضلي يا أختي العزيزة ! وأهلاً وسهلاً ، ومرحبا .



(١) المومسة : المراة المجاهرة بالفجور .

لقد هبت ريح الايمان والتوبة

مرت قافلة الحجاج بمدن كثيرة، وبقرى كبيرة في طريقها من « راني بريلي » إلى « كلكته » آخر المدن الهندية ، وفي منتهى الشرق ، وقد انتظمت هـذه الرحلة ثلاث ولايات كبيرة ، في القطر الهندي ، الولاية الشمالية ، وولاية بهار ، وولاية بنغال ، ومكثت في المدن والقرى بقدر أهميتها وعمرانها ، وحاجة الناس إلى الدعوة والاصلاح .

وقد كان في جميع هذه المحطات ومنازل السفر إقبال من المسلمين للاستفادة بهذه الجماعة وقائدها ، وشيخها ، لم يشاهد مثله منذ مدة طويلة ، وقد هبت هذه البلاد من رقدتها ، وصحا الناس من غفوتهم ، وكأن منادياً نادى في الناس : هلموا إلى التوبة والانابة ! هلموا إلى تجديد الايمان والاسلام ! فكان الناس يأتون السيد أرسالا [1] ، ويتوبون على يده ، ويعاهدون الله على التوحيد والدين الخالص ، ونبذ الشرك ، والضلالات ، والبدع والخرافات ، وترك المعاصي والمنكرات ، وعلى تعظيم شعائر الله ، والتمسك بالسنة السنية والعض عليها بالنواجذ ، وكان أثر هذه البيعة والتوبة يظهر سريعاً في حياتهم وأخلاقهم ، فكانت تمحي شعائر الشرك ، والبدع والتشيع ، وتحول المشاهد إلى المساجد ،

---

(١) الرسل : الجماعة والقطيع من كل شيء، ج أرسال .

وتكسر الضرائح المصنوعة بالقرطاس [١] وتحطم الأعلام التي يرفعونها في المحرم، وتتحول إلى وقود يطبخ به الطعام، ويضاف السيد وجماعته به، وتغير الأسماء التي تشعر بالشرك، وتقديس الأشخاص [٢] وقد دخل بعض أهل المدن على بكرة أبيهم في هذه الحياة الجديدة، ويقدر بعض الناس أنه لم يتخلف أحد من المسلمين فيها عن هذه التوبة، وتجديد الايمان [٣].

ولما دخلت هذه القافلة في « بنارس » وكانت مدينة عامرة، مقدسة عند الهنادك، أقبل المسلمون عليها إقبالاً عظيماً، وكانت الأمطار تهطل باستمرار وغزارة، قد عطلت الحياة والنشاط في البلد، وكان الناس يدعون السيد إلى بيوتهم، وكان يذهب من بيت إلى بيت، والدنيا ظلام ومطر، والشوارع طين ووحل، والتنقل صعب، وكان كل ذلك لا يمنع الناس من الدعوة، والسيد من الاجابة، ويستمر ذلك إلى نصف الليل وبعده، ويتوب الناس ويبايعونه، وقد يبلغ عدد التائبين والمبايعين في حي واحد إلى الألوف.

وكان السيد لا يمل من هذا الطواف الطويل، وإذا ضاق أحد أصحابه

---

(١) يصنع الشيعة ومن قلدهم، من القرطاس والعود ما يشبه ضريح حسين بن علي - رضي الله عنه - ويرفعونه على الرؤوس، وتسمى في الهند « تعزية ».

(٢) شاعت في الهند وبلاد العجم أسماء تشعر بالشرك، وإضافة صفات الله لغيره، كبنده حسن وبنده علي، يعني عبد الحسن، وعبد علي، وكعبد الرسول، وعبد النبي، ومدار بخش، وسالار بخش، أي هبة « مدار » وهو الشيخ الكبير المعمر بديع الزمان المدار المكنبوري أحد مشايخ الأولياء بأرض الهند توفي سنة ٨٤٤ هـ، وهبة « سالار » والمقصود منه السيد سالار مسعود الغازي من أشهر الاعلام في الهند مات شهيد ودفن في « بهرائح » (مدينة في الولاية الشمالية في الهند).

(٣) مثل مدينة « إله آباد » راجع سيرة السيد أحمد شهيد.

بذلك ذرعاً ، وشكا إليه فساد الطرق وشدة الظلام ، قال مخاطباً لأصحابه : صبراً يا إخواني ! وإن خطاكم هذه محسوبة في سبيل الله ، مقبولة عند الله .

وكان بين جماعات من المسلمين وأسر كثيرة شقاق وخصام وتقاطع وتدابر ، فلا تزاور ولا تداعي ، ولا لقاء ولا سلام ، يلتقي هذا وذاك ، فيصرف هذا وجهه وذاك وجهه ، ويستمر ذلك إلى سنين ، وينتقل من أفراد إلى أسر ورابطات [1] ، ويتحول إلى عصبيات جاهلية تتوارثها الأجيال بعد الأجيال ، وقد اهتم السيد اهتماماً زائداً بإزالة هذه الخصومات والعصبيات ، وأصلح بين زعماء الطوائف ورؤساء القبائل المتنافسة المتحاربة ووعظ فيهم ، وذكرهم بالدين ، وأحكامه وتعاليمه ، وما ورد في فضل الأخوة الاسلامية ، وإصلاح ذات البين ، وصلة الأرحام ، وذم الفرقة والانشقاق ، وقطع الأرحام والعصبية الجاهلية ، وما لها من نتائج وخيمة وشؤم فتصالحوا وتصافحوا وتعانقوا ، وتصالح معهم أتباعهم الذين يبلغ عددهم إلى مئات وآلاف، وكان يوماً مشهوداً مباركاً ، فرح به المؤمنون ، وخزى به الشيطان .

وكان حديث التوبة والبيعة حديث النوادي والمحافل ، وشغل الناس الشاغل ، حتى نما ذلك إلى المستشفى الذي بناه الانجليز حديثاً ، فاضطرب المرضى فيه ، وخافوا أن تفوتهم هذه الفرصة المباركة ، ويغادر السيد البلد ، فلا يحظون بلقائه ، أو يأتيهم الوقت الموعود وهم لم يسعدوا بالتوبة والانابة ، وقالوا إذا فاتتنا عافية البدن وصحة الجسم فلا تفتنا عافية الروح وسلامة القلب،

---

(١) كان النظام الطبقي يقوم في الهند على أساس الحرف والصناعات ، والأسر والبيوتات ، وتأثر المسلمون في الهند بهذا النظام ، وكانت الصناعة الشائعة في « بنارس » الحياكة ، وصنع الاقمشة ، وهم الغالبية في « بنارس » حين زار السيد هذه المدينة ، وأصحاب هذه الصناعة معروفون بالاعتناء بالدين وحفظ القرآن ، ونبغ فيهم علماء كبار ومحدثون ، وحلت فيهم بركة الدين ، والتكسب بالحلال .

فأرسلوا إلى السيد يقولون : نحن رهائن الفراش وأحلاس[1] المستشفى ، قد منعنا المرض عن الحضور ، فليكرمنا السيد بما آتاه الله من شفقة على الخلق ، ورحمة بالضعفاء والعجزة بالتشريف ، لنتوب على يده الكريمة ، ونبايعه على أحكام الشرع وفرائضه .

وأجاب السيد طلبهم وزارهم في يوم من الأيام ، فبايعوه وتابوا على يده ، ورأى الناس هذا الاقبال العام على الدين فقالوا : لقد هبت ريح الإيمان والتوبة ، وحل ربيع القلوب والأرواح ، فسبحان ، مصرف القلوب ومقلب الليل والنهار ،

(١) الحلس : ما يبسط في البيت على الارض ولا يغادر مكانه وأحلاس الخيل : الملازمون ركوبها .

من النافلة الى الفريضة

صادف السيد عند دخوله في « عظيم آباد[1] » جماعة من أهل « تبت » كانوا في انتظاره فقد سمعوا أنه وجه دعوة عامة للحج ، وتكفل كل من خرج معه ولا زاد عنده ، فسألهم السيد عن أخبار بلادهم ، وعن أحوال المسلمين فيها ، فقالوا : إن عدد المسلمين ضئيل في عامة البلاد ، وأكثرهم لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، وإنما يتسمون بأسماء إسلامية ويجهلون حقيقته ولا يعملون به ، ويغلب عليهم الشرك وعبادة القبور ، ويغلون في تعظيم مشايخهم ، حتى يبلغوا فيه إلى حد العبادة والتقديس .

قال لهم السيد : هل عندكم زاد وراحلة ؟ وهل تستوفون شروط الحج ؟.

قالوا : لا ! ولكننا سمعنا أنك دعوت الناس إلى الحج ، وأذنت لهم بالمرافقة ، وأنت تتحمل نفقاتهم ، فلنا رجاء كذلك أن تسمح لنا بالمرافقة .

قال السيد : نعم ! إن ما بلغكم حق ، ولكن بشروط وتفصيل والله سبحانه وتعالى لم يفرض عليكم الحج ، لأنكم لا تملكون زاداً وراحلة، وتعجزون عن الانفاق على أنفسكم وأهلكم ،وإنكم إنما تبتغون بهذا الحج وجه الله ورضاه، فهل ندلكم على طريق فيه ثواب أكثر ، ورضوان من الله أكبر .

---

(١) عاصمة ولاية « بهار » ، وهي معروفة الآن بـ « بتنه » ، Patna .

قالوا : أنعم وأكرم ، وما أردنا إلا الخير ، وما قصدنا إلا الثواب .

قال : نستخلفكم في الدعوة إلى الله في بلادكم ، ونحملكم أمانة النصيحة ، والدلالة على الخير ، فترجعونا إلى بلادكم دعاة مرشدين ، وأئمة هادين ، تدعون الناس إلى التوحيد والسنة ، وتعلمونهم الدين ، وتحذرونهم من الشرك والبدع ، وتتحملون في سبيل ذلك كل أذى ، وتصبرون على محاربتهم ومعاكستهم ، وشتيمتهم ، فيهدى الله بكم أقواماً ، ويخرجون بفضل دعوتكم من الجاهلية إلى الإسلام ، وينتشر الدين .

قالوا : وكيف لنا بذلك ، ولسنا من العلماء ؟ قال السيد : لا بأس ، فإن الإسلام هو دين الله ، وإن الله هو ناصره ، وسيؤيدكم الله بنصر من عنده ، ويجعل لكم نوراً تمشون به ، ثم كتب لهم آيات وأحاديث في التوحيد والسنة ، وشرح لهم كيف يدعون إلى الله ، ثم وجههم إلى بلادهم ، وقال : سيروا على بركة الله وهداه .

وكان كما أخبر السيد وبشر به ، فانتشرت دعوتهم في « تبت » وقابلها الناس بالمحاربة والأذى ، فصبروا واحتملوا ، ورابطوا وثابروا ، يجزون السيئات بالحسنة ، ويحتسبون كل أذى في سبيل الله ، فلانت القلوب ، ورقت النفوس ، وقبل الناس دعوتهم ، ودخلوا في دين الله أفواجاً .

ولما رأوا أن دعوتهم قد انتشرت في « تبت » أوغلوا في البلاد ، وتوسعوا في الدعوة ، ودخل بعضهم في الصين ، فقاموا بالدعوة هناك ، واهتدى بهم خلق كثير ، وعرفوا حقيقة الإسلام ، وذاقوا حلاوة الإيمان[1] .

---

(١) « وقائع أحمدي » و « سيرة السيد أحمد الشهيد » .

لا نستطيع دفع الضريبة

وصل السيد وجماعته إلى « كلكته » ليركبوا منها على السفن ، ويتوجهوا للحج ، وطالت إقامتهم وطابت في العاصمة الانكليزية وكبرى مدن الهند ، وتهافت على السيد المتعطشون للدين، ومن أراد الله بهم خيراً ، تهافت الظمآى على الماء ، والفراش على النور ، فما يجد فرصة للراحة ، والطعام والشراب ، وشمر العالمان الجليلان الشيخ عبد الحي ، والشيخ محمد اسماعيل عن ساق الجد للوعظ والإرشاد ، فلا يكلان ولا يملان، وذاق الناس حلاوة الإيمان ، وعرفوا حقيقة الإسلام ، وقالوا : لقد أسلمنا من جديد ، فلم نكن نعرف من الإسلام إلا اسمه ، ولا من الدين إلا رسمه ، وقد فشت في الناس الجهالة ، وفشت البدع والخرافات ، وكان كثير من الناس لا يتقيدون بالنكاح الشرعي ، وفشت المخادنة ، فبينوا أحكام الشرع في اتخاذ الأخدان،والاستمتاع بغير نكاح شرعي، وأقبل الناس على النكاح ، وهجروا العادات الجاهلية .

وكان يسلم كل يوم عشرة ، أو خمسة عشر رجلاً من الهنادك والوثنيين ويستأنفون حياة جديدة .

وأثرت هذه المواعظ اليومية ، والمجالس الدينية في حياة البلد، وفي أخلاق الناس وعاداتهم ، فتابوا من تعاطي الخمر والمسكرات ، وهجروها هجراً باتاً ،

وكسدت سوق بيع الخمور ، وأقفرت الحانات ، فما يؤمها أحد ، ولا يطرقها طارق ، وجمدت تجارة المسكرات ، ومشى أصحاب الحانات، وتجارة الخمر إلى الحكام الانكليز ، وقالوا : لم نتأخر يوماً عن دفع ضريبة الخمر،ولكن حاناتنا، أصبحت مهجورة مقفرة ، منذ نزل السيد في «كلكته» ،وقد بايعه جل المسلمين في المدينة ، والضواحي ، والقرى ، وتابوا عن جميع المعاصي والآثام ، وعن شرب الخمر وتناول المسكرات ، وأثر ذلك في تجارتنا ، وكان ضربة قاضية عليها ، فلا سبيل لنا إلى دفع الضرائب ، وقد تعطلت تجارتنا ، ووقف البيع والشراء .

وأمر الحكام بالبحث في القضية ،وعن مدى صدق هؤلاء الخمارين فيما قالوا ، فتحقق أنه صحيح ، وأنهم لا يستطيعون أن يدفعوا الضرائب الحكومية ما دام هذا الحال وما دام انصراف الناس والزبائن عن هذه الحانات ، وقرروا أن يعفوا عن الضرائب إلى أن يغادر السيد وأصحابه المدينة ، ثم ينظر ، فإذا كان بعد ذلك إقبال على هذه الحانات ، وعادت إليها الحياة ، كما كانت في السابق ، عادت هذه الضرائب إليهم ، وكلفوا بأدائها .



في سبيل الجهاد

بدأ المسلمون في الهند على مر الأيام يتجردون عن صفات الفروسية ،وأخلاق الأمم الفاتحة التي امتازوا بها في الماضي ، وفتحوا بها هذه البلاد الواسعة بجيش قليل وعدد ضئيل ، وفشت فيهم الرخاوة والرقة ، وأخلدوا إلى الراحة والتنعم ، وضعفت فيهم الحمية الإسلامية ، والغيرة الدينية ، فكان الثعبان الانجليزي يبتلع بلاد المسلمين بلداً بعد بلد ، وقطعة بعد قطعة ، وهم منغمسون في شهواتهم ، عاكفون على لذاتهم ، لا يحرك ذلك منهم ساكناً ، ولا يقض مضجعاً ، وتفاقم[1] هذا الداء ، حتى بدأوا ينظرون إلى حياة الفروسية ، وخلال الفتوة ، وإلى السلاح وعدة الحرب بعين الاحتقار والازدراء،ويعتبرونها شعاراً للجهال والأجلاف[2] ، ورعاع الناس ، ويعتقدون أن ذلك لا يجتمع مع العلم ، والعبادة والوقار .

وكان السيد قد ملكته فكرة الجهاد في سبيل الله ، وتحرير بلاد المسلمين من المغتصبين وإعلاء كلمة الله ، وإعادة مجد الإسلام ، واستولت على مشاعره وأعصابه ، وأصبحت له الشغل الشاغل ، والهم الوحيد ، فكان أكثر حديثه عنه ، وأكبر اهتمامه به ، وأعظم اعتنائه بما يعينه على ذلك .

---

(١) تفاقم الامر : عظم ولم يجر على استواء .
(٢) الجلف : الغليظ الجافي الاحمق . ج اجلاف .

وشغف بالتربية الحربية ، والرياضات البدنية منذ ريعان الشباب ، كان أكثر لعبه وتسليته بالمعارك الحربية التي يقيمها مع أقرانه وأترابه من غلمان قريته ، وشباب عشيرته ، ودخل في سنة ١٢٢٧هـ في جيش القائد المسلم الشهير نواب ميرخان مؤسس إمارة « تونك » الاسلامية ، وخاض معــه في حروب دامية ، ومعارك فاصلة ، ورافقه في مغامراته ليتمرن على الحرب ، وعلى قيادة الجيوش ، وليحقق بها أمنيته اللذيذة العزيزة ، وهي إجلاء الغاصبين ، وإقامة حكومة إسلامية شرعية ، ولم يفارقه إلا حين صالح القائد الانجليز ، وقبل أن يكون أميراً في منطقة صغيرة .

وقد أثرت هذه الرغبة ، وهذا الذوق الذي غلب على كل ذوق في أصحابه ورفاقه ، وسري فيهم ، فتحولت القرية الهادئــة – التي لم تعرف في الأيام الماضية إلا العبادة ، والذكر والتسبيح – إلى ثكنة ، ومركز تربية حربيــة ، فلا ترى فيها إلا التمرن على الرمي وإطلاق النار ،والمسابقة في أنواع الفروسية، وما ينفع في الحرب ، يساهم فيها العلماء ، والأساتذة الكبار ، وأبناء البيوتات الشريفة ، وكبار الأغنياء ، والجهـال والأميون ، والشباب والكهول ، وكبر ذلك على بعض العلماء والعباد الذين قصدوه من أنحاء بعيدة، لينصرفوا إلي حياة الزهد والعبادة ، والانزواء والتبتل وحنوا إلى العهد السابق حين كنت لا تسمع إلا دوياً كدوي النحل ، وأزيزاً[١] كأزيز المرجل ، وكلموه ولكنــه لم يجب طلبهم ، وأفهمهم أن ذلك أفضل ، وأن المسلمين إلى ذلك أحوج ، وذكر لهم ما ورد في فضل الرباط في سبيل الله ، وعين تحرس[٢] وقدم تغبر في الجهاد[٣]،

(١) الازيز : الحركة والاهتياج والحدة .

(٢) روى الترمذي عن ابن عباس مرفوعاً : عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله .

(٣) روى البخاري والترمذي والنسائي عن ابي عبس مرفوعاً : ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار .

فاقتنعوا ، ورافقوا إخوانهم في الاستعداد للجهاد[1] .

ولما زار السيد « لكناؤ » في سنة ١٢٣٤ هـ وعليه سلاحه . قال له أحد الضباط الكبار ، وهو عبد الباقي خان ، يا سيدي ! إن كل أمرك حسن جميل إلا شيئاً واحداً تلازمه ، إن ذلك لم يفعله أحد من أجدادك الكرام ، وأنت من بيت دين وصلاح ، ومشيخة وعلماء ، وكان يجمل بك أن تقلدهم في زيهم وشعارهم وأساليب حياتهم ، ولا تأتي بشيء جديد ، ولا تفعل ما لم يفعلوه .

قال السيد : ما هو ذاك يا شيخ عبد الباقي خان !؟

قال الضابط : هذا السلاح الذي تلازمه ، وتخرج فيه دائماً ، إنه شعار الجهال الأجلاف ، إنه لا يجمل بك ، ولا يليق .

واحمر وجه السيد غضباً ، ورؤيت الكراهة في وجهه ، ولكنه ملك نفسه وقال : سامحك الله أيها الضابط الكبير ، فما أصبت القول ، وما هديت إلى الرشد ، وحسبك في هذه الساعة ، أن هذه هي أسباب الخير التي أكرم الله بها أنبياءه ليقاتلوا بها الكفار والمشركين ، وكان لنبينا ﷺ منها النصيب الأكبر ، والقسط الأوفر ، وظهر الإسلام على كل دين ، وانتصر الحق على الباطل ، والعدل على الظلم ، وأنت وآباؤك مدينون لهذا الجهاد أيضاً ، فمن يدري في أي دين كنت أنت وآباؤك ، لولا قيام المسلمين في القرون الأولى بالدعوة والجهاد ، وماذا كان مصيرك ؟! وسكت الضابط الكبير ، وأطرق رأسه حياءاً .

وكان كلما رأى شاباً قوي العضلات مفتول الذراعين تبدو على وجهه مخايل الفتوة والشهامة ، فرح واستبشر ، وتلقاه بالترحيب ، وأنزله منه منزلاً خاصاً ، لأنه يرى فيه الغناء في الجهاد .

---

(١) اقرا ما دار من حديث بين الامام السيد احمد الشهيد ، وبين الشيخ محمد يوسف البهلتي من كبار العلماء وعباد جماعته ، في « سيرة سيد احمد شهيد » .

زاره أربعة فتيان من قرية قريبة ، ذوو قامات فارعة ، وأبـدان قوية ، فهش لهم وبسط لهم وجهه ، ورفع منزلتهم ، وقال : هؤلاء أحب إلي من أبناء المشايخ ، والشباب المتنعمين ، ففناؤهم قليل في ميدان الجهاد، ومعترك الحرب، أما هؤلاء فيستطيعون أن ينصروا الإسلام ويكتووا بنار الحرب .

وتعجب هؤلاء ، وكانوا في الجيش يتقاضون رواتب زهيـدة ، ولم يكونوا على شيء من العلم والثقافة ولم يكونوا يتوقعون هـــذه الحفاوة ، والاكرام البالغ ، فأحبوا السيد ولزموه ، ورافقوه في الهجرة والجهاد ، فمنهم من أكرمه الله بالشهادة ، ومنهم من طالت به الحياة ، فعاش على الدين والصلاح والنصح للاسلام والمسلمين والسعي لاعلاء كلمة الدين .



هدية طريفـــة

عرف الناس شغف السيد بالجهاد وأسبابه ، وكل مـــا يعين عليه ، فصاروا يتقربون إليه بما يسره ، ويقر عينه ، وتسابقوا في ذلك وتنافسوا ، وكان أحب الناس إليه من يحدثه في هذا الموضوع ،وكان أحب هدية إليه ما ينفعه فيالحرب من سيف ماض وبندقية من أحدث طراز ، ومسدس من أجود الأنواع ،وفرس جواد ، وكان للشيخ « غلام علي » أحد كبار الأغنيـــاء في مديرية « اله آباد » القدح المعلى في ذلك ، فكان لا يزور السيد إلا ومعه هدية من سلاح ، ولو كان ذلك مرة أو مرتين في يوم ، وقد قام بتهيئة كل ما تقع إليه الحاجة في السفر ، أو في ميدان الحرب ، وقد بالغ في ذلك وتطرف ، وقـــام بالقسط الأوفر في تجهيز الغزاة ، وتسليح المجاهدين ، وتزويد المسافرين .

ولكن أعجب هدية أهديت إليه ما تقدم به الشيخ « فرزند علي » أحـــد كبار ملاك مديرية « غازيفور » وأعيانها ، فقد جاء إلى « رائي بريلي » ومعه ولده الشاب المسمى بـ « أمجد » فقدمه إلى السيد قائلاً : إنني نـــذرته لله ، كما نذر ابراهيم – عليه السلام – ابنه اسماعيل لله ، فرجائي أن تأخذه معك إلى الجهاد فيذبح في سبيل الله بسيف الكفار .

وهكذا كان ، فقد أكرمه الله بالشهادة ، فوفى الشاب البار نـــذر أبيه ،

وأقر عينه ، وبيض وجهه ، وخلد ذكره ، « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً » .

ولما علم الناس عزم السيد على الرحيل ، وشاع في الناس حديث الجهاد والهجرة ، حدى بالناس حادي الشوق ، ورن في آذانهم النداء الرباني : «انفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله » طرب الناس ، وهرعوا إلى الجهاد والنفير ، وتسابق الآباء والأبناء ، والاخوة والأشقاء ، حتى اقترعوا بينهم .

يقول الشيخ جعفر علي صاحب كتاب « منظورة السعداء في أحوال الغزاة والشهداء » لما بلغنا قصد السيد للهجرة ، وانه على جناح سفر ، أراد أبونا السيد قطب علي وشقيقنا السيد حسن علي أن يلحقا به ، وأردت كذلك ، واستشرف كل واحد منا لهذا المقصد الأسنى ، ووقع التنافس ، كل يريد أن ينال هذه السعادة ، ويحظى بهذا الشرف ، حتى وقع التحاكم إلى أمنا ، ورفعت إليها القضية وحكمت لي ، وتوجهت إلى السيد وهو في مركز المجاهدين في الحدود ، فاستقبلني خارجاً من مقره ، ومشى بعيداً ، وأطلق البنادق فرحاً بقدومي ، وإعلاناً بوصول فرقة من المجاهدين من ناحية الهند ، ورحب بي أكبر ترحيب ، واختارني كاتباً لرسائله ، وألحقني بفرقة الشيخ إسماعيل الشهيد .



وداعاً أيها الوطن العزيز

مكث السيد بعد ما قفل من الحج عاماً كاملاً وعشرة أشهر [1] في وطنه ، يستعد للهجرة والجهاد ، يكتب لذلك الرسائل البليغة التي تثير الحمية الاسلامية ، وتزهد في حب العافية والسلامة ، وإيثار الأهل والوطن ، ويرسل لهذا الغرض الدعاة والمرشدين من كبار العلماء والخطباء ، ينفخون في النـاس روح الجهاد ، ويلهبون فيهم جذوة الايمان ، والشوق إلى الشهادة ، ويذكرون لهم ما ورد في فضل الجهاد ، والشهادة في سبيل الله في القرآن والحديث ، وما وعد الله عليه من الرضا والكرامة ، والأجر الجزيل ، ومـا عوقب ، به المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها على ترك هـذا الركن الذي هو « سنـام الاسلام [2] » من ذل وهوان وعبودية وخـزى ، وانقراض دول وحكومات إسلامية ، وانطماس معالم الدين ، وزوال شعائره ، وما كان لذلك من شؤم ونكد عما الحياة كلها ، وظهرت آثارهما في كل مجـال وفي كل بلد ، حتى كان لغير المسلمين ، وللدواب

---

(١) من ١ رمضان ١٢٣٩ هـ إلى ٧ جمادى الآخرة ١٢٤١ هـ .

(٢) أخرج أحمد والترمذي وابن ماجة عن معاذ بن جبل حديثاً طويلا جاء فيه : ثم قال ألا أدلك برأس الامر وعموده وذروة سنامه قلت بلى يا رسول الله قال : رأس الأمر الاسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد .

والأنعام وللزرع والضرب ، نصيب من هذا الشؤم ، وذلك كله باخلال المسلمين بواجبهم وانغماسهم في شهواتهم ، ومصالحهم الفردية [١] .

وقد تواتر واستفاض من سوء حال المسلمين في « بنجاب » وهوانهم فيها وظلم الحكام وعدائهم للاسلام ، وإهلاكهم للحرث والنسل ، وهمجية رجال الجيش ونهبهم للأموال والأملاك ، واختطافهم للأولاد والنساء وانتهاكهم للحرمات ، وإهانتهم للمساجد ومنعهم عن ممارسة بعض شعائر الدين [٢] ، كأن المسلمين في بنجاب يخاطبون إخوانهم في الهند ويقولون بلسان حالهم :

« وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً [٣] » .

فعزم السيد على أن يبدأ عمله من هذه المنطقة البائسة التي وقع المسلمون فيها فريسة حكم استبدادي وعداء ديني ، ثم يتقدم منها إلى الهند التي أصبحت مطية ذلولاً للانجليز ، يركبون ظهرها ويحلبون ضرعها وينتفون صوفها ، ويسيئون علفها وسقيها ، وكان لا بد من الهجرة من منطقة نفوذهم ، ومركز حكمهم إلى منطقة حرة بعيدة من تأثيرهم ، يتمتع أهلها بالغيرة والأنفة والفروسية ، قد مارسوا صناعة الحرب زماناً ، ونشأوا عليها ، واكتووا بنارها .

---

(١) اقرأ الفصل الرابع الرائع من الباب الثاني من كتاب « الصراط المستقيم » الذي هو مجموع أمالي السيد ، واقرأ فيه منافع الجهاد وبركاته العامة للخلق كله (ص ٩٥ - ٩٦) واقرأ الرسائل البليغة التي أرسلها إلى أمراء المسلمين وملوكهم ، وكبار العلماء والمشايخ ، وإلى أقيال الهند وأمرائها من غير المسلمين في « سيرة سيد أحمد شهيد » (الطبعة الرابعة) .

(٢) اقرأ ذلك مفصلاً في كتب المؤرخين الانجليز والهندوس كـ « كولونل مالكوم » و « ليبل كريفن » و « كنهيالال » وغيرهم ، وقد صور شاعر الاسلام الدكتور محمد إقبال هذه الفترة التي مرت في تاريخ الهند تصويراً دقيقاً في بيت واحد ، يقول فيه : ان « السيخ » انتزعوا السيف والمصحف من ايدي المسلمين ، ان الاسلام قد مات في هذه المنطقة .

(٣) سورة النساء : الآية ٧٥

وكانت هذه المنطقة هي الحدود الشمالية بين أفغانستان وبنجاب التي عرف أهلها بشدة الشكيمة [1] والفتوة ، والاحتفاظ بالحرية ، وعدم الاستسلام للعدو الفاتح ، ودوام الاشتغال بالغزو والقتال ، وكان عـدد كبير من أصحاب السيد ينحدر من هذه الأصول الأفغانية ، وينتمي إليها ، وقد نزح آباؤهم في أوقات مختلفة إلى الهند التماساً للرزق ، أو طمعاً في جاه ومنصب ، ودخلوا في الجيش ، وخدموا الحكومة المغولية ، أو إمارة « أوده » الاسلامية ، وكان منهم قادة وضباط وأمراء في أنحـاء الهند ، مضى ذكر بعضهم ، وكانوا مادة الجيش في لكناؤ ، ومـا جاورها من المدن والقرى ، وكان للسيد في هؤلاء الأفغان خـير أصدقاء وخير تلاميذ روحيين ومبايعين وأنصار ، فحثوه على الهجرة إلى هذه المنطقة التي لا يزال لهم فيها خؤولة وأعمام ، وإخوان وأصدقاء ، وقبل السيد هذا الاقتراح ، وصمم على أن يهاجر إليها ، ويتخذها قاعدة لحركته ونشاطه و « نقطة انطلاق » إلى الأمام .

وتم الاستعداد ، وجاء اليوم المنتظر الذي كان يعد له السيد الأيام عـداً ، فكان يوم عيد وسرور ، لا يعدله عيد ولا سرور .

كان ذلك يوم الاثنين ، اليوم السابع من جمادي الآخرة سنة ١٢٤١ هـ [2] ، وكان يوماً مشرقاً زاهيـاً ، وكانت قد نصبت له خيمـة في الجانب الجنوبي على شاطىء النهر المقابـل ، وقد قضى نهار الاثنين في توديـع الاخوة والأقارب ، والأصدقاء الذين جـاؤا من كل صوب وناحية لتوديعه ، وللقائه الأخير الذي لالقاء بعده ، وقد اغرورقت عيون كثير منهم بالدموع ، وغالب بعضهم البكاء ، أما السيد فكان يغلب عليه السرور ويعلو وجهه البشر ، فقد جاء اليوم المبارك الذي كان ينتظره بصبر نافد ونفس تواقة .

---

(١) فلان ذو شكيمة : أنوف أبي لا ينقاد والشكيمة : الحديدة المعترضة من فم الفرس .

(٢) الموافق ١٧ يناير سنة ١٨٢٦ م .

وركب السيد القارب في الليل، ورافقه كثير من أقاربه وإخوانه يشيعونه، ويحيونه التحية الأخيرة ، فكان بعضهم في القارب ، وكان بعضهم يعبر الماء ، ولما وصلت السفينة الشاطيء نزل السيد فصلى ركعتين شكراً ، ودعا فأطال الدعاء ، وأكثر التضرع والابتهال ، إنه لم يصل شكراً على فتح بلد ، أو ورود بشارة ، ولكنه صلى شكراً على أن الله وفقه للهجرة والجهاد ، وأنه خطا أول خطوة في هذا الطريق الذي سلكه الأنبياء من قبل ، وسيد الأنبياء وأصحابه والتابعون لهم باحسان فيما بعد ، وأنه قد آن أوان قضاء نحبه ، والوفاء بنذره.

ألقى السيد النظرة الأخيرة على هذه القرية التي أحبها وأحبته ، أول أرض مس جسمه ترابها ، وقد ولد ونشأ وترعرع في أحضانها ، وألف حدائقها وأشجارها ووهادها وأنجادها ، سبح في نهرها ولعب في رحابها ، وركع وسجد في مسجدها الذي بناه جده الكبير على غرار الكعبة المشرفة وهيئتها [1] ، وكانت له فيها أيام طابت ولذت ، وساعات صفت وحلت ، إنه لم يملها ولم تمله ولم ينكر من أمرها شيئاً ، إنه لا يزال يحبها ويشكر أهلها ، ويدعو لهم ، ولكنه إيثار لمرضاة الله على مرضاته ، وحظ الاسلام على حظه ، وهدوء الضمير ونعيم القلب ، على راحة الجسد ومتعة البدن ، إنه نداء الايمان والواجب وحداء الشوق والحنين ، ووقوف عند قول الله تعالى :

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين [2] .

---

(١) بناه العارف الكبير السيد علم الله بن محمد فضيل الحسني (١٠٣٣ هـ - ١٠٩٦ هـ) في سنة ١٠٨٣ هـ على عودته من الحرمين على شاطىء نهر « سيء » مطابقاً للكعبة المشرفة في التصميم والمساحة والهيئة ، فليست له قباب ومنابر كما جرت العادة في بناء المساجد ، والسيد علم الله هو جد السيد أحمد الشهيد الرابع .

(٢) سورة البراءة الآية ٢٤ .

نداء التوحيد في قصر أمير وثني

مر السيد وركبه المجاهد في طريقه إلى « أفغانستان » بمدينـة « كواليار » عاصمة أكبر إمارة ، بعد إمـارة « حيدرآباد » يحكمها « مهاراجه دولت راؤ سندهيا » أكبر أمراء « مرهته » وأعظم حاكم وثني تحت حماية الانجليز ، ولهذه الأسرة تاريـخ طويل حافل ، في محاربة المسلمين ومناضلتهم تتخلله غزوات ومناوشات [1] ، وهدنـة وسلم ، وقد راسله السيد ، وراسل وزيره « هندو راؤ » يستحثهما على محاربـة الانجليز ، ويبين لهما خطر السرطان الانجليزي ، وكيف استشرى [2] فساده وسمه في جسم البـلاد ، وكيف استحوذ عليهـا ، وأفسد فيها وجعل أعزة أهلها أذلة ، وأنه ما دام ، فلا مطمع في شرف ، ولا بقاء لرئاسة ، ولا ضمان لحرية ، وكان ردهما على هذه الرسائل البليغة الحكيمة رداً لطيفاً ، ينم عن استجابة وفهم .

ولما وصل السيد إلى « كواليار » استقبله رئيس الوزراء هندو راؤ استقبالاً لائقاً بالملوك والأمراء ، والقادة والزعمـاء وأكرم وفادته ، وأحسن مثواه ، وضيفه وزملاءه ، الذين يبلـغ عددهم إلى نحو ألف شخص ، ضيافة ملوكية ،

---

(١) ناوشوهم في القتال : نازلوهم .
(٢) استشرت الامور : تفاقمت وعظمت .

تجمع بين أنواع الأطعمة اللذيذة الشهية ، وأكثر وأطاب ، وتواضع له ، وصب الماء على يده ، ورفع منزلته ، ورق له في الحديث ، وأكثر من الهدايا الغالية الفاخرة ، والتحف النفسية الطريفة من أنواع القماش وعقود من مزواريد [1]

ودعاه « مهاراجه [2] دولت راؤ سندهيا » إلى قصره ، واستقبله استقبالاً رائعاً ، وجلسا يتحدثان في حرية وأنس ، وتبرك مهاراجه بوجوده وطلب منه الدعاء ، فدعا السيد له بالهداية والتوفيق وأعجب مهاراجه بعلو همة السيد وبعد نظره ، وباخلاصه ، وتوكله على الله ، وطلب منه أن يقيم عنده سنة كاملة حتى يقضي وطره من ضيافته وإكرامه ، فاعتذر السيد ، فسأله أن يمكث حتى يجهز جيشه ، ويصلح سلاحه وعتاده ، واعتذر السيد كذلك فان السفر بعيد والطريق طويل ، والرفاق كثير والمقصد عظيم يطلب سرعة الوصول .

وبينما كانا يتحدثان جالسين في ناحية ، في غرفة من غرف القصر الملوكي الشامخ ، إذ دخل وقت العصر ، وقام مؤذن الجماعة الشيخ باقر على غير محتفل بالقصر وصاحبه ، ووجود كبار الأمراء والوزراء ، وقادة الجيش ، وكلهم وثنيون ، فنادى بأعلى صوته « الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله » إلى آخر الآذان ، وساد السكوت على القصر ، واهتز المكان وارتج [3] .

فوجيء أهل القصر بهذا الصوت الغريب الذي لم يسمعوه في هذا القصر منذ بني ، على كثرة من يزوره من المشايخ والعلماء ، وأمراء المسلمين وقادتهم ،

---

(١) نوع من اللؤلؤ .
(٢) معناه امير الأمراء .
(٣) ارتج البحر : اضطرب وارتج المكان أي دوى .

وبقوا خاشعين أمامه برهة ، ثم أفاقوا ، وأمروا بتهيئة الوضوء وإحضار المـاء والأباريق ، وحضر السقاؤن فقدموا الماء ، والأباريق ، وتوضـأ من لم يكن على وضوء ، واصطف المجاهدون ، وتقدم السيد فـأم الناس وصلى بهم صلاة السفر ركعتين، ووقف الناس ينظرون إليهم في إجلال وإكبار،وفي عجب وإعجاب، وأميرات القصر ينظرن من وراء حجاب ، والملكة تنظر من وراء الستر الذي علق بينها وبين مجلس مهاراجه ، وكلهم يتعجبون من قوة إيمان هؤلاء المؤمنين الفقراء ، وخشوعهم أمام ربهم ، وشدة محافظتهم على فرائضهم ، وقلة احتفالهم بالمظاهر وأسباب الزينة والعظمة .



جهاد قبل الجهاد

كان سفر المهاجرين المجاهدين وفيهم كبــار العلماء والشيوخ ، وأبنــاء البيوتات ، وأولاد الأغنياء والأمراء من « دهلي » و « لكناؤ » ، الذين رقت حياتهم ولأن عيشهم سفراً شاقاً مضنياً لم يكن أقل من الجهاد ، فقد اعترضت لهم في الطريق صحارى قاحلة لا ماء فيها ولا ميرة[1] ، ومفــاوز يتلف فيها الانسان ويتيه فيها الخريت ، وتضيع فيها القوافل ، ويتعرضون فيها للصوص وقطاع الطريق ، ويمرون بشعوب وقبائل لا يفهمون لغتهــا ولا تفهم لغتهم ، وقد لا يجدون إلا آباراً قد غار ملؤها ، وملح ملوحة شديدة ، لا يجدون غيره يبلون به غلتهم ويسقونه ماشيتهم ، وقد يضطرون إلى حفر آبار وحفر في أنهار مالحة يفيض ماؤها بسرعة ، ويمرون في طريقهم الطويل الذي يمتــد على مئات من الأميال برمال وعساء[3] ، وأرض تكثر فيها الوهاد والنجاد ، وتــلال من الرمل يتعب الانسان فيها إذا مشى خطوات قليـــلة ، وإذا تخلف إنسان من الركب تلف ، وكان طعمة للسباع ، أو نهبة للصوص ، وكانوا عرضة للأوهــام

(١) الميرة : الطعام الذي يدخره الانسان ، وما يقوت الجيش .

(٢) الخريت : الدليل الحاذق .

(٣) لينــة .

والمخاوف ، يحذرهم أهل القرى والمدن التي يمرون بها ويتوجسون منهم خيفة ، فيبتعدون عنهم ويفسدون لهم الآبار والمياه ، وقد يستعدون لمحاربتهم وصدهم عن الطريق فلا يهدأون ولا يقتنعون إلا بصعوبة .

وقد استمر ذلك الحال إلى أن قطع المجاهدون صحراء « ماروار » المشهورة في التاريخ بوعورة مسالكها وقلة مياهها ، وقسوة اهلها ، وكانت المساحة التي قطعوها في هذه الصحراء مائتين وثمانين ميلاً (٤١٨ ك م) حتى دخلوا السند، فتغيرت الأوضاع ، ولقوا حفاوة وكرماً من أهلها المسلمين وأمرائها ، وقد عرفوا بشدة إجلال السادة والأشراف من أهل البيت ، وإكرام العلماء وإطعام الضيف ، وأقبل على قائد هؤلاء المجاهدين وشيخهم أناس يبايعونه ويتوبون على يده ، ويتنافسون في إكرامه وضيافته ، والسيد لا يضيع فرصة للوعظ والإرشاد ، والدعوة إلى التوحيد والسنة ، وإثارة الحمية الاسلامية ، والغيرة الايمانية ، وإصلاح ذات البين بين الأمراء المتنافسين ، والاخوان المتشاحنين ، ينبههم على الخطر الداهم والعدو المشترك .

وعاد الوضع كما كان ، لما دخل المجاهدون في « بلوجستان » وبدأ فصل الأمطار ، استقبلهم أمطار غزيرة تفسد الطريق ، وتحدث السيول والبرك ، وواجهوا أرضاً جبلية لا عمران فيها ولا مدنية ، يسرح فيها اللصوص وقطاع الطريق من غير اكتراث وخوف ويعيثون فيها ، فلا تمر القوافل إلا ببذرقة[1] قوية ، وخفارة مسلحة ساهرة ، وتقل فيها المياه ، وتكثر فيها الأشجار ذات الشوك ، ويسكن هذه الصحاري وما فيها من قرى الشعب « البلوجي » الذي اشتهر بالقسوة والفظاظة والوساخة ، وقلة الاحتفال بالدين ، ويمرون فيها بالأنهار التي يكثر فيها الطحلب[2] والوحل ، فلا يعبرونها إلا على خشب

---

(١) البذرقة : الخفارة .

(٢) خضرة شديدة تعلو الماء الراكد .

الأشجار ، ويمشي عليه الخيل والجمال ، وكان السيد يشارك زمـــلاءه في قطع فروع الشجر وأغصانها ، وتصفيفها على الأنهار ، ويجدون في هـــذا الطريق ضيافة كريمة ، وإيواءاً كريماً ، فيحمدون الله على ذلك .

حتى وصلوا إلى ممر « بولان » التاريخي الذي هو المدخل الوحيـد لمن يأتي من جهة أفغانستان ليدخل في الهند ، وهو يلي ممر « خيبر » الذي دخلت منه جيوش الفاتحين من جهة الشمال الغربي في الهند ، وهو الشق الهائل الذي أحدثته الحكمة الالهية في جبال « هملايا » ليدخل منه في الهند[١] ، وهو شعب يمتد على خمسة وخمسين ميلاً ، ويكتنفه ذات اليمين وذات الشمال جبـــلان يبلغ ارتفاع بعضها إلى ٥٧٠٠ قدم ، ويبلغ المضيق بينها في الغالب إلى أربع مئة أو خمس مئة ذراع ، ويكمن اللصوص في مغاراتها ويترصدون للقوافل ، فيغيرون عليها على غرة ، وقد لا يزيد الشعب على أربعين قدماً وإذا وقف عدد قليل مسلح على قلة الجبلين استطاع أن يتلف جيشاً كثيفاً .

وقد اضطر السيد ورفاقه إلى أن يدخلوا في هذا المجتاز الضيق الذي يشبه نفقاً في بعض الأمكنة ليدخل منه إلى مدينة « شال[٢] » ليتقـــدم فيها إلى « قندهار » فـ « غزنين » فـ « كابل » وقد لقيت الجماعة في مدينـــة « شال » براً ورفداً ، وحفاوة من أميرها المسلم المجاهد ، فقالوا :

« الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور[٣] »

---

(١) اقرأ وصف ممر بولان Bolan pass في كتاب Acomprehensive History of India V. 111. P.P. 351 – 352.

(٢) وتعرف الآن بمدينة « كوئته » وتقع في « بلوجستان » وتعتبر من مدن باكستان الكبيرة ، ذات الأهمية الاستراتيجية .

(٣) سورة الفاطر الاية ٣٤ .

في عاصمة بلاد الأفغان

تقدم المجاهدون من مدينـــة « شال » ، وأقبلت عليهم البـــلاد بأبنائها يستقبلونهم بالكرم الأفغاني ، والأخلاق الاسلامية ، وانهالت عليهم الهدايا من الفواكه اللذيذة التي أكرم الله بها هذه البلاد ، وكان لها فيها النصيب الموفور ، والناس بين رجال وإناث ، يحيونهم بتحيـــة الاسلام ، ويرحبون بدخولهم في هذه البلاد ، ويدعون لهم بالفتح والنصر ، ويتبركون بقائـــدهم وشيخهم ، ويأخذون يده فيمسحون بها رؤوس أطفالهم ،ويزدحم الناس لرؤيتهم وزيارتهم فتنسد الطرق ، وتتصل الضيافات ، فلا ينتقل هؤلاء الغرباء من ضيافـة إلا إلى ضيافة ، ومن كرم إلا إلى كرم .

واضطروا إلى أن يدخلوا ممراً آخر ، هو ممر كوزك الذي هو في جبـــل « التوبة » ونزلوا منه في سهل ، وكان الطريق مفتوحاً أمامهم إلى « قندهار » فـ « كابل » .

واستقبل السيد في « قندهار » بحفاوة بالغة ، وترحيب نادر ، استقبـــله مئات من الفرسان ورافقوه في الطريق ، ووقف على حافتي الطرق ، آلاف من الأشراف والعلماء يمشون في ركابه ، وغصت الشوارع والطرق بالمستقبلـــين ، وضاقت بالزحام ، ونزل في ضيافة حاكم « قندهار » وقابله هو وإخوته بكرم وتواضع ، وأثنوا على علو همته وسمو نفسه ، وحميته الدينية .

ودخل السيد في « غزنين » فلقى مثل ما لقي في « قندهار » من الحفاوة وحسن الوفادة ، وتوجه إلى « كابل » عاصمة بلاد الأفغان ، ووصلته رسالة حاكم « كابل » سردار سلطان محمد خان[١] في الطريق يرحب فيها بقدوم السيد ويبدي فيها سروره وتفاؤله بقدومه الميمون .

ولما دنا من « كابل » استقبله أحد الضباط الكبار نيابة عن الحاكم في فرقة من الفرسان والرجالة ، وبلغه تحية الأمير ، وخرج جمع غفير من أعيان البلد ووجهائها ، ومن أفراد الشعب لاستقباله ، ولما كان في نصف الطريق استقبله أمين الله خان نائب سلطان محمد خان في أبهة كبيرة ، وعدد كثير من الفرسان ، وتبادلا التحية .

ولما وصل السيد وجماعته في ميدان البلد استقبله سلطان محمد خان مع إخوته الثلاثة في فرقة من الفرسان ، ونزل عن الفرس فتصافحا وتعانقا ، وساروا في موكب عظيم ، وكثر المستقبلون والزائرون ، وثار النقع بحوافر الفرس ، وكثرة المشاة حتى لا يبصر الانسان شيئاً ، وهكذا مر السيد وركبه بأسواق البلد حتى نزل في قصر الوزير الكبير فتح خان ، وكانوا في ضيافة الحكومة ، ورعاية حكامها وأمرائها .

وقد كان بين هؤلاء الاخوة الذين توزعوا حكومة أفغانستان ، والحدود الشمالية[٢] خصومة ومنافسات أضرت بمصلحة الاسلام والمسلمين ، وأضاعت

---

(١) هو جد الملك ظاهر شاه ملك أفغانستان سابقاً .

(٢) كانوا اكثر من عشرين اخاً من اب واحد وهو « پائنده خان » امتاز منهم وتنبل ستة عشر رجلا كان اكثرهم حكاماً وولاة لولايات مختلفة ومدن كبيرة في افغانستان والحدود الشمالية وكشمير ، منهم ، سردار دوست محمد خان ، جد الامير امان الله خان ، وسردار سلطان محمد خان ، جد الملك نادر خان ، وظاهر شاه ، ويار محمد خان ، حاكم « بشاور » ، ومحمد عظيم خان حاكم « كشمير » ، ومير محمد خان ، حاكم « غزنين » ، وشير دل خان حاكم « قندهار » وهكذا كان يحكم افغانستان والحدود الشمالية ابناء بيت واحد وأب واحد .

ملك الأفغان ، وأطمعت حكومة « لاهور » السيخية في هذه البلاد التي تعتبر معدن الفروسية وعرين الأسود وموطن الغزاة والفاتحين ، حتى استطاع السيخ ـ والانجليز بعدهم ـ أن ينتزعوا منهم البلاد التي ما وطأتها قدم أجنبي ، ومـــا ارتفع فيها علم كفر [1] .

وقضى السيد شهراً ونصف شهر في « كابل » ليصلح بينهم ، ويكون منهم قوة موحدة تقف في وجه الخطر ، وتعيد إلى الاسلام شرفه وكرامته ، وللأفغان مجدهم السليب ، وشوكتهم الضائعة ، ويستعين بها في قتـــال السيخ أولاً ، والحرب مع الانجليز آخراً ، وفي تأسيس حكومة إسلاميــة ، وقوة عسكرية تمتد من الهند إلى أسوار قسطنطينية أخيراً ، ولكنه لم ينجح في سعيـــه ، ولم تتحقق أمنيته ، فتوجه منها إلى « بشاور » ليبحث لجيشه عن مركز يبدأ منه مهمته التي غادر لأجلها الوطن ، وأعدلها ما استطاع من قوة ورباط الخيـل ، وأسباب الجهاد وعدة الحرب .



(١) اقرا ذلك مفصلا في كتاب « تاريخ الافغـــان » History Afghans للمؤلف الانجليزي Arthurconolly ، وهو ملحق كتابه الكبير (الرحلة الى شمال الهند) .
Journey to the North of India

اعذار وانذار

توجه السيد من كابل إلى بشاور « عاصمة الحدود الشمالية » بين جموع المستقبلين والمشيعين ، والمرحبين والمحيين ، حتى وصل إلى بشاور ، ومكث هناك ثلاثة أيام ، ثم توجه منها إلى « نوشهره » لا يمر بقرية إلا ويدعو أهلها إلى الجهاد والنفر في سبيل الله ، ولما وصل إلى منطقة « هشت نغر » اجتمع عليه الناس كالجراد المنتشر ، وكادوا يكونون عليه لبداً[1] ، وكان منظر حبهم وسرورهم غريباً لم يشهد مثله من زمان ، وقد تفننوا في إظهار حبهم، والتعبير عن عواطفهم الصادقة وذهبوا فيه كل مذهب .

وفي ١٨ من جمادي الأولى سنة ١٢٤٢ هـ[2] وصل إلى « نوشهره[3]» وألقى هناك عصا التسيار واتخذها ثكنة للمجاهدين ، وأول معسكر لجيش المسلمين ، وأراد السيد أن يكون جهاده مطابقاً للسنة ، فانه لم يخرج هو وأصحابه من ديارهم بطراً ورياء الناس ولا ليقيموا ملكاً ، ويؤسسوا دولة ينعمون في ظلها

---

(١) جمع لبدة : وهو ما تلبد بعضه على بعض اي تراكم .

(٢) الموافق لـ ١٨ ديسمبر سنة ١٨٢٦ م .

(٣) كانت ثكنة انجليزية كبيرة في العهد الاخير ولها اهمية استراتيجية كبيرة ، وهي الآن مديرية في الولاية الشمالية الغربية في باكستان .

ويحكمون الناس بغير ما أنزل الله ، ولم يكونوا يقاتلون تحت راية عمياء ، مدفوعين بحمية جاهلية ، يخرجون الناس من حكم العباد إلى حكم العباد ، ومن سلطان الأهواء والشهوات إلى سلطان الأهواء والشهوات ، إنما كانوا يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله الله ، فأراد السيد أن يكون كل أمره موافقاً للكتاب والسنة ، ولأسوة الرسول ﷺ وأصحابه والتابعين لهم باحسان في الحرب والقتال ، وأن يكون في ذلك متبعاً لا مبتدعاً ، وكان النبي ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية كان فيما يوصيه به ، ويأمره أن يقول : « إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم أدعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين ، فان أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فان هم أ ا فسلهم الجزية فان هم أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم فان هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم[1] .

وكان المسلمون في العهود الأخيرة قد تناسوا هذه الوصية النبوية ونبذوها وراء ظهورهم[2] ، تناساها ملوكهم وغزاتهم والفاتحون ، وجعلوا ينظرون إلى الحرب كقضية لا صلة لها بالدين ، ولا شأن لها بالأحكام الشرعية ، وكأن الإسلام

---

(١) أخرجه مسلم عن سليمان بن بريدة عن ابيه مرفوعاً في حديث طويل .

(٢) يستثنى من هذا العموم الخليفة الاموي الراشد عمر بن عبد العزيز الذي عرف في التاريخ بشدة حرصه على تطبيق الاحكام الشرعية والسنة النبوية في القضايا المالية والمدنية ، والادارية والحربية ، وقد الغى فتح سمرقند بعدما مر عليه سبع سنين ، لان اهلها شكوا اليه ان قتيبة قد استولى على المدينة واستعمر المسلمين ولم يدعهم الى الاسلام ، ولم يخيرهم بين الجزية والقتال، وامر قاضي المسلمين ان ينظر في هذا الامر ، فان تحقق له صدق اهل المدينة المشركين ، امر بخروج المسلمين من البلد ، والعمل بحكم الشريعة من جديد ، وهكذا كان ، واسلم معظم اهل البلد . (راجع فتوح البلدان للبلاذري ص ٤١١ طبعة مصر ١٩٣٤م) .

قد تركهم فيها هملا يفعلون ما يشاؤن، وأصبحوا في العهد الأخير مقلدين للغزاة الطامعين، والملوك الفاتحين، والقادة الزاحفين، فلا دعوة إلى الاسلام، ولا دعوة إلى الجزية، ولا تخيير ولا إمهال، إنما هو القتال أولاً وآخراً، وأراد السيد أن يفتتح أفضل أعماله عند الله، وأحبها إلى نفسه باحياء هذه السنة التي بقيت مهجورة معطلة من قرون كثيرة، حتى يبارك الله هذا العمل ويسري نورها في الحياة كلها، فكتب رسالة إلى ملك بنجاب – سردار رنجيت سنغ[1] يدعوه فيها أولاً إلى الاسلام فان أبى فالى الاطاعة وأداء الجزية، فان رفض فالى القتال، وذكر فيها أن الموت في سبيل الله أحب إليه وإلى أصحابه من الخمر إليهم.

تلقى ملك لاهور هذه الرسالة ولكنه تجاهلها وأعرض عنها، إنه نظر إليها كرسالة إنذار وتحد يوجهها شيخ من شيوخ المسلمين لا تحميه حكومة، ولا

---

(١) رنجيت سنغ Ranjit Singh (١٧٨٠ – ١٨٣٩ م) من كبار القادة العسكريين الذين نبغوا في أواسط القرن الثامن عشر المسيحي، واستطاعوا بمواهبهم ان يؤسسوا حكومة واسعة قوية، ولاه احمد شاه ابدالى (حاكم افغانستان والفاتح الكبير) على لاهور، وهو في العشرين من سنه، فاستقل بعد مدة يسيرة، ولم يزل يوسع مملكته الوليدة حتى وصلت الى كابل شمالاً وغرباً، والى شواطيء جمنا جنوباً وشرقاً، واحدثت جيوشه الفزع والروع في المنطقة الشمالية الغربية، وأزالت كل امارة اسلامية وقوة منافسة، وقد قامت مملكته الفتاة على اربع دعائم، الاولى: المواهب القيادية الفطرية التي كان يتمتع بها الرجل، الثانية: فروسية جيشه الذي كان مؤلفاً من فلاحي البنجاب والعناصر الحربية ووفائهم له، الثالثة: الحقد القديم الذي كان يحمله السيخ وخاصة الفرقة المعروفة بـ «اكالي» على المسلمين لحوادث وحروب جرت في الماضي، الرابعة: ضعف المسلمين وانحطاطهم حربياً وخلقياً، وتفرق كلمتهم وتمزق شملهم، كما مر في الصفحات الماضية، ولم يكن رنجيت سنغ على جانب كبير من التعصب الديني، ولكنه رضخ للأمر الواقع، وعواطف جيشه العدائية، ومنحه الشيء الكثير من الحرية للمصالح السياسية والحربية، فعاش المسلمون في حكمة بين ذعر وخوف، ونهب وسلب، وعاشوا كشعب ذليل يعاني من انواع السخرة والاضطهاد (اقرأ كتاب Ranjit Singh لمؤلفه Sir Lepel Griffin.

يستند إلى قوة عسكرية كبيرة، وجيش كثيف مسلح بأحدث طراز مؤلف من عسكريين متدربين، وظن أنها نزوة من نزوات الشيوخ والعلماء الذين يستخفهم الطيش ويستهويهم اسم الجهاد، وتثيرهم الحمية الدينية، فتلتف حولهم عصابات من المتحمسين، ثم لا تلبث إذا عضتهـــا الحرب وحمى الوطيس[1] أن تتفرق وتنسحب، وقد جرب من ذلك كثيراً في الأعوام الماضيــة ؟ فقال : « سحابة صيف عن قليل تقشع[2] » وأصدر تعليمات إلى قائده – بده سنغ – أن يكون على بال من هذه الشرذمة[3] الغريبة التي نزحت من الهند، ثم انصرف إلى مـــا كان عليه من قضايا الحكومة والسياسة، وضروب اللهو والتسلية .

ودار الزمان دورته، وتعاقب الليل والنهار حتى كانت معركة – اكوره[4] – في ٢٠ جمادي الأولى ١٢٤٢ هـ التي بيت فيها المجاهدون عسكر – بده سنغ – ووضعوا فيه السيف، وألحقوا به ضرراً كبيراً، وظهر من بطولتهم وكفاءتهم الحربية ما لم يكن في حساب، وظهر أنهم ليسوا لقمة سائغة للعدو، بـــل هم أصحاب بأس ومراس، وعزيمة وشكيمة، وقتل من السيخ سبعمائة مقـــاتل، واستشهد من المجاهدين بضعة وسبعون رجلاً .



(١) اي اشتدت الحرب .
(٢) يضرب مثلا لما يقل لبثه ويخف مكثه .
(٣) الجماعة القليلة .
(٤) اكوره ختك قرية كبيرة في مديرية بشاور ... تبعد عن بشاور بضعة وعشرين ميلا .

لماذا سحبت اسمي ؟

عزم السيد على إرسال بعثة من المجاهدين تغير على العدو في « اكوره » ليلا وتبيتهم ، وكانت أول بعثة تفتتح الجهاد في سبيل الله في الهند على فترة طويلة من الغزوات الدينية .

وأمر السيد الضباط أن يختاروا من العسكر شباناً أقوياء ذوي جلادة وقوة ، لأنهم يستقبلون عدواً قوياً ، وجيشاً كثيفاً في جنح الليل .

قدم الضباط أسماء المجاهدين ونظر فيها السيد ، فاذا فيها اسم عبد المجيد خان الجهان آبادي ، وكان مريضاً يشتكي الحمى فشطب[1] اسمه .

وسمع عبد المجيد أنه شطب اسمه ، وسحب من المبعوثين ، فجاء إلى السيد يهرول ، وقال له :

لماذا سحبت اسمي يا سيدي ؟

قال السيد : لأنك مريض ! ولا ينوء[2] بهذا العمل الشاق إلا قوي صحيح .

---

(١) شطب – شطباً ، الشيء قطعه اوشقه طولا .
(٢) ناء بالحمل : نهض به ، وناء من الحمل : مال به الى السقوط .

قال عَبد المجيد : هذا أول يوم يفتتح فيه الجهاد في سبيل الله في هذه البلاد فيعز علي أن أتخلف عن أول مشهد يشده الناس في سبيل الله ، فمن فضلك أعد اسمي واسمح لي بالخروج .

وجنده السيد الامام وحيا فيه الهمه العالية والغيرة الدينية ، وقال جزاك الله خيراً ، وتقبل نيتك وعملك .

وخرج المجاهدون وخرج فيهم عبد المجيد خـــان إلى « أكوره » وبيتوا العدو[1] وهو أكثر منهم عشر مرات وكسروه ، وانتصروا علية ، واستشهد عبد المجيد خان في المعركة .

(١) كما مر في الفصل السابق .

يد الله على الجماعة

انضم إلى جماعة السيد جم غفير[1] من أبناء البلاد لأغراض مختلفة ، فمنهم من رأى أن لهذه الجماعة شأناً ، وأنها قوة تنمو وتستفحل فمن الرأي والحكمة والانضواء إلى رايتها والانخراط في سلكها ، ومنهم من انضم إلى هذه الجماعة طمعاً في غنيمة وأسلاب وسلاح ينتزعه من العدو ، ومنهم من صحت نيته فدفعته الحمية الدينية وحداه شوق الجهاد في سبيل الله ، فخرج خالصاً مخلصاً لله تعالى لا يشوبه شيء من طمع ولا رياء ولا فخر ولا حمية .

وقد كان لانتصار فئة قليلة على فئة كثيرة في معركة « أكوره » وما ظهر من المجاهدين – وهم حفنة من الرجال – من بطولة نادرة ، ومجازفة[2] بالحياة واقتحام الأخطار دوي في القريب والبعيد ، فأغرى كثيراً من الطامعين والمغامرين بالالتحاق بهذه القوة الناهضة ، والنجم المتألق ، فجاؤا أفواجاً ، والتفوا حول القائد لا تجمعهم غاية ولا يزعهم دين ، ولا يكفهم عهد أو ميثاق، وإنما هم أشواب[3] من الناس .

---

(١) اي الجمع الكثير الذي فيه الشريف والوضيع .

(٢) مخاطرة بها .

(٣) جاء في حديث صلح حديبية الذي رواه البخاري قول عروة بن مسعود « اني لأرى أشواباً من الناس » يعني الاخلاط من انواع شتى .

بخلاف أولئك المجاهدين الذين رافقوا السيد من الهند ، ووضعوا أيديهم في يديه ، وبايعوه على السمع والطاعة ، وأحسن السيد تربيتهم وعني بها كل عناية، ورسخت فيهم التعاليم الدينية والأخلاق الاسلامية ، فهم رهن إشارة وطوع أمر ، لاافتيات في الرأي ، ولا تحكيم للهوى ، ولا انسياق وراء المصالح الشخصية والمنافع الفردية ، زمامهم بيد أميرهم إذا قبض انجروا ، وإذا أرخى استرسلوا ، ومن كان هذا شأنه كان جديراً بكل ثقة ، خليقاً بكل مسؤولية وكان كثيراً على قلته ، قوياً على ضعفه .

وقد ظهر في حملة « حضرو[1] » التي قادها أبناء البلاد باذن السيد عقب معركة « أكوره » من مظاهر الفوضى والعصيان ، والتساقط على الغنيمة وما ينافي الاحكام الاسلامية في الحرب ، وآداب الجهاد ، ما أقلق السيد وأهل الرأي في عسكره ، وشغل بالهم ورأوا . أن ذلك خطر كبير على الغاية التي جاؤا لأجلها وان ذلك يغضب الله ورسوله ، ويحول بينهم وبين النصر الموعود ، وعرفوا أنه لا علاج لذلك إلا أن يبايع الناس السيد ويتخذوه أميراً ، وإماماً شرعياً يطيعونه في المنشط والمكره ، وفي المغرم والمغنم ، حتى يكون جهادهم جهاداً شرعياً ، له أحكامه وآدابه .

وقد كانوا يعرفون مما أوتوا من العلم ومعرفة الكتاب والسنة ، والغوص في كتب الأصول والفروع أن اختيار أمير يأخذ المسلمين بالكتاب والسنة ، ينفذ فيهم أحكام الله ويفصل في خصوماتهم ويردهم الى الشرع ويقودهم الى الجهاد ، ركن من أركان الاسلام قد أخل به المسلمون من زمن قديم ،فعوقبوا على ذلك عقاباً شديداً فتفرقت كلمتهم وتمزق شملهم ، وانفرط عقد حياتهم ، وصاروا يعيشون كقطعان من الغنم لا راعي لها ولا حارس ، وقد عرفوا ما

---

(١) حضرو – كانت قرية على نهر السند في الجانب المقابل لمعسكر المجاهدين في حكم السيخ ، كانت سوقاً عامرة ، ومركزاً تجارياً كبيراً ،وهي الآن في مديرية كيمبل بور في باكستان .

ورد في الكتاب والسنة من الحث على ذلك والتحذير من تركه ، وقرأوا قول الله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم [١] » وقوله تعالى : « ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم [٢] » وسمعوا قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : « صلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم [٣] » .

وقد بلغ اهتمام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بانتظام شمل المسلمين ، وبأن لا يعيشوا إلا حياة اجتماعية ، لهم أمير يأمرهم بالكتاب والسنة ، ويحكم فيهم بالشريعة السماوية ، ويحرس مصالحهم الدينية والدنيوية ، وأن لا تمر عليهم ساعة ، ولا يخطوا خطوة إلا ولهم أمير يطيعونه ، حتى روى عنه أنه قال : « من استطاع منكم أن لا ينام نوماً ولا يصبح صبحاً إلا وعليه إمام فليفعل [٤] وصح عنه أنه قال : « إذا كان ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم [٥] » .

وقد حذر من حياة يعيش فيها كل انسان هائماً على وجهه ، حبله على غاربه [٦] يفعل ما يشاء ويقاتل من يشاء ،ليس له قائد يأمره وينهاه ، ولا أمير يطيعه ويخضع له ،وسمي ذلك « الجاهلية » التي كان الناس يعيشون فيها كالسوائم والأنعام ،ويقاتلون بدافع الحمية والعصبية ،فقال: « من خرج من الطاعة ،وفارق

(١) سورة النساء الآية ٥٩ .
(٢) سورة النساء الآية ٨٣ .
(٣ رواه الترمذي بسنده عن ابي امامة الباهلي ، فأخرجه احمد وابن حبان ، والحاكم ، والدارقطني .
(٤) اخرجه ابن عساكر عن ابي سعيد وابن عمر .
(٥) رواه ابو داود وغيره عن ابي سعيد ، قال العلامة الشوكاني في شرح هذا الحديث ، « واذا شرع هذا لثلاثة يكونون في فلاة من الارض،او يسافرون فشرعيته بعدد اكثر يسكنون القرى والامصار ، ويحتاجون لدفع التظالم وفصل التخاصم اولى واحرى وفي ذلك دليل لقول من قال انه يجب على المسلمين نصب الائمة ، والولاة ، والحكام ، (نيل الاوطار الجزء الثاني ص ٤٩٦) .
(٦) الغارب . الكاهل ، يقال حبله على غاربه يعني هو حر طليق لا يتقيد بشيء .

الجماعة فمات مات ميتة جاهلية ، ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبية أو يدعو لعصبية ، أو ينصر عصبية فقتل فقتلته جاهلية[٢] » وقال : « الغزو غزوان فأما من ابتغى وجه الله ، وأطاع الامام وأنفق الكريمة ، وياسر الشريك ، واجتنب الفساد ، فان نومه ونبهه أجر كله ، وأما من غزا فخراً ورياءاً وسمعة ، وعصى الامام وأفسد في الأرض فانه لم يرجع بالكفاف[٣] » إلى غير ذلك من الآيات الواردة ، والأحاديث المستفيضة مما لا يدع شكا في وجوب نصب الامام وطاعته .

فكان مما خص الله به هذه الجماعة وآثرها به إقامة هذا الركن العظيم الذي قوضه المسلمون وضيعوه من زمن قديم ، وكان يوم الخميس اليوم الثاني عشر من جمادي الآخرة سنة ١٢٤٢ ﻫ يوماً سعيداً مباركاً في تاريخ الاصلاح والتجديد في الهند ، إذ اجتمع فيه المسلمون ، وفيهم كبار العلماء وأمراء المناطق ، ورؤساء القبائل ليبايعوا السيد على السمع والطاعة فيما يأمرهم به من الأحكام الشرعية ، وفي المعروف ، وفي القتال والصلح ، ويختاروه أميراً وإماماً ، وفي اليوم التالي (١٣ من جمادي الآخرة) قرئت باسمه خطبة الجمعة .

وقد أعلن السيد بعد ما تمت البيعة أنه لا بد من طاعة كاملة وانقياد تام للأحكام الشرعية ولا بد من نبذ العادات الجاهلية وما تعارف عليه الناس من أعراف[١] ، وتقاليد وشعائر ما أنزل الله بها من سلطان ، ولو أدى ذلك إلى خسائر مالية ، وحرمان من الفوائد التي كان يتمتع بها الرؤساء والأشراف من زمن طويل أو تنازل من جاه ومنصب ، وشق ذلك على النفس ، وكبر على

---

(١) رواه مسلم في كتاب الامارة (باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين الخ) عن ابي هريرة مرفوعاً .

(٢) اخرجه احمد والنسائي في الجهاد (في باب فضل الصدقة في سبيل الله عز وجل) والحاكم وصححه ، والبيهقي .

(٣) جمع عرف ما استقر في النفوس ، وتوارثه الناس من عادات واعمال .

الاتباع والأشياع ، ولا بد من تحكيم الشرع في النفس والأهل والمـــال ، وفي القضايا العائلية ، والجنائية ، والمالية ، وقد قبل كل ذلك من بايعـــه وأعطوا فيه العهد والميثاق .

وانتشر هذا الخبر في هذه المنطقة كلها ، واجتمع الأمراء والرؤساء ما بين كبير وصغير ، وبايعوا السيد ، وكتبت الرسائل في هـذا المعنى ، ووجهت إلى أمراء بشاور ، وأمير « بهاول بور[1] » وملك « جترال[2] » وجـــاءت منهم الردود اللطيفة يرحبون فيها بهذه الخطوة المباركة ، ويبدون استعدادهم للسمع والطاعة ، ووجه السيد رسائل خاصة الى علماء الهنـــد وأعيانها وأمرائها ، واستبشر بذلك المسلمون ورحبوا بـه على درجات أخلاصهم للدين وغيرتهم الدينية ووعيهم ومعرفتهم بقيمة هذه الخطوة المباركة وخطرها وأثرها في حياة المسلمين وفي مصير هذه البلاد ،



(١) امارة في بنجاب الغربي على حدود السند تحكمها امرة مسلمة تنتمي الى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان الامير يومئذ النواب بهاول خان .

(٢) امارة كبيره في شمال بشاور في الجبال ، كان اميرها في ذلك الوقت سليمان شاه وقـــد تسمى هذه المنطقة بـ « كاشكار » .

فرصة ضيعها المسلمون

انتشر خبر مبايعة الناس للسيد الامام في البلدان ، وسرى بحديثها الركبان ، فتهافت الناس على الأمير يبايعونه ، ويعاهدونه على السمع والطاعة ، ورأى أمراء « بشاور » ورؤساء القبائل — الذين امتازوا من القديم بوزن الأشياء في ميزان الفائدة العملية وقوة المقارنة بين النفع والضرر ، والربح والخسارة ، والذين عرفوا بشدة الاحترام للقوة ، والاعتراف بمن كان له نجم طالع وجد صاعد — أنه لا يسعهم الاعتزال عن هذه القوة الناهضة ،والانطواء على نفوسهم ، وشق عليهم كذلك . التجرد مما كانوا عليه من رئاسة وسياسة ، وما كانوا يتمتعون به من جاه ومنصب ، وأعراف أفغانية ، وتقاليد قبلية ، لا حكم للشريعة عليها ، ولا شأن للعلماء بها ، وإنما هو عمل بالمبدأ الجاهلي النصراني « فصل الدين عن السياسة » وقد انحصر الدين عندهم في العبادات ، وبعض المسائل الفقهية ، وتولى شرحه والدعوة إليه العلماء الذين يؤمون الناس في المساجد ، ويدرسون الطلبة في المدارس ، أما كل ما عدا ذلك من قضايا مالية ، ومدنية ، وإدارية ، وسياسية ، وكل ما يشرف به الانسان ، ويعلو ويحكم غيره ، فقد اختص بالأمراء ، ورؤساء القبائل ، الذين توارثوا الامارة والرئاسة كابراً عن كابر ، أو حازوها بحد السيف ، وقوة الساعد .

فتقدموا إلى السيد الامام ، وهم في صراع بين المنافع الذاتية والمصالح

الشخصية ، والعادات الجاهلية ، والأعراف الأفغانيه ، وبين ما يرونه من إقبال الناس على هذه القوة الجديدة التي تجمع بين الصفة الدينية ، والصفة السياسية ، والتي لا تزال في نماء وازدهار ، وقد صفت إليها القلوب ، وهفت لها النفوس ، ورأوا أنهم إذا تأخروا فانهم سيعيشون على هامش الحياة ، وفي مؤخر الركب ، ويساورهم خوف كذلك من توتر بينهم وبين « رنجيت سنغ » حاكم « لاهور » الذي كانوا يعيشون في ظله ويتمتعون بثقة .

وأخيراً عزموا على الالتحاق بالسيد ، وقد جاءته رسائل من أمراء « سمه[1] » يدعونهم فيها إلى نصر المجاهدين وقائدهم السيد أحمد ، وقد عاشت منطقة « سمه » بعيدة عن نفوذهم محتفظة باستقلالها الداخلي ، فطمعوا في بسط نفوذهم إلى هذه المنطقة الخصبة الغنية ، وكان ذلك مما قوى عزمهم على زيارة السيد ، والتودد إليه والقتال معه ، فتوجه الاخوة الثلاثة — سردار يار محمد خان ، وسردار سلطان محمد خان ، وبير محمد خان — بجيوشهم ومدافعهم ، وعسكروا في موضع « سرمائي » على خمسة أميال من « نوشهره » وعلم بذلك السيد فزارهم ، وبايعوه بيعة الامامة والامارة .

واجتمع المجاهدون من أبناء البلاد من كل ناحية حتى بلغ عددهم إلى ثمانين ألفاً ، وتوجه هذا الجيش الاسلامي إلى « شيدو »[2] وانضم إليه جيش أمراء « بشاور » ويبلغ عددهم إلى عشرين ألفاً ، وهكذا بلغ عدد الجيش إلى مائة ألف وكان أكبر عدد اجتمع تحت لواء واحد ليقاتل العدو منذ زمن بعيد ، وكانت — لو قدر الله ، ووفق الأفغان ، وأخلصوا لله وللاسلام ، وتجرد الأمراء عن أنانيتهم ، وعرفوا قيمة الوقت — معركة حاسمة تملي تاريخاً جديداً ، وتنحو

---

(١) المنطقة التي تقع بين « بشاور » و « مردان » ومعنى « سمه » السهل ؛ وكانت تقطن هذه المنطقة قبائل « يوسف زئي » التي نزل عندها السيد والمجاهدون وكان له منها انصار وحماة.

(٢) موضع يبعد من « اكوره » بأربعة اميال في جانب الشرق .

بالبلاد وبالأمة نحواً جديداً ، فقد قيض الله جماعـــة أخلصت لله وللاسلام ، وتجردت عن كل أنانية وهوى، وقائداً دق فهمه للاسلام ، وعلت همته لاظهاره، وإعلاء مناره ، وتوفرت فيه صفات القيادة ومواهب الامارة ، وصفاً ما بينه وبين الله ، وما بينه وبين الناس ، واجتمعت حوله قلوب مؤمنـــة ، ونفوس أبية ، وسواعد قوية ، وبلغ ذل المسلمين أوجه ، ورنت إليهم العيون،واشتغل خيرة الناس بالدعاء لهم في الهند وغيرها ، وأمسك المؤرخ قلمه ليكتب فصلاً جديداً في تاريخ قديم ، تاريخ تتكرر فيه حكايات الفشل والتفرق وتضييـــع الفرص ونكران الجميل وغدر الأمراء وخيانة الوزراء وخذلان الأصدقـــاء ، أل يسمح بفتح صفحة جديدة في تاريخ المسلمين ، وبكتابـــة عنوان للنصر والفتح المبين ؟

ولكن هيهات ! لقد أعاد التاريخ نفسه في هذه المعركة الجديدة بين الحق والباطل ، فقد دس سم في الطعام الذي قدم إلى القائد الأمير ، ففعل السم فعله في جسمه وأعصابه ، فكان يغمى عليه مرة ، ويفيق أخرى ، واشتبك القتال بين الفريقين ، والسيد في حالة إغماء وغيبوبة ، وطلب يار محمد خـان — وهو غير مخلص في طلبه — أن يحضر السيد القتال ، وأرسل إليه فيلا ليركبه ، وبه عرج ، وكان الغرض أن يقع السيد أسيراً في يد السيخ .

وركب السيد وهو في هذه الحال ، وخاض المعركة واشتد القتال ، وبدت علائم النصر حتى تقدم بعض الناس يهنئون السيد بالفتح ، وهو لا يزال ينتابه الإغماء والصحو .

ولم يبد من أمراء « بشاور » وجيوشهم نشاط وحماس في هـذه المعركة ، وجاءت قنبلة من جهة السيخ ، ووقعت قريباً من يار محمد خان ، فثنى عنانه ، وانسحب من ساحة القتال ، وتبعته جيوشه ، ودارت الدائرة على المجاهدين ، وثبتوا في المعركة يقاتلون قتال الأبطال .

وطالت العلة بالسيد وأراد الله بالمسلمين الخير وقـدر للسيد الحياة ، فـكان يقيء مرة بعد مرة ، ويخرج بذلك السم ، ورأى أهل الرأي المصلحة في اعتصام الجيش ، بمكان آمن منيع ، متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، حتى يجمع شمل المجاهدين ، ويعود السيد إلى الحالة الطبيعية ، وكان السيخ قد ترصـــدوا للسيد ليأخذوه أسيراً ، وقد دبرت المكيدة لذلك باتفاق مع أمراء « بشاور » وفطن لذلك الفيال المسلم الناصح ، وأشار بإبعاد السيد عن موضع الخطر ،فأخذه بعض المجاهدين ، وفيهم عدد كبير من الجرحى فالتجأوا إلى القرى المجاورة وآواهم أهلها المسلمون ، واستقبلوهم بكرم وشهامة ، ووصل إليهم السيد فقروا بـــه عيناً ، وحمدوا الله على سلامته ، ورضوا بقضاء الله وقدره .

واجتمعوا حول السيد ، فذكرهم بالله ، وحثهم على التوبة والانابة ، وقال: لا بد لنا أن نتدبر في هذه المحنة ونلتمس أسبابها في أعمالنا وسيرتنا ، فان الله سبحانه وتعالى يقول : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديـكم ويعفو عن كثير[١] » « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين[٢] » .

وقد كان فيما وقع لي من تناول طعام كان فيه السم اقتداء بسنة رسول الله ﷺ ، وقد سمته يهودية في ذراع شاة[٣] ، وإنني اعتبر ذلك كرامة وفضلاً من الله ، ثم حسر رأسه على عادته في الدعاء ،فأطال الابتهال والتضرع ، ورق فيه وخشع ، وبكى وأبكى الحاضرين .

---

(١) سورة الشورى : الآية ٣٠

(٢) سورة التوبة : الآية ٢٥ .

(٣) جاء في سيرة ابن هشام « أهدت زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم الى رسول الله ﷺ شاة مصلية ، وقد سألت أي عضو من الشاة أحب الى رسول الله ﷺ ؟ فقيل لهـــا الذراع ، فأكثرت فيها من السم ، وتناول رسول الله ﷺ الذراع ، فلاك منها مضغة ، فـــلم يسغها ولفظها » اقرأ القصة بطولها في السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٣٣٧ — ٣٣٨ .

وقد تحقق أن ما وقع كانت مؤامرة « يار محمد خان » إرضاءاً لصديقه ، ووليه حاكم « لاهور[1] » وقد استقبل هذا « النبأ السار » في « لاهور » وفي البلاط الملكي بسرور عظيم ، وقد ظلت حكومة لاهور طول هذه المدة قلقة البال ، مشغولة الخاطر بهذه المعركة الفاصلة التي كانت لتقرر المصير ، وتغير مجرى التاريخ ، فلما سمع حكام لاهور أن أصدقاءهم المخلصين في « بشاور » قد كفوهم مؤنة القتال وأراحوهم من أكبر قوة وأكثف جيش ، اجتمع لحربهم في هذه المدة الطويلة ، شكروهم على صنيعهم ، وأبدوا كل فرح وسرور ، وأمروا بإنارة البيوت ، وإطلاق المدافع ، وأقام « مهاراجه » مهرجاناً كبيراً ، ووزع أموالاً طائلة على الفقراء كعلامة للفرج والانتصار الرائع[2] .

ولكن ذلك لم يفت في عضد[3] السيد ، فاسترجع قوته وعزمه ، وقام بنشاط جديد ، وحماسة فائقة للدعوة الى الجهاد وقام بجولة دعوية واسعة في مناطق « بنير » و « سوات[4] » وزار القرى والمدن يقضي فيها أياماً وأسابيع ، ويجتمع بالعلماء والرؤساء يلهب فيهم الحمية الدينية ، والجمرات الايمانية ، ويوقظ فيهم الوعي الديني والشعور الصحيح .

وفي خلال هذه المدة جاءته جماعات المتطوعين والمجاهدين من الهند ، فيهم كبار العلماء ، والرجال الأقوياء والشبان المتحمسون ، وفي هذه المدة أرسل سفارة إلى ملك « جترال » تحمل هدايا وتدعوه الى الجهاد ، ونصر المجاهدين .

---

(١) يقول المؤرخ الهندكي المعاصر لذلك العهد « لاله سوهن لال » في كتابه « عمدة التواريخ » « لقد تواتر واستفاض في البلاد التي تقع وراء نهر السند ، أن صاحب السمو يار محمد خان قد دس السم الزعاف في طعام السيد ، وانسحب من الميدان بجيشه ، وذلك كله بما كان بينه وبين جلالة الملك « رنجيت سنغ » من اتحاد وصداقة » .

(٢) راجع كتاب « ظفر نامه » لـ « ديوان أمر ناتهار » (ص ١٨١) .

(٣) فت في عضده اي كسر قوته ، وفرق أعوانه .

(٤) مناطق حربية هامة في الحدود تقطنها قبائل قوية أفغانية ، معروفة بالشجاعة والحمية الدينية .

وكان فيمن جاءه في هذه الجولة ولحق به شيخ الاسلام الشيخ عبد الحي البرهانوي ، والشيخ قلندر ومعه نحو ثمانين من المجاهدين الهنود ، والشيخ رمضان السهارنفوري ومعة مئة رجل ، والشيخ احمد الله الميرتهي ومعه نحو سبعين ، والشيخ مقيم الرامفوري ومعه نحو أربعين من الشبان الأقوياء المسلحين المتدربين على القتال ، البارعين في أنواع الفروسية والفنون الحربية .

وتاب على يده في هذه الجولة المباركة ألوف من الناس ، وبايعوه على الجهاد وأصلح فيها بين المتنافسين والمتشاحنين فتصالحوا وتآخوا .

ورجع من هذه الجولة الموفقة التي كسبت قلوباً جديدة ، وجموعاً جديدة ، وقد قضى فيها ثلاثة أشهر إلى « بنجتار » وهي قرية على حدود « سوات » تكتنفها الجبال من ثلاثة جوانب ، فهي كقلعة حربية ساعدتها الطبيعة في المناعة والحصانة ، وقد دعاه سردار فتح خان رئيس قبيلة « خدوخيل » إلى الانتقال إلى هذه القرية ، وقد كان ممن بايعه ، واتخاذها مُقراً دائماً ، ومركزاً عسكرياً للمجاهدين ، وقد أجاب السيد إلى ذلك ، وانتقل إليها على إثر عودته من « سوات » و « بنير » .



الحياة في المعسكر الاسلامي

استقر المهاجرون المجاهدون في « بنجتار » بعد مدة طويلة قضوها في حركة دائمة وتنقل مستمر ، أما هنا فقد تنفسوا قليلاً ، وذاقوا حلاوة الأمن والاستقرار فتجلت الأخلاق الاسلامية ، والسيرة الايمانية العسكرية – التي دقق فيها قائدهم ومربيهم مدة طويلة – في أجمل مظاهرها ، وتمثلت في هذه الناحية البعيدة المحصورة بين الجبال حياة إسلامية جامعة ، تجلت فيها العبادة والمجاهدة في الله بجوار الجهاد في سبيل الله ، والأخوة والمساواة ، والخدمة والمؤاساة ، والايثار والعطف ، بجوار التخشن والتقشف ، والاشتغال باليد ، فبينما هم أشداء على الكفار إذا هم بالليل رهبان إذا هم بالنهار فرسان ، وبينما هم في عبادتهم من الأبدال إذا هم في شجاعتهم من الأبطال[1] ، يجمعون بين الشدة واللين ، والأنفة والتواضع ، وقد شهد التاريخ بعد مدة طويلة أنموذجاً رائعاً للمجتمع الإسلامي الأول الذي عاش في القرون الأولى .

وقد قامت هذه الحياة على دعامتين قديمتين قامت عليهما الحياة في مدينة الرسول ﷺ ، وكان لهما فضل في صنع التاريخ ، وتوجيه البشرية ، وإغاثة

(١) جملة مستعارة من الأمير شكيب ارسلان – رحمة الله – جاءت في حواشيه على « حاضر العالم الاسلامي » في وصف سيدي احمد الشريف السنوسي .

الانسانية المعذبة ، وهما دعامتا « الهجرة » و « النصرة » فـــكان المسلمون في هذه الناحية القاصية منقسمين بين المهاجرين والأنصــــار ، والمهاجرون الذين جاؤا من الهند ، والأنصار الذين تبوؤا الدار وسكنوا البلاد من القديم ، وقــد انعقدت بينهم أخوة جديدة ، مضافة إلى الأخوة الاسلامية القديمة ، وكان المهاجرون يبلغ عددهم إلى ألف شخص سكن ثلاث مئة منهم مع السيد الإمام في « بنجتار » وانبث سبع مئــة في ضواحيها والقرى المجاور لهـا ، وكانت متقاربة متصلة ، كأنها أحياء مدينـة واحــدة ، وكانت توزع عليهم الحبوب والميرة من بيت المال الذي أقامه السيد على النهـج الاسلامي الشرعي وكان الناس ينالون ما يحتاجون إليه من ثياب وملا بس من بيت المال .

وكانت الحياة تجري في هذه « المستعمرة » الاسلامية على قاعــدة الاقتصاد في المأكل والمشرب ، والاكتفاء بالكفاف والقدر اللازم ، لا على قاعدة التوسع في المطاعم والمشارب ، ولين العيش ، ورقة الحياة ، فقــد جــاؤا مهاجرين في سبيل الله ، وقد كان لهم في أوطانهم كل ما يغنيهم ويطيب حياتهم ،وقد قرأوا قول الله تعالى :

« ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصــــة في سبيل الله ، ولا ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيـــع أجر المحسنين[١] » وسمعوا قول رسول الله ﷺ[٢] « ما ملأ ابن آدم وعاءاً من بطن ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فان كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه »[٣] .

---

(١) سورة التوبة : الآية ١٢٠ .

(٢) رواه الترمذي .

(٣) هذه المعلومات التي تلقي ضوءاً على هذه المستعمرة الاسلامية مأخوذة من رسالة لشيخ الاسلام مولانا عبد الحي البرهانوي كتبها إلى اصدقائه في الهند .

وكان إمامهم شريكاً لهم في هذه الحياة ، لا يتميز عنهم ولا يستأثر بشيء يجوع إذا جاعوا ، ويأكل إذا أكلوا ، ولم يكن أهل البلاد الذين أسكنوهم في ديارهم وأرضهم ملوكاً ، وأمراء ، وأصحاب سعة ، وحياة رغيدة ، إنما كان أكثرهم فلاحين ، ومتوسطين في المعيشة ، وكانوا يواسون اخوانهم المهـاجرين ويعينونهم على الحياة .

وكان المجاهدون يعيشون حياة طبيعية إسلامية ، لا تكلف فيها ولا صنعة بعيدين عن الكبرياء والخيلاء ، والأعراف الجاهلية التي آمن بها المسلمون وتمسكوا بها في عهد حكمهم ، وأوج المدنية العجمية المصطنعة ، كالنخوة الجاهليـة ، والتعيير بالأنساب والحرف ، والتقزز من الأعمال التي يباشرها الفقراء ، وأهل الطبقات السافلة ، والحرف الوضيعة ، فكان كل واحد يخدم صاحبه ، ويتعاون معه في كل ما يحتاج اليه ، وكان بعضهم يحلق شعر بعض ، ويغسل ثيابـه ، ويطحن الحبوب ، ويطبخ الطعام ، ويقطع الخشب ، ويعلف الدواب ، ويمسح الخيل ، ويواسي المرضى ، ويحمل القاذورات ، ويكون في مهنة صاحبه ، من خياطة وترقيع ، وخصف النعال ، ينامون على الأرض ، ويتحملون المشاق ، ولا يعرفون البذاء وفحش الكلام ، وسلاطة اللسان[1] ، والغيبة والنميمـة ، والحسد والبغضاء ، قد تلاقت قلوبهم وتحابوا في الله ، وكان فيهم الذين نشأوا في التنعم ورخاء العيش ، ورقة الحياة ، بين خـدم وحشم ، وفي عطف الآباء وحنان الأمهات ، وحب المحبين وإجلال المريدين ، ولكنهم قد شاركوا إخوانهم في الضيق والسعة ، وتعاونوا معهم في الخدمة والمشقة .

والذين جاؤا من بعدهم من الهند ، ولم يألفوا هذه الحياة ، ولم يتخلقوا بهذه الأخلاق ، ولم ينشأوا في أحضان الأمير المربى ، ظلوا أياماً يتعيرون من مباشرة مثل هذه الأعمال ، وقالوا إنها أعمال الأراذل وسفلة الناس ، وإنهـا لا تليق بالأشراف ، وأهل الأنساب والبيوتات ، ويفطن لذلك السيد ، وكان من عادته

---

(١) طول اللسان وحدته .

أنه لا يخص أحداً بنصح أو ملام ، بل يعمم ذلك ، ويوجه الخطاب العام[1] ، ويضرب لذلك الأمثال الحكيمة ويحكي أخباره ، فقال مرة على سبيل المثال :

« إن امرأة مات زوجها وخلف بنين صغاراً ، ولم يخلف مالاً ولا عقاراً ، فاضطرت الأرملة البائسة إلى أن تغزل ، وتطحن وتخيط ، وتشتغل بكل ما يشق ويتعب ، لتعول الأطفال الصغار وتقوتهم ، وما ذلك إلا أنها تؤمل أنهم سيشبون ويبلغون أشدهم ، ويكسبون عيشهم ، وأنهم سيطعمونها ويقومون بشأنها في الكبر ، وفي أرذل العمر ، فتستريح بعد تعب ، وتنعم بعد بشدة ، إن أملها ضعيف ومعرض للخطر ، فمن يدري ؟ هل يعيش هؤلاء الأطفال ، ويبلغون أشدهم ، وإذا عاشوا وشبوا هل يكونون أبناءاً بررة يعرفون لأمهم الحق والفضل ويبرونها ، أو تخترمنهم المنية ويعتبطون[2] في الشباب ، وإذا نجوا من كل ذلك ، وطالت بهم الحياة . فربما يتنكرون للأم الحنون التي حملتهم وهنا على وهن ، وجاهدت فيهم الجهاد الطويل ويعقونها[3] ، كل ذلك ممكن وواقع ومشاهد في هذه الحياة ، ولكن الأم لا تترك تربيتهم ، وتحمل المشاق في سبيلهم لهذه الأوهام والمخاوف ، فكيف باخواننا الذين هاجروا في سبيل الله وهم يباشرون كل عمل شاق ، وكل ما لم يتعودوه ويألفوه ، ولا يستنكفون عن عمل مهما كان وضيعاً أو حقيراً ، ويحتسبون كل ذلك ، ويتقربون به إلى الله ، وقد باشره الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وأصحابه ، وأولياء الله في عصورهم ، وليس في ذلك خطر ولا شبهة ، ولا خيبة أمل ، كما كان الشأن في قصة الأم مع أبنائها ، بل وعد الله على ذلك بالأجر الجزيل ، وتكفله وضمن

---

(١) كان السيد في ذلك متخلقاً بالخلق النبوي ، فقد أثر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وانه اذا أراد ان ينكر على عمل ، او يرد عليه ، عمم الخطاب وقال : ما بال اقوام يفعلون كذا او يفعلون كذا .

(٢) اعبطه الموت ، اخذه شاباً لا علة فيه ،

(٣) عق الولد والده ، عصاه وترك الشفقة عليه والاحسان اليه واستخف بـه ، فهو عق وعاق ، وفي الحديث في امارات الساعة (وبر الرجل صديقه ، وعق اباه) » .

له ، واستفاضت فيه الأخبار الصحيحة ، فلا مجـــال للشك ، ولا داعي إلى الاضطراب والتردد .

إن هؤلاء الاخوان الذين فارقوا أهلهم ، وغـــادروا ديارهم ، وهجروا راحتهم ، وما كانوا فيه من نعيم وسعادة ، وكل ذلك في سبيل الله ، وابتغـــاء رضوانه ، إنهم جواهر كريمة ، وأعلاق[1] نفيسة ، اختارهم الله من بين آلاف من الناس ، وساقهم التوفيق والايمان إلى هذه الناحية البعيدة ، فنحن نعرف منزلتهم وقيمتهم ونضمهم إلى صدورنا ، ونحلهم من نفوسنا وقلوبنـــا أحب مكان وأعزه » .

وبهذه الكلمة الرقيقة المؤثرة ، والأسلوب البليغ الحكيم ، كانت ترق نفوس الوافدين ، وتنحل عقدها ، فيندمجون في هذا المحيط الايماني،ويجارون إخوانهم في حياتهم وأخلاقهم ، ومساواتهم ومواساتهم .

وكان السيد الامام يشارك المجاهدين في جميع أعمالهم ، فرأى مرة الشيخ إلهي بخش الرامبوري يدير الرحى ويطحن الحبوب ، فجلس معه يدير الرحى ويطحن ، وقال إنني باشرت الطحن في مكة وأحب أن أباشره كذلـــك ، وشاع في الناس أن السيد يباشر الطحن ، فاجتمع الناس ، وصار من كان يتعير من هذا العمل يعتز به وينشط له، وإذا نفد الوقود في يوم من الأيام أمر باحضار الفؤوس ، وتوجه إلى الغابة ، ورافقه الناس يحملون الفؤوس ، ويطير هذا في الجيش فيجتمع الناس ويقطعون الخشب اقتداءاً بأميرهم ويحملونه إلى المعسكر .

ويوماً شكى إليه الناس من الحصى الذي كان يؤذيهم في صلاة الجمعة ، فأمر باحضار المناجل، وقال غداً نذهب إلى البرية ، ونختلي[2] خلاهـــا ، ونحمل

---

(١) النفيس من كل شيء ، يقول الحماسي :

أبيت اللعن ان سكاب علق نفيس لا تعار ولا تباع

و « سكاب » اسم فرس .

(٢) اختلى جز العشب والنبات ، وفي الحديث الصحيح عن مكة « لا تعضد شجرتها ، ولا يختلي خلاها » .

العشب والحشيش إلى المصلى ، وهكذا كان ، فسار السيد مع زملائه ، وحمل العشب وفرشه في المصلى ، واستراح الناس ، وشكى الناس يوماً أن الشمس تدخل في الخيام وتؤذيهم ، فأمر بالمناجل فجممت ، وغدا مع رفاقه إلى الخارج فجاء بالخس والعشب ، وصنع خصصاً[1] جميلة ، لها أبواف وشبابيك ، وأعجب أهل المسكر بهذه الأكواخ الجميلة فقلدوهم فيها ،وقامت خصص وأكواخ كثيرة استراح فيها المجاهدون وأمنوا وهج الشمس وأذى البرد ، ومعرة الأمطار .

وكان إذا نفد الماء في المعسكر ، ذهب ليستقي لهم وحمل القربة ، فيقلده الناس ويحملون القرب والجرار ، ويجلبون الماء إلى المعسكر ، وقد يحمل الأحجار الثقيلة من شاطىء النهر ليبلط بها صحن المسجد،ولا يرضى أن يأخذها منه أحد تخفيفاً له ، ويقول : « هل تمنعونني عن أعمال البر ، وتريدون أن تتملقوني كما يتعلق الندماء أمراءهم وسادتهم » ، وقد يحمل من الأحجار لقوته ما يعجز عنه الأقوياء من العسكر .

وهكذا كان شأن الشيخ اسماعيل الشهيد ، فكان مقدماً في هذه الأعمال الشاقة سباقاً إلى الخيرات ، مشاركاً للمجاهدين في جميع أعمالهم ، لا يتميز عنهم بشيء .

وقد انطلقت موجة المواساة والمشاركة في المعسكر الاسلامي ، وصار الناس يتنافسون في كل ما يريح إخوانهم ، ويعينهم ، وقد روى المؤلفون في تاريخ هذه الجماعة والذين رجعوا إلى الهند ، وطالت بهم الحياة أخباراً كثيرة ، وقصصاً عجيبة من هذه المواساة ، والأخوة الصادقة ، والايثار على النفس ، والانصاف منها ، والخضوع للأحكام الشرعية ، والأمانة والعفاف .

وإلى القارىء بعض هذه النماذج والأمثال :

---

(١) الخص ، البيت من قصب او شجر .

فمن عفا وأصلح فأجره على الله

تخاصم خادم يقال له « لاهوري » وهو رجل متواضع المظهر ، يخدم خيل المجاهدين ويعلفها مع رجل اسمه عنايت الله ، له هيئة ومكانة عند السيد الإمام، وهو من رفقته السابقين ، وأخذت الرجل حـــدة ، وكز لاهوري وكزة وقع منها على الأرض ، وصار يتقلب من الألم .

اتصل الخبر بالسيد الإمام ، وأطلع على القضية فعنف عنايت الله خان وعذله عذلاً شديداً ،وقال لعلك اجترأت على هذا لدالتك ومكانتك مني وحقارة الرجل وضعته ، فلا يغرنك هذا فأنت ولاهوري سواء عندي ، لا فضل لأحد على الآخر ، وقد جاء الناس جميعاً واجتمعوا هنا للدين فقط .

وأحال أمرهما على قاضي العسكر وقال له : لا يأخذنك فيهما جنف[1] أو مداهنة ، واحكم بينهما بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيماً .

كان الأمر جلياً واضحاً ، فكان للاهوري أن يقتص من عنايت الله،ويكزه كما وكزه ، فان الجروح قصاص ، ولكن خاف الناس الشر وتخوفوا أن تكون

---

(١) ميل عن العدل والحق .

للقصاص عاقبة لا تحمد ، وعسى أن تأخذ عنايت الله الحدة فيثور عليه ويبطش به ثانية ويحدث فتنة الناس في غنى عنها .

اجتهد الناس أن يتنازل لاهوري عن حقه ، ويسامح غريمه حسبة لله تعالى وتفاديا من الشر ، وأراد القاضي أن يقنعه ، واجتهد الناس أن يفهموه ، فقالوا له : إذا عفوت عن صاحبك ، وتنازلت عن حقك كان لك عند الله أجر عظيم « فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور »[1] أما لو أخذت حقك كنت وصاحبك سواء ولم تستحق الأجر والشكر .

قال لاهوري في بساطة : ولو أخذت بحقي واقتصصت من صاحبي أكان علي وزر ؟ قالوا لا ! بل كل من عندالله « ولمن انتصر بعد ظلمه فاؤلئك ما عليهم من سبيل »[2] قال لاهوري : إذن آخذ حقي واقتص من صاحبي .

هنالك يئس الناس وقطعوا الرجاء وأوقف القاضي عنايت الله أمام لاهوري وقال للاهوري دونك الرجل فاضربه كما ضربك واقتص منه .

قال لاهوري أمن حقي أن أضربه كما ضربني واقتص منه .

قال القاضي نعم .

واضطرب الناس وأيقنوا أن لاهوري ضاربه ومقتص منه .

قال لاهوري اشهدوا أيها الناس أن القاضي قد أعطاني حقي ومكنني من غريمي وقد قضى ما عليه ، وهأنذا متمكن من خصمي لا يمنعني من القصاص أحد ، ولا يحول بيني وبينه شيء ، ولا أخاف أحداً .

---

(١) الشورى : ٤٢

(٢) الشورى : ٤٢

ولكن اشهدوا أيها الاخوان أني عفوت عن أخي ، وتركت حقي حسبة لله تعالى وابتغاء رضوانه .

تقدم لاهوري وعانق عنايت الله خان وضمه إلى صدره وصافحه ، وهتف الناس مرحى مرحى ، وحياك الله يا لاهوري وبياك فقد عملت عمل الرجال ، وصنعت صنع الأبطال .

وهكذا عمل « لاهوري » بقوله تعالى : « والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون * وجزاء سيئة سيئة مثلها * فمن عفا وأصلح فأجره على الله * إنه لا يحب الظالمين *[1] » .



(١) سورة الشورى : الآية ٤٠ .

احدى يدي أصابتني ولم ترد

نريد أن نوليك يا استاذ توزيع الحبوب في عسكر المسلمين !

هكذا خاطب السيد الإمام رجلاً نحيف الجثة قد أضناه المرض اسمه الشيخ عبد الوهاب من لكهنؤ .

قال الشيخ : أنا يا سيدي مصاب بأمراض كثيرة ، وأجمع القرآن في هذه الحال ، والعمل شاق عسير ذو خطر ، لا أستطيع أن أقوم بأعبائه ، فلو رأى السيد الإمام أن يسامح العبد لفعل .

سكت السيد هنيهة ثم قال له تشجع يا أخي وتوكل على الله ، وشمر ذيلك لخدمة الاخوان المسلمين ، وسأدعو الله تعالى وأرجو أن يشفيك ويرزقك صحة وقوة لجمع القرآن في خلال هذه الخدمة .

فرح الشيخ وصار يؤدي وظيفته بأمانة ونشاط ، ورضي الناس بأمانته ونشاطه ، ونصحه للمسلمين وشفقته عليهم وأثنوا عليه خيراً ، وبرىء الشيخ من علله وأسقامه وقوي وسمن وجمع القرآن في هذه المدة .

وقابله السيد الإمام ذات يوم وقال له في فرح وسرور : هايا استاذ إن الله سبحانه وتعالى قد من عليك بصحة وقوة ووفقك لجمع القرآن .

قال الأستاذ نعم يا سيدي إن الله تعالى قد أجاب دعاءك وأرجو أن تدعو لي بأن يثبته الله في صدري فلا أنساه، وأوفق أن أقرأ عليك مرة في التراويح .

قال السيد سأدعو إن شاء الله وأرجو من فضل الله سبحانه أن يثبته في صدرك فلا تنساه ، وكان هذا أجرة لك من الله سبحانه على خدمتك للمسلمين وإخلاصك ونصحك في هذا العمل الجليل .

وكان الشيخ عبد الوهاب يتلو القرآن ويوزع الحبوب والدقيق في وقت واحد ، ولا يزيد ولا ينقص في النصيب ولا يخطىء .

وبينما كان الشيخ يوزع الدقيق في يوم من الأيام إذ جاءه إمام علي العظيم آبادي ، وقد جاء في عسكر المجاهدين حديثاً ، وكان جسيماً قوياً فتقدم وقال أعطني نصيبي ، قال الشيخ عبد الوهاب اصبر يا أخي قليلاً حتى يأتي دورك ، وهذا دور غيرك ، ولم يتأخر الرجل وأخذه طيش الشباب فدفع الشيخ بقوة فسقط الشيخ على الأرض .

رفعه الناس من الأرض وغضب القندهاريون الذين كانوا هنالك ، وكادوا يسطون بامام علي ، ولكن حال الشيخ بينهم وبين إمام علي ، وقال هو أخي وقد دفعني ، فلماذا تضربونه أنتم :

إحدى يدي أصابتني ولم ترد

سكت الناس ونما الخبر إلى السيد الامام ، فسأل الشيخ عبد الوهاب عن القصة ، فقال يا سيدي هو رجل صالح جاء يطلب نصيبه ، فقلت له انتظر حتى يأتي دورك ، وكان في عجل فاصطدم بي من غير قصد ووقعت .

وسمع إمام علي كلمة الشيخ عبد الوهاب فخجل ، وجاء إلى الشيخ عبد الوهاب واستسمحه وصافحه .

أمانة مع العدو

قد رسخت في المجاهدين الآداب والتعاليم التي أخذهم بها قائدهم ومربيهم وانصبغوا بها ، وأصبحت لهم طبيعة لا تفارقهم في الظعن والاقامة ، وفي الرضا والغضب ، ولا تفرق بين عدو وصديق ، وقريب وبعيد ، وهنا أنموذج من هذه الأمانة التي أصبحت لهم شعاراً وخلقاً وطبيعة .

خرج فتح علي من عسكر المجاهدين في « بنجتار » إلى مدينة « بشاور » للعلاج ، واتفق نزوله عند ضابط من ضباط « السيخ » والحرب قائمة بينهم وبين المسلمين .

قال الضابط : من أين أنت يا أخا المسلمين ، وكيف أقبلت ؟! أخبرني بشأنك ولا تخف .

قال فتح علي وقد تشجع وتجلد: إنما جئت من الهند مع الأمير السيد أحمد، وأنا رجل من المسلمين في جيشه .

وإن رجاله أيها الرئيس قوم لا يكذبون أبداً ، ولا يخدعون أحداً، صديقاً كان أو عدواً ، فان الأمير أدبهم هكذا ، وإن الأمير أيها الرئيس صاحب أخلاق عالية ، صاحب كرم وسخاء ، وفتوة ومروءة ، صادق الوعد ، محافظ

على العهد ، وإن اللسان ليعجز عن وصفه ، وتكون مسروراً جداً إذا قابلته ، وهو ولي من أولياء الله فمن آذاه آذنه الله بالحرب .

قال الضابط : صدقت يا أخا المسلمين ، وقد سمعت عن صاحبك من قبل ما شوقني إلى لقائه ، وأنا أنوي زيارته ، وأنتظر أن يرجع أخي من لاهور ، فاما أن أزوره أنا أو أرسل إليه أخي .

وتحدث معي يا أخا المسلمين كل يوم في السر عن صاحبك ، فاني أريد أن أسمع عنه كل يوم .

قال فتح علي : إن الأمير أيها الرئيس صاحب شهامة وكرامة ، وهو من دماثة الخلق ولين العريكة ، بحيث إذا رآه أحد وجلس إليه ما أحب أن يفارقه ، وسأرجع إن شاء الله بعد أربعة أيام أو خمسة ، وبودي أيها الرئيس أن اتفرج مرة على قلعة خير آباد ، وقلعة « أتك » فان الناس يسألونني عنها ولا أدري بماذا أجيبهم .

قال الضابط : عجباً لك يا أخا المسلمين ، أنتم حرب لنا ومن أنصار عدونا الأمير السيد أحمد ، فكيف تجسر على هذا الكلام ، وتقترح على أن أمكنك من زيارة قلاعنا الحصينة ، والاطلاع على مراكز قوتنا ، ومخازن سلاحنا ، ألا تخاف ؟

قال فتح علي : وماذا أخاف أيها الرئيس ؟ إن أصحاب الأمير لا يخافون إلا الله ، وقد آنست منك كرماً ، ورجوت أن أزور بواسطتك تلك القلاع .

ضحك الضابط وقال : لا تجد يا أخا المسلمين علي في نفسك ، فإنما قلت ذلك عن دعابة ، وسأكتب لك كتاباً تسلمه إلى الحارس فيسمح لك بالدخول.

ودعا الضابط بالقلم والدواة ، وكتب توصية إلى صاحب الحرس وسلمها

لفتح علي ، وذهب فتح علي وأذنوا له بالدخول ، فدخل في القلعة فطاف في نواحيها .

ورجع فتح علي في آخر النهار فوجد مضيفه الضابط سكران يهذي ، وفي عنقه عقد ثمين من ذهب ، وفي أذنه قرط من ذهب ، وبجانبه سيف قبضته من ذهب .

ولما رأى فتح علي قال : أزرت قلعة « أتك » يا أخا المسلمين ؟

قال فتح علي : نعم ، وغلبت الضابط عينه فنام .

قال فتح علي : وبقي الضابط نائماً وخفت أن يدخل بعض اللصوص – وهم في هذه الناحية كثير – فيأخذوا سلاحه وماله وهو نائم لا يشعر .

قال : فأخذت هراوة وطفقت أدور على الباب وأحرس البيت .

واستيقظ الضابط في نصف الليل ، فرآني أدور وأحرس فقال : ألا تزال يقظان يا أخا المسلمين ؟

قلت : نعم كنت سكران نائماً وهذه أموالك مطروحة هنا ، فخفت أن يدخل بعض اللصوص ويأخذها ويصل إليك مكروه ، فقمت أحرس .

وأنت أيها الرئيس ضابط كبير لا يحمل بمثلك أن تذهب الخمر بلبه ، ويبقى غافلاً لا يشعر .

قال : صدقت يا أخا المسلمين ، فان من العيب أن يقع من مثلي مثل هذا ، وحملته عينه فنام .

قال فتح علي : ولما كان الصباح وتعالى النهـــار ، أخذني معه إلى قلعة خيرآباد ، وتفرجت عليها ورجعت .

ولبثت معه ثمانية أيام ، وكان يسألني كل يوم عـــن أخبار السيد الامام ، وأخبره بحديثه ، وذات يوم قال لي : يا أخا المسلمين قد نصحت لي ذلك اليوم في شأن الخمر ، وقد تبت اليوم من إكثارها حتى لا أشعر بشيء .

قال فتح علي : ورجعت إلى المعسكر آمناً .



تأثير المحيط في أخلاق الأجانب

كانت أخلاق المجاهدين تؤثر في كل من زار هذه المستعمرة الاسلامية ، ولو بنية فاسدة ، وقدر له أن يقضي بها أياماً ، فكانوا قوماً لا يشقى بهم جليسهم ، ومما يحكى أن رجلاً من قرية قريبة اسمــه « بهليلا » كان ممن اشتهر بالقسوة وإيذاء الناس ، وقطع الطريق ، والاغارة على الناس ، وقد عيل منه صبر أهل القرى ، وضاقوا بــه ذرعاً ، فاجتمعوا ونفوه من القرية ، وعبر « بهليلا » نهر السند ، وساكن « السيخ » وجاورهم وجاراهم ، فبنوا له برجــاً على شاطيء النهر ، وأقطعوه أرضاً للزراعة ، فصار يسكن في هــذا البرج ، والتف حوله نحو خمسين وستين من أنصاره ، فكان يغير في ضواحي قريته القديمة « توبئى » ويأتي بالغنيمة إلى برجه فيعيش عليها ، وقــد استصحب معه مرة جماعات من السيخ وأغار على قبيلة أفغانية ، ونهب قريتها العامرة وقتل من أهلها ثمــانين ، واستولى على هذه القرية وتديرها واتخذها منطلقاً لغاراته وتحركاتــه ، وأقلق ذلك أهل الضواحي والقرى ، وأصبح لهم الشغل الشاغل .

وذهب أهل هذه القرى إلى السيد الامام وطلبوا منه أن يريحهم منــه ، ويكبح جماحه ، وعدهم السيد بذلك ، وكتب رسالة إلى « بهليــلا » يقول فيها : « أنت رجل مسلم فما يحمل بك أن تنهب إخوانك المسلمين وتعاكسهم ،

وأولى بك أن تلحق بنا ، نستعمرك في قريتك القديمة ، ونرد إليك عقارك وأرضك ، ونضيف إليها قرية نقطعك إياها .

ولما تسلم « پهليلا » هذه الرسالة استشار زملاؤه ، فأشاروا عليه باللحوق ، وقالوا : إنه إمامنا ، وصاحب الأمر فينا ، وإذا أراد بنا شراً رأينا ، فالتحق « پهليلا » ومن معه بالسيد ، ورحب السيد بهم وهش لهم ، وقدم « پهليلا » ثلاثة أفراس ، وأربع بنادق ، وتسعة سيوف انتهبها من السيخ ، وقدم السيد هدايا لائقة إليه وإلى أصحابه ، وملابس ونقوداً ، وبايعوا السيد وتابوا عن الفسق والفجور ، وعن جميع المنكرات ، وضيفهم السيد ثلاثة أيام ووعظهم ، وودعهم ، ودعا بأمراء القرية ، ودعا « پهليلا » فأصلح بينهم ، واسترد له ما انتزعوه من أملاكه وعقاره ، وأقطعه قرية على نهر السند على شاطىء النهر كانت قد خربت ، وكان يقطع فيها الطريق على المسافرين .

وقد تغير حال « پهليلا » وحسنت سيرته ، وظهر غناؤه وحسن بلاؤه في الحروب ، وكان من الذين نصرالله بهم الدين وقوى بهم المسلمين .

وزار السيد رجلان من « السيخ » يوماً ، وهو في « بنجتار » وسألهم السيد عن غرضهما بهذه الزيارة ، قالوا : لا شيء إنما جئناك نزورك ، فقال لهما: مرحبا فأقيما عندنا ما شئتما ، ورتب لهما السيد مقداراً من الدقيق والعدس والسمن لطعامهما يومياً ، وكان من عادتهما أنهما يحضران مجلس السيد بعد صلاة الفجر ، وبعد صلاة العصر ، ثم ينصرفان إلى منزلهما ، وكان السيد يؤنسهما بحديثه ، ويقول لهما : أقيما على الرحب والسعد ولا تراعا .

وبعد أن مضى على ذلك عشرة أيام أو أكثر قالا للسيد . لقد مكثنا عندك مدة واستمعنا إلى حديثك ، فوجدنا من سيرتك وأخلاقك فوق ما سمعناه ، وقد أعجبنا دينك وطريقتك ، ونحن نريد الآن أن تدخلنا فيها وتعلمنا الاسلام ،

وفرح السيد بكلامهم ، ولقنهم كلمة الشهادة ، وسمي أكبرهما عبد الرحمن وأصغرهما عبد الرحيم ، وأسلمهما إلى الشيخ نظام الدين الجشتي ليعلمهما أحكام الاسلام وأعماله ، وخلع عليهم ثياباً وملابس ، ورتب لهما طعاماً واختتنا ، وحسن إسلامهما .

وأخبرا السيد بأن قائد جيش السيخ أرسلهما من خير آباد جاسوسين، ولكن الله هدانا للاسلام ، وشرح صدورنا للايمان وسر السيد بصدقهما ، وخيرهما بين أن يقيما في الجيش الاسلامي ، وبين أن يرجعا إلى خير آباد ، فاختارا العودة ومكثا في المعسكر الاسلامي شهرين ، ثم استأذنا للعودة ، فأذن لهم السيد ، وأعطاهما فرسين ، وودعهما .



النظام القضائي والحسبة في المستعمرة الاسلامية

وبعد أيام قليلة نفذ السيد النظام القضائي الشرعي ، وولى العالم الأفغاني الجليل الشيخ محمد حبان رئاسة القضاء ، فكان قاضي قضاة المسلمين في هذه المنطقة ، ونصب في كل قرية قاض ومفت ، وصاحب حسبة ، وجباة وعاملون على الصدقات يجمعون العشر والزكاة من غير إجبار وإرهاق ، فيجتمع كل ذلك في بيت المال ، ويقسم على الطريقة الشرعية .

واستشار القاضي محمد حبان علماء المهاجرين وعلماء البلاد ، فعين غرامات وتعزيرات على ترك الفرائض الشرعية وعلى الأعمال التي تنافي الأخلاق والآداب الاسلامية ، وما يلحق ضرراً بالمسلمين ، فزال كثير من المنكرات ، وارتدع كثير من الشطار والمستهترين والماجنين ، وكف عن المسلمين شرهم وأذاهم ، وكثر عدد المصلين وظهر تفسير لقوله تعالى :

« الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور »[١] .

---

(١) سورة الحج الآية ٤١

ثكنة عامرة ومدرسة حربية

لم تكن هـــذه المستعمرة الاسلامية زاوية من زوايا الصوفية ، أورباطاً من رباطات [1] المنقطعين والمتبتلين ، إنما كانت ـ بجوار كونها مركز ديني وتربوي ـ ثكنة عسكرية ، ومركز فروسية وفتوة ، وكان المهاجرون المجاهدون في هذه المستعمرة في رباط دائم ، يعيشون في « حالة طوارىء » وجو حربي ، مستعدين لمواجهة كل خطر ، آخذين للجهاد عدته وأهبته .

انطلق السيد ذات يوم في جماعـــة من المجاهدين إلى شعب قريب يبعد من « بنجتار » ميلا ، وكانت هناك رابية عليها سهل ، واختاره السيد ليكون مركز المدفعية ، وأمر بالمدافع فجيئى بهـــا من « بنجتار » ونصبت عليها ، وخزنت هناك كميـــة من القنابل والرصاص ، والبارود ، وبنيت هناك بيوت ليسكن فيها المدفعيون .

وأقيم مصنع في قرية « قاسم خيل » لصنع القنابـل ، وزاره السيد يوماً ، ومكث هناك يشاهد عملية صنع القنابل وإفراغها ، وأقيم سباق للخيل والتدرب على الفروسية ، وأقيمت مناورات [2] حربية ، ومسابقات ظهر فيهـا تفوق

(١) الرباط : المعهد المبني ، والموقوف للفقراء ، ج الرباطات ، والرابط ، الراهب أو الزاهد.
(٢) الكلمة تستعمل الآن للتمرينات والتجارب الحربية والمناورة في القديم المشاقة .

السيد ، وبراعته في أنواع الفروسية ، والفنون الحربية ، وتسابق النـــاس في الجلاد والطراد ، شارك فيها السيد ، وظهرت فيها مهارته وزعامته ، وأدعن له كبار الفرسان والأبطال بالسبق والحذق ، وظهر أنه وصل إلى حد الابداع والاختراع فيها ، وأنــه ليس من المقلدين في هذه الفنون ، بـل بلغ فيها درجة الاجتهاد .

وعمت الرياضات البدنية ، والتدريبات العسكرية في هـــذه المستعمرة ، واستفاد بعضهم من بعض ، وكان من المجلين [1] السابقين في هذه الفنون الحربية بعد السيد الشيخ أحمـــد الله الناكفوري ، والضابط عبد الحميد خان ، وأمره السيد بتعليم المجاهـدين الفروسية والرمـاية ، وإطلاق البنـــادق ، والضرب بالسيف ، ولما رأى أهل البلاد ـ وهم رجال الحرب بالطبيعة والنشأة ـ أعجبوا بمهارة هؤلاء الغرباء فشاركوهم في هذه التدريبات ، واستفادوا منهم الكثير ، وقامت مراكز كثيرة للتدريب العسكري ، والرياضات البدنية ، وعين السيد الامام عبد الحميد خان رئيساً لفرقة الفرسان ، وجعله ضابطاً في الجيش ، ودعا له كثيراً ، وأعطاه فرساً نجيباً كان أهداه إليه النواب وزير الدولة والى «تونك» ولاث [2] على رأسه العمامة ، وفرح عبد الحميد خان بهذه الكرامة وحمد الله عليها ، وذهب إلى المسجد فصلى ركعتين شكراً ، وتغيرت أخلاقـه ، فلانت عريكته ، وزالت الحدة التي كانت تغلب عليه ، وأصبح حليماً كريماً ، رفيقاً بالمسلمين ، شديداً على أعداء الدين ، وقتل شهيداً في وقعة « مايار » وحزن عليه المسلمون وترحموا عليه ، وأثنوا عليه ثناءاً عاطراً .



---

(١) المجلى : السابق في الميدان .
(٢) لاث العمامة : لفها على الرأس .

نشاط المجاهدين

لم يجلس المجاهدون في هـــذه المستعمرة عاطلين كسالى ، يشتغلون بالعبادة والرياضة ، بل ظل السيد يتصل بأمراء النواحي ورؤساء القبائل ويراسلهم ، وقـــد يزورهم ، ويحثهم على الجهـــاد ، ونصر الدين ، وكان في مقدمتهم «پائنده خان» والى « أمب [1] » وكان معروفاً بالفتوة ، والشجاعة ، والنخوة.

وكان يرسل سرايا وبعوثاً إلى جهات مختلفة تتجلى فيهـا شجاعة المجاهدين وفروسيتهم ، واحترامهم للأحكام الشرعية ، وخضوعهم للنظـام ، ونزاهتهم وعفتهم في المغانم ، ويظهر فيها انصراف الأمراء المحليين ، وروساء القبائل إلى مصالحهم الفردية ، وخصوماتهم القبلية ، وضعف الحمية الدينية ، وقـلة الشعور بالخطر الداهم ، والعدو الجاثم ، وقد قامت حروب في عدة مواضع ظهرت فيها بطولة المجاهدين ، ومجازفتهم بالحياة والنفوس ، ورباطة جأشهم ، وكان للشيخ محمد مقيم الرامفوري القدح المعلى في هذه المغامرات ، والحروب والغارات .

وجاءت قوافل المتطوعين تترى من الهند ، وكانت خمسة عشر ركباً ، فيهم كبار العلماء ، وأصحاب الوجاهة ، والشبان المتحمسون الغيارى ، وكان من

---

(١) مدينة على شاطىء نهر السند في الجانب الغربي .

بينهم السيد أحمد علي ابن أخت السيد الامام وغيره ، وجاءت أموال أرسلها أنصار الدعوة [1] ، وأفراد الجماعة ، استعان بها المجاهدون في الأغراض الدينية ، وفي إقامة صلبهم ، وسد رمقهم ، وكانت الرسائل تكتب في لغة رمزية لا يفهمها إلا علماء الجماعة ، وكان كثير من هذه الرسائل تكتب بالعربية [2] .

وقد بث السيد دعاة مبلغين يعظون الناس ويدعونهم إلى الجهاد ، وأرسل بعض كبار علماء الجماعة إلى الهند للوعظ والارشاد والدعوة إلى الهجرة والجهاد، ونشر العقيدة الصحيحة ، ومحاربة الخرافة والجاهلية ، كان منهم الشيخ محمد على الرامفوري، والشيخ ولايت على العظيم آبادي من كبار خلفاء السيد وأخص أصحابه .

وقام بجولة أخرى في « سوات » وأقام في عاصمتها « خهر » سنة كاملة ، منقطعاً إلى الدعوة والاصلاح ، والوعظ والارشاد ، مشمراً عن ساق الجد ، محفوفاً برؤساء القبائل ، وأعيان البلاد وعلماء الأطراف .

وهنا كانت وفاة شيخ الاسلام الشيخ عبد الحي البرهانوي فكانت رزية عامة ، وخسارة فادحة ، تبادل فيها الناس التعازي ، وفقدوا فيه العالم الرباني ، والداعي المخلص ، والأب الرحيم ، وكان مصاباً كبيراً ، وقد تجلت في آخر عهده بالدنيا ، واستقباله للاخرة قوة إيمانه ، وغيرته الدينية ، يقول الراوي الثقة :

---

(١) كان على رأسهم وفي مقدمتهم العالم الجليل والمحدث الكبير الشيخ محمد اسحاق الدهلوي سبط الشيخ عبد العزيز ، وهو الذي انتهت اليه رئاسة تدريس الحديث الشريف واسناده في العهد الاخير ، اقرأ ترجمته الحافلة في الجزء السابع من « نزهة الخواطر » .

(٢) وصور من هذه الرسائل الرمزية ، والمكتوبة بالعربية لا تزال محفوظة في مجموع رسائل المجاهدين المحفوظ في مكتبة « تونك » .

« بقي شيخ الاسلام مولانا عبـد الحي البرهانوي خلف المجاهدين وخلفه أميرهم (السيد أحمد) لمصالح دينية ، وحاجات يقضيها ثم يلحقه ، فبقي الشيخ يحن ويتطلع إلى الطلب وكأنه حوت أخرج من الماء أو منفى يعيش في الخلاء ، ولما جاءه الطلب لم يتمالك فكان يجري ويعدو ويقول للناس : ها قـد طلبني الأمير ، ها قد طلبني الأمير .

ولم يزل يجوب القفار والصحاري ، ويجتاز الأودية والبراري ، ويعبر الأنهار العميقة ، ويطلع الجبال الشامخة حتى وصل إلى ثكنة المجاهدين في حدود الهند الشمالية الغربية ، ولما سمع السيد الامام بقدوم شيخ الاسلام استبشر وفرح به كثيراً ، واستقبله من بعيد وأكرم مثواه .

ووصل شيخ الاسلام ، وكتب إلى أصدقائه في الهند : كنت أسمع وأقرأ في الكتب أن الرجل إذا دخـل الجنة نسي أحزان الدنيا وآلامها ، وزال عنه التعب والوعثاء [1] وقال : « الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنـا لغفور شكور » وقد وقع لي هكذا ، فلما وصلت إلى أصدقائي وإخواني وصرت فيهم زالت عني وعثاء الطريق .

ومكث شيخ الاسلام في عسكر المجاهدين يفيدهم في العلم والدين ، ويحكم بين المسلمين ، ويقضي بين المتخاصمين حتى وافاه الأجل .

ولما حضرته الوفاة أرسل إلى شيخه السيد الامام – وهو أصغر منه سناً – وقال : أردت ان أموت شهيداً في ميدان القتال وأراد الله أن أموت مريضاً على الفراش ، ثم سكنت نفس الشيخ وفاضت روحه وهو يقول « اللهم الرفيق الأعلى ، ولحق بالرفيق الأعلى » .

وعـاد المجاهدون في « خهر » إلى التدريبات العسكرية ، والرياضات

الحربية ، والمسابقة في الرمى والسباق ، وإطلاق النار ، يحضرها السيد أحياناً، ويوجههم توجيهات مفيدة ، ويحذرهم من الاتكال على مهارتهم ، والادلال بها ، ويحثهم على الاعتماد على الله وطلب النصر منه .

ومن « خهر » وجه سرية في قيادة الأمير الكبير ، والمؤمن المخلص أرباب بهرام خان إلى « عثمانزئى » قريب « بشاور » حضرها السيد بنفسه بعد أيام ، وقد لقى فيها المجاهدون الشدة ، وكادوا يتلفون في حر شديد ، وظمأ قاتل ، ومتاهة ضلوا فيها الطريق ، ولكن الله سلم ، وعادوا إلى مقرهم .



تجديد النظام الشرعي

وإحكام نظام الامارة والامامة

قوى إيمان الجماعة الذين دخلوا في مبايعة السيد ، واختاروه إماماً وأميراً بفائدة إعادة هذا الركن العظيم ، وإحياء هذه السنة المباركة ، وبشدة الحاجة إلى توسيع هذا النظام ، وبسط نفوذه ودائرته ، وإقامته على أسس ثابتة قوية ، وعرفوا يقيناً أنهم لا يستحقون نصر الله إلا إذا دعوا المسلمين الذين يسكنون في النواحي والضواحي إلى قبول الأحكام الشرعية ، وترك الأعراف والتقاليد الأفغانية التي لا تتفق مع تعاليم الاسلام وأحكامه ، وإلى إطاعة الامام إطاعة تحول بينهم وبين البدع والمنكرات ، والعمل بالأهواء والشهوات ، حينئذ يتحقق الجهاد الشرعي ، وينزل نصر الله وتأييده .

وكان السيد في جولة في « سوات » وأقام في عاصمتها « خهر » أكثر من سنة « جمادي الآخرة ١٢٤٣ – جمادي الآخرة ١٢٤٤ ﻫ » وقد صحت عزيمته على توسيع هذا النظام الشرعي وتوطيده ، فتوجه إلى « بنجتار » ودعا إلى نصب الأمير ووجوب طاعته في كل موضع نزل فيه ، وتذاكر في هذا الموضوع مع العلماء ووافقوا على ذلك ، واعترفوا بتقصيرهم في جنب هذا الواجب الديني العظيم ، وبايعه عدد كبير من العلماء ورؤساء القبائل ، حتى وصل إلى «بنجتار» فصارح فتح خان الذي كان السبب في إيثار هذا الموضع بالاقامة ، وكان من

كبار الأنصار في هذا الموضوع ، وبين له أنه لا يقيم في هذا البلد إلا على شرط أن يتخلى من جميع تقاليد الرئاسة والسياسة ، وكل ما ينافي الشريعة من أعراف وتقاليد ، وعادات موروثه ، وجـــاه ومنصب ، وأن يعد نفسه كأحد أفراد الناس ، ويخضع للنظام الشرعي خضوعاً كاملاً ، وأن لا يحابى في ذلك إخوانه وأقاربه ، ولا يداهن ولا ينافق[1].

ودعا السيد علماء النواحي ، والاساتذة الكبار ، فحضر نحـــو ألفين من العلماء ، وجم غفير من تلامذتهم لا يقل عددهم من ألفين ، ودعا أشرف خان ، وخادي خــان من كبار الأمراء ورؤساء القبائل ، وانعقد مؤتمر كبير في غرة شعبــان سنة ١٢٤٤ هـ لهؤلاء العلماء والأشراف ، والرؤساء وأمراء الأطراف ، ووجه السيد استفتاءاً إلى العلماء والمفتين فيمن يخالف الامام ويبغى عليه ، ويخلع طاعته ، فأفتوا وأثبتوا توقيعاتهم ، وبعد صلاة الجمعة بايعه العلماء والرؤساء ، وجدد من كان بايعه من قبل البيعة ، وفي الجمعة الثالثة «١٥ شعبان سنة ١٢٤٤ هـ» جمـع فتح خان أهـل الحل والعقد ، وذوى النهى والأحلام من قبيلته ، فبايعه جميعهم ، وولى عالم صالح اسمه مولانا السيد محمد مـير قضاء منطقة « بنجتار » ونفذت الأحكام الشرعية ، وبـدأ فصل الخصومات والقضايا في ضوء الشريعة الاسلامية وعلى أساسها ، وعـــين محتسبون يحتسبون على ترك الصلاة ، وعلى الأعمال المنكرة ، وتجلت بركات هذا النظام النيرة في مدة قريبة ، وكانت للدين صولة وشوكة ، وأزيلت مظالم قديمة مضى عليها نحو قرن ، وردت الحقوق إلى أهلهـا ، والأملاك التي اغتصبها واستولى عليها الأقوياء إلى أصحابها الشرعيين ، واستغاث الناس الذين هضمت حقوقهم ، وانتهكت حرماتهم ، إلى الأمـــير ونوابه ، فانتصر لهم ، واستطاع هذا النظام أن يحقق مـا لا تحققه الحكومات الكبيرة المنظمة من رد المظالم ، وإعانـة المظلومين ، وردع الظالمين ، وكان من نتيجة الحسبة أن أقبل الناس على أداء الفرائض وإقامة الصلوات ، حتى يدخل الانسان في قرية عامرة فلا يجد فيها تاركاً للصلاة ، وقامت هيبة الدين ، وعز بعد مدة طويلة .

في مواجهة القائد الفرنسي

جاء القائد « فينتوره [1] » المشهور ، يقود جيشاً وعبر نهر السند ، وعسكر في « هند[2] » وقد تحقق أن خادي خان حاكم « هند » طلبه .

وطلب « فينتوره » الاتاوة والهدايا من رؤساء القبائل على عادته في كل سنة ورفض هؤلاء الرؤساء طلبه فقد بايعوا السيد ودخلوا في طاعته ، وثارت فيهم الحمية الدينية والنخوة الأفغانية ، ولما رأوا الجد وأنه لا قبل لهم به ، لجأ كثير منهم إلى السيد واعتصموا به ، فتوجه « فينتوره » بجيشه ، وعسكر على

(١) كان الجنرال « فينتوره » Vantora من كبار قواد « رنجيت سنغ » الأجانب وكان يتمتع بثقة واحترام ، لا يتمتع بها قائد أجنبي ، كان من أشراف « ايطاليا » وخدم « نابليون » مدة طويلة في جيش اسبانيا وايطاليا ، وقد خرج من فرنسا بعد الهدنة يلتمس الرزق والخدمة العسكرية في حكومة كبيرة ، ومكث في مصر وايران مدة، ثم دخل الهند عن طريق «هرات» و « قندهار » ولما اطمأن مهاراجه الى أمانته وحسن بلائه ، ولاه قيادة جيش خاص ، كان يفوق جميع الجيوش في التدريب العسكري ، وحسن السلاح ، وقام بخدمات كبيرة ظهر فيها تفوقه ووفاؤه ، وكان مهاراجه كبير الاجلال والتقدير له ، لذلك قلده ولاية مقاطعة « لاهور » وكان في الدرجة الثالثة في البلاط ومجلس الملك ، وقد استقال بعد وفاة « رنجيت سنغ » في سنة ١٨٤٣ م ، (ملخصاً من كتاب رنجيت سنغ ، للسير ليبل كريفن ص ٩٧ - ٩٩) .

(٢) مدينة وقلعة حصينة على شاطىء نهر السند الغربي ، كان يحكمها خادي خان ، أحد كبار رؤساء القبائل .

مدخل « بنجتار » وكتب الى السيد يتملقه ، ويكيل له المدح جزافاً[1] ، ويطلب منه أن يحمل رؤساء القبائل على دفع الاتاوة والهدايا إلى حاكم «لاهور» على عادتهم المستمرة ، ويسأله عن الغاية التي توجه لها إلى هذه البلاد ، ورد عليه السيد بكتاب يشرح فيه غايته من هذه الهجرة والجهاد ، ويدعوه إلى الاسلام ، ويذكر أنه في ذلك عبد خاضع لله تعالى ، ليس له من الأمر شيء ، ويذكر اعتداء « السيخ » على هذه البلاد ، وانتهاكهم لحرمات المسلمين وشعائر الدين ، وأنه لا حق له في هذا الطلب ، وأرسل هذا الكتاب مع الشيخ خير الدين الشيركوتي من عقلاء الجيش وعلمائه ، فأسلم إليه الكتاب ، وكان له معه حديث ظهرت فيه لباقته وصرامته .

وأمر السيد بالاستعداد للقتال ، وأرسل كتيبة تتألف من ثلاث مئة مجاهد ، وأمر عليه الشيخ خير الدين ، فصف أمام جيش « فينتوره » ، وعلم القائد استعداد المسلمين للقتال ، وقد كثر الله المجاهدين في عين الجيش المقابل ، وكان كثير من أهل القرى المجاورة قد التجأوا إلى « بنجتار » خوفاً من « فينتوره » فظنهم كلهم من المجاهدين وخاف التبييت ، وملأ الله قلبه رعباً فتراجع وانسحب وعبر النهر ودخل في حدود « بنجاب » .

وفي السنة التالية توجه القائد في ميعاد زيارته السنوية لهذه المنطقة ، بجيش ، وطلب الاتاوة والهدايا ، وكان الرد مثل السنة الأولى ، فعطف عنانه إلى « بنجتار » وقد لامه المهاراجه على تراجعه في السنة الماضية ، ونسبه إلى الوهن والفشل ، فأخذته الحمية الجاهلية وصمم على غسل هذا العار ، وتوجه بجيش فيه عشرة آلاف مقاتل ، وتمالأ[2] معه خادي خان وساعده .

---

(١) جازفه : بايعه بلا وزن ولا كيل .
(٢) تملأ القوم على الأمر ، اجتمعوا عليه وتعاونوا .

وأرسل السيد الرسائل إلى الأمراء ورؤساء القبائل ، والسادة العلماء ، ورأى السيد أن يقيم السد بين الجبلين ، ويبني جداراً ، عرضه أربع أذرع ، فيمنع الجيش من الدخول ، ونشط المجاهدون وأهل الضواحي في بناء هذا الجدار ، وأقاموه في مدة قريبة ، ورأى أن يسد طريق آخر من الوراء ، فقام المجاهدون المهاجرون لبناء هذا الجدار الذي كان طوله أربعين أو خمسين ذراعاً ، وتجددت ذكرى غزوة الخندق ، وتوزع المهاجرون الأرض ، وأقبلوا على بناء هذا الردم ، وقام السيد فقص عليهم قصة غزوة الأحزاب ، وكيف اقتسم المسلمون حفر الخندق ، وشاركهم فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وبشرهم بالأجر الجزيل ، والنصر المبين .

ومن الغد كان المجاهدون يستعدون لصلاة الفجر إذ أخبرهم فرسان الطليعة بوصول الجيش المقابل وراء الجدار ، فانتهى السيد والمجاهدون من الصلاة بسرعة ، وأمر بالتسلح ولبس اللأمة (١) ، وأسفر الفجر وأشعل الجيش النيران في القرى فتصاعد دخان عظيم ، وتقدم الجيش ، وتوجه السيد بالمجاهدين ، ووقف أمام الجدار ، ورتب الجيش ترتيباً عسكرياً ، ونصب الغزاة على عدة جهات ، وقام مولانا اسماعيل الشهيد فتلى آيات بيعة الرضوان من سورة الفتح وشرحها ، وذكر فضائل هذه البيعة ، فبايع الناس السيد من جديد، وعاهدوا الله على الثبات ، وأن تكون لهم إحدى الحسنيين ، إما الفتح وإما الشهادة .

وانتعش الناس وتحمسوا ، وغمرتهم موجة السرور ، والشوق إلى الشهادة ، وسبق الشيخ اسماعيل فبايع السيد ، وتبعه الناس، فتواثبوا وتسارعوا للبيعة، وكان منظراً غريباً ذرفت له العيون ، وتأثرت منه القلوب ، ودعا السيد دعاءاً أظهر فيه عجزه وضعفه ، وفقره إلى الله ، وكان الناس في ذهول عن نفوسهم وعما حولهم ، قد غشيتهم غاشية السكينة والحنين للشهادة ، واستعفى بعضهم

---

(١) اللأمة : الدرع ج لأم .

بعضاً ، وعانقه وودعه ، وقالوا إما فتح فنتلاقى في هذه الدنيا ، وإما شهادة فالجنة هي الملتقى ، وما عند الله خير وأبقى ، وأوصى بعضهم بعضاً وقال : إذا وقع أحدنا شهيداً أو جريحاً فلا يتشاغل أحد بحمله ، بل ليتقدم إلى الامام وليقبل على العدو .

ولبس السيد لأمة الحرب ، وأخذ السلاح والعدة وانطلق إلى الجدار ومعه نحو ثمانية آلاف أو أكثر من المجاهدين الهنود ، والقندهاريين، وصفهم وأوصاهم بعدم التسرع ، وأن لا يطلق أحد بندقية ولا يقتحم الجدار ، حتى يبدأ هو ، وأوصاهم بقراءة سورة قريش والاكثار منها ، ثم وقف متوجهاً إلى الله ، وانتشرت الرايات في الجيش ووقف تحتها المجاهدون ، وكانت راية في يد الشيخ محمد[1] ، أحد العرب .

وصعد « فينتوره » على هضبة ، وتناول الطعام ، ولما فرغ قام وأخذ المكبرة وصار ينظر بها إلى ساحة الحرب ، فرأى جيوش المجاهدين قد ملأت الميدان ، فرعب وارتاع ، وأقبل على خادي خان يلومه ،ويقول له قد خدعتني ، فهونت خطب المجاهدين ، وقلت إنهم قلة قليلة ، فانظر الآن إلى هذا الجيش اللجب من الفرسان والرجالة ، وانظر إلى هذه الرايات الكثيرة التي ملأت الفضاء ، ثم نزل بأصحابه ووقف أمام الجدار ، وجعل « السيخ » يهدمون الجدار ، وأمر السيد باطلاق النار ، وزحف المجاهدون ، وأيقن « فينتوره » بالهزيمة ، فأمر جيشه بالتراجع ، وتبعه المجاهدون إلى مدخل « بنجتار » ولم يكن المجاهدون في هذا العدد الذي تخيله « فينتوره » ولكنه نصر من الله وتأييد منه ولله جنود السموات والأرض .

ولما تحقق تراجع « فينتوره » فرح المؤمنون بنصر الله ، وتوضأوا من النهر الذي يجري في « بنجتار » وصلوا لله شكراً ، « وَكفى الله المؤمنينَ القتالَ »[2].

---

(١) كان من كبار المخلصين للسيد ، رافقه من الحج .

(٢) سورة الاحزاب الآية ٢٥ .

ولا يحيق المكر السيىء الا بأهله

كان لانسحاب القائد الفرنسي المحنك [1] الذي كان النصر حليفه في معارك كثيرة ، عن مركز المجاهدين وتراجعه بجيوشه دوي في البلاد ، وتحدث الناس به من حاضر وباد ، وأقبل المسلمون من قبائل شتى في أوائل ذي الحجة سنة ١٢٤٤ هـ فبايعوا السيد ، وقبلوا النظام الشرعي ، وكانت في « سمه » قرية محصنة تسمى « أمان زئى » كان يسكنها نحو اثنى عشر ألفاً من الأفغان الذين كان دأبهم الغزو والحرب ، فبايعوا السيد ووعدوا بدفع العشر ، وظهرت استقامة رئيس قبيلة آخر اسمه مقرب خان ، وثبت وفاؤه ، وقد وضع الجزية على المشركين ، والعشر على المسلمين .

وبقى خادى خان والي « هند » متمسكاً بعناده وأنانيته ، قد ربط مصيره بأعداء الله وأثبت لهم وفاءه وصداقته ، وقد تحقق أنه حث القائد الفرنسي على الزحف على المجاهدين ، وزين له التقدم بجيوشه نحو « بنجتار » وهون له الخطب ، وأطمعه فيهم وبذل له ما يملكه من إعانة ووسائل ، وكان عيبة [2] نصح له ، وقد كان بقاؤه على حاله ، والتغاضي عنه ، مما يضر بمصلحة المسلمين،

---

(١) المحنك : المجرب ، الذي حنكته التجارب فكان خبيراً بصيراً .
(٢) بالفتح ما يوضع فيه الثياب يحفظها ، والمراد أنهم موضع النصح له والأمانة على سره .

ويفقد النظام الشرعي هيبته، ويطمع المنافقين، والذين في قلوبهم مرض في البغي والغدر، والأنانية، فرأى عقلاء الجيش، وفي مقدمتهم الشيخ محمد إسماعيل الشهيد، أنه لا بد من تأديبه وإتمام الحجة معه، وكف شره إذا أبى ورفض، متمسكين بقول الله تعالى :

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيىء إلى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين [1] » .

وتوجه الشيخ إسماعيل في كتيبة مؤلفة من مئتي مقاتل. وقابل خادي خان، وألان له القول، وبالغ في التفهيم والنصح، وحذره من البغي والعصيان، والتمرد والطغيان، ونقض العهد وخلع الطاعة، ولكن كل ذلك لم ينفع، وأجابه خادي خان بقوله : سامحني يا فضيلة الشيخ إذا قلت لك إننا معشر الأمراء والحكام لسنا مثلكم ومثل السيد من الفقهاء و « الدراويش » . إن لنا شرعاً ولكم شرع، ولا طاقه لنا معشر الأفغان بالشريعةالتي يدعو إليها ويأمر بها السيد، فلماذا يلج بنا السيد ويتشبث بنا، ليدعنا وشأننا وليفعل بنا ما يشاء .

ولما انقطع الكلام، وانقطع الأمل من عودته إلى الرشد ودخوله في طاعة الله ورسوله، وقبول أحكام الشرع رأى أهل الرأي أن لا بد من عقوبته وتأديبه، وفوض ذلك للشيخ اسماعيل الذي لم يكن يضارعه أحد في جيش المجاهدين، وفي أصحاب السيد وخاصته، في الشجاعة والحكمة، وحسن السياسة وقوة القيادة، وتوجه إلى « هند » في جيش من المجاهدين يتألف من خمس مئة مجاهد فائق في النشاط وممارسة الحرب، ودخل مع ضوء الصبح في القلعة .

---

(١) سورة الحجرات الآية ٩ .

وفوجىء خادي خان بهذه الحملة وقتل بيد المجـاهدين ، واستولى الجيش الإسلامي على هذه المدينة المحصنة المنيعة ، ذات الأسوار ، والأسلحة والفلات ولم يقتل إلا خادي خان وفلاح ، ولم يصب أحـــد من المجاهدين بجراح فضلاً عن الموت .

وهكذا انتهى هذا الفصل ، ونجا المجاهدون من فتنة شغلت بالهم ،وتوزعت قوتهم من مدة طويلة

وجاء دور يار محمد خان الذي قاد الفتنة وتولى كبرها ، وتربص بالمجاهدين الدوائر ، وقلب الأمور ، وأراد أن يقضي على حياة السيد ،وتآمر مع «السيخ» حتى كان من أمره أنه زحف بجيشه إلى « هند » ليقصي منها المجاهدين ، ويحل أمير خان محل أخيه خادي خان ، وعسكر في « هريانه » مركز أمير خان ، ومعه ستة مدافع ، وسرب من الأفيال والجمال ،وجيش عظيم ،وما ان وصل إلى « هريانه » حتى أطلق المدافع ليدخل الرعب على قلوب أهل البلاد الذين تطير قلوبهم شعاعاً بصوت المدافع ، وانضم إليـه كثير من المضطربين والمنافقين ، ونهبوا القرى ، وأهلكوا فيهـــا الحرث والنسل ، ونشروا الذعر والفزع في النواحي ، وكانت بين الجيشين مناوشات لا تقدم ولا تؤخر .

وترددت الرسل بين السيد والأمير يار محمد خان ، وبالغ السيد في النصيحة ، وذكرهم بالله ، وحذرهم من عاقبة البغي والعصيان ، وتلقى يار محمد خان رسالة الصلح ، في كبر وأنانية ، ورفضها رفضاً باتاً .

هنالك التجأ المجاهدون إلى الحرب فزحفوا ليلاً إلى جيش يار محمـد خان ، ولا يزيد عددهم على ثمان مئة من الفرسان والرجالة ، يقودهم الشيخ إسماعيل ، وكانت المعركة في « زيده » وقد تقـدم المجاهدون ببسالة نادرة ورفعوا صوت التكبير ، واستولت فرقة منهم على مدافع العدو بسرعة ، وزالت أقدام الجيش الدراني ، ففضل الفرار ، وترك كل عتاده وعدتـــه في الميدان ، حتى وجدت

أحذية كثيرة تركها أهل الجيش في خوف وذعر ، وكانت القدور على النار ، وقد أتى الطعام ، وأعجل الفرار عن تناوله ، وجرح يار محمد خان جرحاً شديداً ، ومات في طريقه إلى مكان كان يريد الوصول إليه ، واغتنم المسلمون ، ووقع بيد المسلمين مال عظيم وسلاح كثير ، ووجدت فتيات اختطفها الدرانيون من القرى المجاورة ، فردهن الشيخ محمد إسماعيل إلى أهلهن .

ودخل السيد منتصراً في « بنجتار » حامداً الله تعالى على هذا الفتح العظيم وأقبل عليه الناس يهنئون وارتفعت الأصوات ، وعلا الهتاف بالتهنئة والحمد ، وقام السيد يذم الغلول ، والاستيلاء على الغنائم ، ويذكر ما ورد فيه من الوعيد ، وما يعود به على الدين ومصالح المسلمين من ضرر ، وكيف يحبط ذلك الأعمال الصالحة ، وأجر الجهاد في سبيل الله ، وأثرت الكلمة في قلوب أبناء البلاد ، فجمعوا ما انتهبوه في ميدان القتال مما كان من حق بيت المال في المسجد ، وكان فيما ردوه مئة وخمسون فرساً ، وخيام وأخبية كثيرة ، فأنفق خمس في سبيل الله ، ثم قسمت الغنائم على المجاهدين حسب ما أمر الله به ورسوله وجاء في القرآن والسنة ، وكان للراجل سهم وللفارس سهمان .

ولما نال المجاهدون المهاجرون سهمهم من الغنيمة ، قالوا : إننا نأكل من بيت المال ونعيش عليه فلا حق لنا في هذه السهام ، فبيت المال أولى بها ، وعلم السيد بذلك فقال : إنه حق وملك لكم ، تتصرفون فيه كما تشاؤن ، فرد أكثرهم سهامهم إلى بيت المال ، ومن كان من أهل خصاصة انتفع بها .

وكان لهذا الفتح أثر كبير في قلوب أهل البلاد ، ففتحت الطرق التي كانت قد انسدت ، وبدأت قوافل المجاهدين والمهاجرين تغدو من الهند وتدخل بسلام ، وبدأت رسائل أهل الهند وإعاناتهم التي يرسلونها تصل إلى المجاهدين ، وكانت للاسلام شوكة ، وجانب يرهب ويخشى .

وقتل أمير خان أخو خادي خـــان بيد أعدائه الذين كانت بينه وبينهم عداوة قديمـة ، وخصومة في أرض وعقـار ، وبذلك كله خـــلا الجو للدعوة والجهاد ، وزالت العقبات إلى حد كبير ، وكان عاقبة الذين أساوا السوأى ، صدق الله تعالى « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله [١] » .



(١) سورة فاطر الآية ٤٣ .

من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

استولى المجاهدون على عـــدة مواضع ومراكز حربية لأمراء القبائل الذين حاربوا المجاهدين ، أو ظهر منهم نفاق ، وموافقة للأعداء ، وإثارة للفتن ، كان من أهمهـــا « عشره » و « أمب » التي كان يحكمها پائنده خـــان ، وقلعــة « جهتربائی » .

وكانت معركة كبيرة في « پهلره [1] » بين المجاهدين وبين « السيخ » واشتد القتال ، وحمى الوطيس ، واستشهد فيهـــا السيد أحمد علي ابن أخت السيد الامام ، وقـــد ثبت في المعركة ثبوت الجبال الراسيات ، وظهرت منه فتوة أعادت ذكرى شهداء غزوة « موتة » وقد كان في هذه المعركة مقتدياً بجعفر ابن أبي طالب ، لأنه لما تعطلت بندقيته أخذ يقاتل بخشبتها إلى أن لقي الله ، وأبلى المجاهدون فيها بلاءاً حسناً ، وقاتلوا قتال الأبطال ، وثبتوا ثبوت الجبال.

وكان من هؤلاء الفتيان مير أحمد علي البهاري ، فكان من البارعين في إطلاق البنادق ، ومن رماة الحدق ، وقد قتل برصاصاته عـــدداً كبيراً من الفرسان ،

---

(١) موضع يبعـد من « مان سهره » بعشرة أميال ، وكانت قرية بين الجبال عامرة يجري فيها نهر يسمى « سرن » .

وأحاط به الأعداء ، وألقوا حوله شبكة من المقاتلين وكبار الفرسان ، وأهاب بهم الفتى المغوار ، وقال أنشدكم بالذي خلقكم أن لا يطلق أحدكم على رصاصة ، بالله تنظرون إلى جلادي ، وكيف أحـــارب بالسيف ، وتشيدون بشجاعتي وتعترفون بهـا ، وأوكد لكم أني لا أحاول الخروج من هـذه الشبكة ، ثم بدأ يضرب بالسيف ويلعب به ، كأنه في ميدان اللعب ، أو مظاهرة فن ، وجاء بما يحير الألباب وصارت الرؤس والأكتاف ، والسواعد تطير وتتناثر حوله ، وما لبث أحد الأعداء أن أطلق عليه النار ووقع شهيداً .

ولما بلغ السيد نعي ابن أخته السيد أحمد على استرجع ، وقال : الحمد لله ، لقد قضى نحبه ولقى ربه ، وبلغ الغاية التي جاء لأجلها ، وسكت طويلاً ، ولما أخبره الراوي أن جميع الجراحات التي أصيب بها ، إنمـــا أصابته في وجهه ، فاضت عينه ، وكان يمسح الدموع بيديه ، ويقول : الحمد لله الحمد لله ، وصدق الله العظيم .

« من المؤمنين رجال صدقوا مـــا عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا [1] » .



---

(١) سورة الاحزاب الآية ٢٣ .

أرى العنقاء أكبر أن تصادا [1]

كان نشاط المجاهدين وراء نهر السند الشغل الشاغل ، والمقيم المقعد لحكومة « لاهور » وكان « رنجيت سنغ » من القادة العسكريين الذين يؤمنون بأنه لا ينبغي للانسان أن يستقل شرارة ، ويستهين بخطبها مهما صغرت وضعفت ، وكان يعتقد أنه لا يزال الباب مفتوحاً للتفاهم مع قائد هذه الحركة ، والتخلص من معرته وخطره ، وكانت نفسه لا تزال تسول له أنه رجل دفعه طموحه إلى هذه المغامرة ، وأنه يمكن إرضاؤه بقطعة من أرض يحكمها ، أورئاسة يتمتع بها ، وقد جرب في حياته عدداً كبيراً من هؤلاء الطامحين من رؤساء القبائل وأشراف الناس ، وعلماء الدين ، وشيوخ الطريقة رفعوا راية الجهاد ، والتف حولهم الراغبون في الغزو والطامعون في المناصب والغنائم ، ثم رضوا باقطاعة [2] أو ضيعة [3] أو عقار [4] ، أو راتب يرتب لهم من الحكومة واستراحت الحكومة من جهتهم في وقت قريب .

---

(١) شطر بيت لابي العلاء المعري ، وتمام البيت .

أرى العنقاء أكبر أن تصادا   فعاند من تطيق له عنادا

(٢) أقطع الامير الجند البلد ، جعل لهم غلته رزقاً ، والاقطاعة قطعة من أرض الخراج يقطعها الجند فتجعل لهم غلتها رزقاً ، ج اقطاعات .

(٣) الارض المغلة .

(٤) العقار الضيعة .

وقد رأى « رنجيت سنغ » أن يفتح هذا الطريق مع قائد المجاهدين وأميرهم، وأن يساومه ويزيد له في الثمن إذا لزم، فعسى أن يرضيه بإمارة صغيرة يكتفي بها، ولا تتحول هذه الشرارة ناراً تنتشر في الحدود الشمالية، وبلاد الأفغان، فتثير القبائل وتلهب نخوتها، وتنفخ فيها روح الجهاد، وهنالك تقوم العاصفة التي تطيح [1] ملكه وعرشه.

ولذلك أرسلت حكومة « لاهور » سفارة موقرة يقودها وزيره وبطانته الخاصة، وأحد أركان الدولة الحكيم عزيز الدين الدهلوي الذي كان من كبار رجال السياسة والمخلصين للدولة، وكان « مهاراجه » كبير الثقة باخلاصه وعقله ودهائه، وعززه بالقائد « فينتورة » وأمرهما بمفاوضة السيد وإقناعه، وكانت مع الحكيم عزيز الدين رسالة رقيقة لطيفة من « مهاراجه » قد تلطف فيها ورقق الكلام، وأطرى السيد، واعترف بمنزلته الدينية الروحية، وأن له في ذلك فضلاً لا ينكر، ويقول إنه إذا جاء يريد ملكا، فان « مهاراجه » مستعد ليقطعه ما وراء نهر السند، يستأثر به السيد ويتصرف فيه كما يشاء، ويتنازل « مهاراجه » عن جبايته والمطالبة باتاوته، ويشتغل فيه السيد بعبادة الله سبحانه، وينصرف عن المحاربة والقتال، وتحريش [2] القبائل وإثارتها، والحديث عن الغزو والجهاد، أو يلتحق بمهاراجه فيوليه قيادة الجيوش.

تلقى السيد هذه السفارة برحابة صدر، ودماثة خلق، وفي تؤدة [3] ووقار، وفي صبر وأناة، وشرح لقائدها المسلم أغراضه ومقاصده من هذه الهجرة والجهاد، والدوافع السامية النزيهة التي ساقته إلى هذه البلاد النائية والحروب الدامية، ومواجهة هذه الحكومة الواسعة ذات الحول والطول.

---

(١) أطاحه اذهبه، وافناه.
(٢) حرش بين القوم: اغرى بعضهم ببعض.
(٣) الرزانة والتأني.

وكان السفير المسلم يفهم هـذه اللغة التي يتكلم بها السيد، ويفهم هذه الروح الايمانية التي كانت تسيطر على الأمير المؤمن الغيور، وتحلق على هـذه الكلمات التي تنبع من القلب، وكان يعرف بحكم تجربته الطويلة، وعقله الكبير، وعلمه الواسع ومعرفة طبقات الناس، أن الذي يتحدث إليه من نبع [1] آخر غير نبع القادة الطامحين، والمغامرين المساومين، الذين يتخذون جهادهم قنطرة للوصول إلى رئاسة، أو راتب كبير، أو مال وفير، وكان يشعر بالتيار الايماني الذي يمس قلبه، ويسري في جسمه وأعصابه، وقد هزته قوة الايمان وشدة الثقة، لما قال له السيد « إننا لم نقبل إلى هذه البلاد التي هي بلاد المسلمين، مع هذا العدد الكبير لننتزع ملكا، أو نحكم أرضاً، إنه لم يكن لنا غرض في هذه الرحلة الطويلة إلا الجهاد في سبيل الله، والرغبة في إعلاء كلمة الله، أما إذا كان « رنجيت سنغ » يغرينا بامارة او رئاسة فليعرف يقينا أنه إذا قدم لنا مملكته بحذافيرها [2]، وتنازل لنا عنها فلا شأن لنا بها، ولكنه إذا أسلم كان لنا أخاً، وتنازلنا له عن كل ما استولينا عليه، وفتحناه بحد سيوفنا، وتركنا له ملكه وما يحكم عليه.

سمع الحكيم عزيز الدين هذا الجواب الصارم، ثم قال لقد وجدناك أيها السيد فوق ما سمعنا عنك، وتطابق فيك الخبر والخبر، ولا يسعني إلا أن أقول « آمنا وسلمنا ».

وأكرم السيد وفادة الحكيم، وأحسن مثواه، وعامله كما يعامل الأمراء الكبار وسفراء الدول، وأهل الفضل والنبل.

---

(١) شجر تتخذ منه السهام والقسي.

(٢) اخذ الشيء بحذافيره اي بأمره وبجوانبه كلها، وفي الحديث: فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها.

وأملى السيد رسالة إلى « رنجيت سنـغ » وأسلمهـا إلى الحكيم عزيز الدين ليبلغهـا إلى « مهاراجه » ، ورجـع الحكيم معجباً بأخلاق السيد ونفسه الكبيرة ، وهمته الشامخة ، وإخلاصه العميق ، وأخبر « مهاراجه » بمـا رأى وسمع ، وقدم إليه الرسالة التي حملها من السيد .

وقـدم القائد « فينتورة » والقائد « إلارد » بجيش عظيم على شاطىء نهر يجري قريب « بشاور » ليتسلم الاتاوة والهدايا التي يأخذها من أمراء « بشاور » سنوياً ، وطلب أن يزوره رجل عاقل من جيش المجاهدين ليتكلم معه ، فاختار السيد الشيخ خير الدين الشيركوني الذي كان من كبـار عقلاء جيش المجاهدين ، وكان قوي العارضة [1] حاضر البديهة ، حاذقـاً في الكلام وأثنى عليه السيد وأبدى ثقته وإعجابه به .

زار الشيخ خير الدين القائد الفرنسي في خيمته وسلاحه معه ، وكان بجوار القائد الفرنسي ، القائـد « إلارد » ، وكان الحديث بين الشيخ وبين القائدين الأوروبيين حديثاً صريحاً واضحاً تناول جوانب علمية ودينية وسياسية ، وكان « فينتوره » يحسن الفارسية ، ويتكلم فيها بطلاقة ، وكان لبقـا في الحديث ، وقـد كان حريصاً على معرفة مقاصد السيد الحقيقية يبذل جهده في صرفه عن محاربـة « مهاراجه » والانصراف إلى العبادة والأشغال الروحية ، ويستغرب كيف حلا له مـع عقله وزهده أن يتحدى حكومة من أقوى الحكومات في هذا العصر ، وأن يخوض معها في حرب لا أول لها ولا آخر .

وانتهز الشيخ خير الدين هذه الفرصة ، فشرح للقائد الفرنسي حكم الجهاد في في الاسلام ومكانته في الشريعة الاسلامية ، وما وعد الله عليـه من الثواب ،

(١) العارضة الراي الجيد وتنقيح الكلام ويقال « فلان ذو عارضة » اي ذو بيـان ولسن وبديهة .

وذكر أنه كتب على الأنبياء الأولين وأممهم وقد قاموا به في عصورهم ، وذكر شغف السيد باحياء هذه الفريضة ، وذكر شروطه وأركانه ، ومنهجـــه الديني الشرعي ، حتى لا يكون علوا في الأرض ولا فساداً ، وكيف بايع الناس السيد واختاروه أميراً لهم وإمامهم ، وأنه لا شأن له بالاستيلاء والاستعلاء، وإخضاع الناس واستعبادهم ، واستبدال شخص بشخص ، أو أسرة بأسرة ، إنمـــا هو إخراج الناس من حكم الناس إلى حكم الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيـــا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام[1] «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »[2] .

وأفاض في الحديث وذكر ما خص الله به السيـــد من الاعتماد على الله ، والتوكل عليه وقوة الايمان ، واستشهد بالتـــاريخ ، وذكر كيف استطـاع الضعفاء العزل أن ينتصروا على الأقوياء ، المسلحين بقوة إيمانهم ، ونصرهم للدين، وحماية الضعفاء والمظلومين ، والانتصار للحق، وأن يؤسسوا حكومات عظيمة، ومدنيات زاهرة ، وقد جاء في القرآن : « كم من فئة قليلة غلبت فئـــة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين »[3] .

وقد بدأ أكثر هؤلاء عملهم وهم لا يملكون شيئـــاً من السلاح والكراع[4] ، والقوة والشوكة ، ثم تهيأ لهم كل ما كانوا يحتاجون إليه في تحقيق غايتهم ،والله يقول : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم[5] » ويقول: « ويزدكم قوة إلى قوتكم[6] » .

---

(١) كلمات قالها رسول المسلمين في مجلس قائد الفرس .
(٢) سورة البقرة الآية ١٩٣ .
(٣) سوره البقرة : الآية . ٢٤٩ .
(٤) اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير .
(٥) سورة محمد الآية . ٧
(٦) سورة هود الآية . ٥٢

وهنا قاطعه « الجنرال إلارد » وقال إنه ليس من المعقول والثابت أن ينتصر الضعيف الأعزل على القوي المسلح ، وعارضه « فينتوره » وقال : لا إن الحق مع الشيخ ، والتاريخ يؤيده ويشهد له ، وقد وقع مراراً أن الكبار انهزموا أمام الصغار ، وأن القلة القليلة انتصرت على الكثرة الكاثرة .

وقال « فينتورة » إنني أحب السيد وإنني متهم بذلك في البلاط الملكي ولكن هذا الحب لا يمنعني عن أن أقوم بواجبي في ساحة القتال ، فلو تبادلنا الهدايا فأهديت إلى الخليفة ، ثم أهدى إلي فيكون لي عذراً في العودة ، ويكون رمزاً للولاء والصداقة ، وإذن لا تتعرض حكومة « لاهور » بالسيد،فيتصرف في المنطقة التي احتلها كما يشاء ، ولا تدخل جيوش « مهاراجه » في حدوده .

قال الشيخ لا مانع من ذلك فالسيد على جانب عظيم من مكارم الأخلاق وسماحة النفس ، والاستهانة بالأموال والطرف ، صاحب أريحية[1] وسخاء يحب أن تكون له اليد العليا دائماً ، والسبق في العطاء والاهداء ، ولكن هداياه غالباً من جنس الملابس والأشياء التي تستعمل ، ويتزين بها ، وعنده أسلحة غالية نفيسة ، فربما أهدى إليك منها شيئاً .

وكان غرض « فينتوره » أن يهدي السيد إليه فرساً ، فيستطيع أن يقول لمهاراجه إن السيد قد أهدى إليك فرساً ، فقد انتهت الحرب وزالت الوحشة وقبل السيد أن تكون لمهاراجه السلطة العليا ، وكان إهداء الفرس من جانب إلى جانب رمزاً للولاء والصداقة والدخول في الحماية والحضانة ، وكان ذلك عرفاً شائعاً في ذلك العصر ، وقد جرى على ذلك أمراء « بشاور » ورؤساء القبائل في شمال الهند الغربي ، وقد تفطن الشيخ خير الدين بذكائه وفطنته لغرضه ، وكان القائد الفرنسي يراوده عن ذلك بلطائف الحيل وذلاقة اللسان ،

(١) خصلة تجعل الانسان يرتاح إلى الافعال الحميدة ، وبذل العطايا .

فكان يريد أن يعده الشيخ بذلك ويتقيد به ، وقد تملص[1] الشيخ من هـــذا الوعد ، وأبى أن يقع في شباكه .

وانفض المجلس وعاد الشيخ إلى السيد الإمام ، وحكى له مـا جرى بينه وبين القائد من الحديث ، فأقره السيد على ذلك وأثنى عليه ، وقــال : لقد حققت ظننا ، وصدقت فراستنا فيك يا إياس[2] .

وصمم القائدان الأوربيان على الزحف إلى « بنجتــار » وشاع في جيش « لاهور » أن المجاهدين ينوون التبييت والاغارة على الجيش ليــلا ، فانتشر الذعر في الجيش ، وبات الجيش ساهراً لا يهـدأ له بال ، ولا ينطبق له جفن ، وقذف الله في قلوبهم الرعب وثنى الجيش عنانه إلى النهر ، وعــبره ، ثم كسر الجسر خوفاً من لحوق المجاهدين ، ثم توجه إلى « أتك » و « كفى الله المؤمنين القتال[3] » .

ولا بد أن القائد الفرنسي قد حكى لسيده القصة بنصها وفصها[4] ، وذكر له أن السيد أعز منالاً ، وأرفع مكاناً من أن يساوم أو يراود عن غايته وعقيدته ، وأنه كالعنقاء التي لا تقتنص بالشباك ، ولا تستنزل بحثالة[5] الشعير ، وفتات[6] المائدة .



---

(١) تملص منه : أفلت وتخلص ، وتملص الشيء من يدي : زل انسلالا لملاسته .
(٢) رجل حكيم يضرب به المثل في الكياسة والفراسة .
(٣) سورة الاحزاب الآية ٢٥ .
(٤) يعنى بجمالتها وتفصيلها ، مطابقة للاصل .
(٥) ما يسقط من قشر الشعير ، او الارز الخ .
(٦) أي الكسارة والسقاطة .

حرب فرضت على المجاهدين وانتصروا فيها

كان انتصار المجاهدين في حرب « زيده » رغم قلة عددهم وغربتهم في البلاد، وهلاك الأمير يار محمد خان كبير الاخوة ووالي « بشاور » حادثاً يحسب له حساب كبير في حياة الأسرة التي كانت تسيطر على بلاد الأفغان وتملك زمامها، وكانت أم سلطان محمد خان تعيره بقتل أخيه الأكبر، وتثير فيه النخوة الأفغانية وتحمله على أخذ الثأر وغسل هذا العار .

وزحف الأمير الثائر الموتور بجيشه أخيراً إلى مركز المجاهدين وقرر أن يستأصل شأفتهم[1] ويستريح من هذا العناء الطويل الذي شغله، وأقلق باله منذ ورد السيد في هذه البلاد . والتحق به كل من كان يحقد على السيد من الأمراء ورؤساء القبائل، وأصحاب الضياع والقرى، وأصحاب المناصب، ويرى في سيادة السيد وزعامته الروحية زوال سيطرته، وضعف شوكته، وهدد سلطان محمد خان الأمراء والأقيال[2] ورؤساء القبائل بالبطش الشديد، قال إنه ينكل بهم ويعاقبهم، لأن قتل يار محمد خان قد وقع في أرضهم وبين سمعهم وبصرهم ولم يحموه ولم ينصروه وكان معه اثنان من إخوته سردار پير محمد خان، وسردار سيد محمد خان، وحبيب الله خان ابن أخيه الأكبر محمد عظيم خان والي كشمير.

(١) الشأفة الاصل يقال استأصل شأفته أي أزاله من أصله ،
(٢) القيل الرئيس ، وكان يلقب به ملوك حمير .

واتفق الرأي على مواجهة هذا الخطر أو التفادي[1] منه إذا أمكن، فتوجه السيد من قلعة «أمب» التي كان مقيماً فيها إلى معسكره القديم «بنجتار» وخيم جيش «بشاور» في موضع «هوتي» ونزل السيد في موضع يقابله، يقال له «تورو».

كان السيد زاهداً كل الزهد في هذه الحرب التي ستقع بين طائفتين من المسلمين، وكانوا جميعاً في غنى عنها، كارهاً كل الكراهة لأي اصطدام يقع بين قوتين، كان الاسلام والمسلمون أحق بأن ينتفعوا بها، وأن تنصرفا إلى عدو مشترك.

وكان سلطان محمد خان في مقدمة من مد إلى السيد يد الولاء والنصر، وبايعه على السمع والطاعة، والجهاد في سبيل الله في «كابل» فأراد السيد أن يصرفه عن هذه المعركة التي هي جهاد في غير عدو، وقتال في غير لزوم، وأن يحرك فيه الشعور الديني، والعاطفة الاسلامية، التي لا يتجرد عنها مسلم، فاختار الشيخ عبد الرحمن وهو من أهل «تورو» ومن كبار المخلصين، والعلماء الربانيين، ليكون سفيراً بينه وبين سلطان محمد خان، ويبلغه رسالته ورجاءه، ويقول له: إنما جئنا إلى هذه البلاد لنقاتل حاكم «لاهور» وكنا مؤمنين بأنكم ستكونون بجوارنا في هذا الجهاد الذي نقوم به لنصر الدين وحماية المظلومين ودفع الغاشمين، وكنت أول من بايعني ووعدني بالنصر، وكيف يسوغ لك أن توالي الكفار، وتحارب المسلمين، وتتربص بهم الدوائر فتخسر بذلك الدين والدنيا، وتعض بنان الندم.

وكان رد سلطان محمد خان على هذه الرسالة اللطيفة، والموعظة الرقيقة رداً عنيفاً قاسياً، قطع كل أمل في المصالحة، وتراجعه عن موقفه، وأعاد السيد

---

(١) تفادى الرجل من كذا تحاماه، وانزوى عنه.

الرسول ، وبالغ في النصيحة ، وأراد أن يفتل في غاربه[1] ويهدىء سورته[2] ، وذكر له أن أخاه دوست محمد خان قد حذره منه ، وقال لا تثق بوفائه وعهده . ولكنه أراد أن لا يتسرع بحكم أو قطيعة ، وقد وقع ما وقع منه ومن أخيه الأكبر يار محمد خان في معركة « شيدو » وعفا عنها وصفح ، وجزى السيئة بالحسنة ، حتى زحف يار محمد خان بجيشه العظيم ، ومدافعه الكثيرة على المجاهدين ، ليقضي عليهم نهائياً ، ولكن الله سلم ، وكان الفتح للمجاهدين ، فذهب يار محمد خان ضحية تهوره وعدائه للمجاهدين ، ولا ذنب في ذلك علينا ، « كل امرىء بما كسب رهين[3] » .

وتردد الرسول بين السيد وسلطان محمد خان ،وطال الحديث واحتد الكلام من والي « بشاور » وهدد وأوعد ، وبرق ورعد ، ومنع الشيخ عبد الرحمن عن ان يعود إليه ، ويتكلم معه في الموضوع ، وظهر أن لا مناص من الحرب ، فاستعد السيد للقتال مكرها ، وأقبل على التعبئة وإنزال الناس في منازلهم ، وبات الجيش ساهراً مستعداً للقتال ، وآخذاً له عدته لم يكتحل بنوم ، وعينهم على جبهات مختلفة ، وحضر صلاة الصبح مع السيد في « تورو » أكبر عدد من المجاهدين ، وهم يعرفون أنهم مستقبلون لحرب عوان[4] ستقرر المصير ، ولما انصرفوا من الصلاة أقبل السيد على دعاء ذرفت منه العيون ، وخشعت فيه القلوب ، وأكثر من التضرع والاقرار بالذل والافتقار ، وبراءة من كل حول وطول ، وأن ملجأ من الله إلا إليه .

ولم ينته من الدعاء ويمسح وجهه بيديه ، حتى أقبل رجل من جبهة القتال،

---

(١) اي يلينه ويصرفه عن غلظته وصرامته .
(٢) سورة الخمر ، حدتها ، وسورة السلطان سطوته .
(٣) سورة الطور الآية ٢١ .
(٤) الحرب التي قوتل فيها مرة بعد اخرى .

وأخبر بأنه سمع طبولاً تضرب إعلاناً بالحرب ، فأمر السيد بإعلان الحرب وشد الناس حيازيمهم[1] ونزل جيش المجاهدين في ساحة « مهيار[2] » وهو في سلاحه، وعدته الحربية .

وكان سلطان محمد خان وأخواه،وأنصارهم قد وضعوا أيديهم على المصحف، وحلفوا على عادة أهل البلاد أن لا ينصرفوا عن القتال حتى يفوزوا أو يموتوا ، وأقيم قوس من الرماح ، وعلق على رأسه مصحف ، ودخل الجيش من تحته ونزل في ميدان الحرب ، وقام ذلك مقام الحلف بالقرآن على الصمود في وجه العدو ، وعدم الانسحاب ، وهكذا كانت للحرب مسحة دينية ، وتصميم على الاستماتة ، والقتال إلى آخر رمق .

ونشبت الحرب ، واشتبك الفريقان ، وكان جيش « بشاور » يتألف من ثمانية آلاف فارس ، وأربعة آلاف الرجالة ، وكان جيش المجاهدين مؤلفاً من ثلاثة آلاف راجل ، وخمسة آلاف فارس ، وأمر السيد بالطاعة والانقياد ، وحذر من التفرق والتسرع والافتيات بالرأي ، وعن العدو والجرى الشديد ، وكان السيد راكباً على فرس ، وكان يتوسط صف الرجالة يحث على الجهاد والثبات ، والاستعانة بالله ، فطلب منه بعض عقلاء الجيش ومن الناصحين المخلصين أن يترجل لأنه بائن للعدو، شامة[3] بين الناس فيقصده المدفعيون ويتخذونه هدفاً للقنابل ، فقبل السيد رأيهم ونزل عن الفرس .

وحمي القتال واستعر ، وانطلقت المدافع ، وبدأ وابل من القنابل ،

---

(١) الحيزوم ، وسط الصدر ، و « شد الحيازم » كناية عن الاستعداد للحرب والصبر فيها .

(٢) قرية كبيرة بين « تورو » و « هوتي » وقعت فيها الحرب بين المجاهدين وسلطان محمد خان ، ولا تزال هذه القرية معروفة بهذا الاسم حتى الآن واعتاد الناس ان يسموها « مايار » .

(٣) اي واضح متميز كالخال في الجسم .

واشتغلت السيوف والأسنة ، وبدأ المجاهدون ينشدون نشيد الجهـاد[1] الذي نظمه الشيخ خرم علي[2] البلهوري ، هو نشيد مؤثر مثير ، وصار المجاهدون يرجزون وأخذتهم نشوة الجهاد وترنحت بها أعطافهم .

وظهرت بسالة السيد في أروع مظاهرها ، وكان يخوض الحرب ، وهـو لا يبالي أوقع عليه الموت ، أم على الموت وقـع ، وكان رفيقه الأيمن ، ورفيقه الأيسر يناولانه بندقيتين مشحونتين يطلقهما في سرعة غريبـة ، وجرأة عظيمة .

وظهرت شجاعة المجاهدين واستهانتهم بالحياة في شكل رائع ، وتقدم الشيخ محمد إسماعيل ، والشيخ ولي محمد فاستوليا على مدافع العدو وصوباها نحو العدو ، وأشرف السيد على عمليتها ، وأعطى تعليمات حكيمـة ، وصلحها ، فصارت تعمل في العدو أحسن من ذي قبل ، وتزلزلت أقدام الدرانيين[3] ، ولجـأ الجيش إلى الفرار ، وتم النصر للمجاهدين ، وعادوا إلى قلعة « مهيار » وقـد مالت الشمس إلى الغروب ، وقـد اجتمع إليهم من تفرق أو تشاغل بالحرب ، وأمر الشيـخ مظهر علي العظيم آبادي بجمع الجرجى واسعافهم الطبي ، وتضميد الجروح ، والصلاة على الشهداء ودفنهم ، وقد قضى المجاهدون النهـار في حرب وقتـال ، ولم يذوقوا طعاماً وقـد غلب عليهم النعاس ، وشغـل الجراحون

---

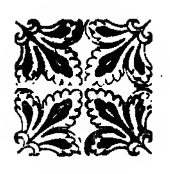
(١) صادره الانجليز ، وكان طبعه وتداوله جريمة قانونية ، لانه يحث على الجهاد في سبيل الله.

(٢) هو العالم الكبير الشيخ خرم علي البلهوري « الكانفوري » اخذ الطريقـة عن السيد الامام ولازمه زماناً ، ثم سافر الى « بانده » فقربه اليه النواب ذو الفقار خان وولاه على الترجمة والتصنيف ،نقل الى اردو كتباً كثيرة في الفقه والحديث،له« نصيحة المسلمين » في عقيدة التوحيد والسنة على غرار « تقوية الايمان » للشيخ اسماعيل ، توفي سنة ١٢٧١ هـ .

(٣) كان أمراء « بشاور » و « كابل » وأصحابهم يلقبون بالدرانيين غالباً .

بتضميد [1] الجروح وربطها إلى نصف الليل .

وقـــد ظهرت في هذه المعركة روائع من الاخلاص ، والشجاعة النادرة ، والايمان العميق والحنين للشهادة ، والحب للقاء الله واستقبال الموت بثغر باسم ونفس تواقة ، نختار منها بعضاً نحكيها باختصار .



(١) ضمد الجرح ، شده بالضماد ، والضماد ، خرقة يشد بها العضو المجروح .

جهاد اخلاص وموت شهادة

قبل أن تنشب الحرب في ساحة مهيار ، أقبل إلى أمير المجاهدين السيد الامام أحمد بن عرفان الشهيد شاب قوي نشيط تلوح على محياه آثار النجابة والشرف ، ويظهر أنه من أقارب السيد وعشيرته .

أقبل الشاب وخاطب السيد بصوت فيه الاجلال ، وفيه دالة الأخوة والقرابة ، وبساطة الجندي ، وقوة الشباب .

يا أخي أيها الأمير : إني قد لحقت جندك وفارقت وطني لأنك من أهل قرابتي وعشيرتي ، فاذا منحك الله ملكا ، لم أكن بك شقياً ولا بد أن تعود علي بفضل ، وهأنذا أتوب إلى الله مما قصدت ، وأبايعك على الجهاد في سبيل الله خالصاً مخلصاً ، فبايعني يا أخي ، وادع الله لي بالسداد والاستقامة .

سمع السيد كلام أبي محمد [1] وسمع الناس ، وبايعه السيد على الجهاد ودعا له،

(١) هو السيد أبو محمد ، الرائبريلوى ، كان ضابطاً في جيش حكومة « أوده » وكان جميلاً وسيماً حاذقاً في أنواع الفروسية وخلال الفتوة ، وكان لطيف الطبع ، حسن الهندام ، يحب الاناقة والظرافة في كل شيء ، له مشاركة جيدة في أكثر الصنائع ، وكان عفيفاً عزوفاً عما لا يحل حريصاً على الخدمة وتمريض المرضى ، لما عزم السيد على الهجرة استقال من وظيفته وسار يشيعه من مكان إلى مكان حتى وصل إلى الحدود الشمالية .

وكان منظراً رائعاً جاشت له الصدور ، وفاضت له العيون ، فلا يرى في القوم إلا باك قد خنقته العبرات ، وسار السيد أبو محمد ـ والدموع جارية ـ وسمى الله ووضع رجله اليمنى في ركاب فرسه ونادى بأعلى صوته :

أشهدكم أيها الاخوان أني لم أزل أركب الجواد زهواً وخيلاء لا أريد به وجه الله ، وهأنذا أركبه الآن التماساً لرضا الله سبحانه وطمعاً في ثوابه .

نشبت الحرب بعد قليل واشتبك الفريقان ، وكثر القتلى والجرحى ، وكان النصر للمجاهدين .

يقول فتح علي العظيم آبادي : بينما أنا أمر بين القتلى والجرحى إذا بالسيد أبي محمد يجود بنفسه ، وقد أثخنته الجراح ، فدنوت منه وصرخت في أذنه يا أبا محمد : إن الله قد نصر أمير المؤمنين وهزم الأعداء ، ولم يلتفت أبو محمد ولم يتكلم ، وما زال يلحس شفتيه ويقول : « الحمد لله الحمد لله » فحملته إلى القرية وبه رمق ونفس يتردد ، وهو يلحس شفتيه ويحمد الله ، وما لبث ان لفظ نفسه الأخير .



كيف استقبل المجاهد الموت

جندي [1] قوي العضلات ، شديد البطش ، يظهر أنه كان مصارعاً التحق بالمجاهدين قبل وقعة مهيار ، وفيه بقية من حياته الأولى ، ونزعة من نزعات الشباب يحلق لحيته ولا يبالي ، ويراه السيد الامام مع شدته في أمر الشرع وإنكار المنكر ولا ينهاه عن ذلك لحكمة يعلمها .

وكان الرجل مع صلابته شديد الحب ، قوي الاخلاص للسيد الامام ، ذات يوم فاجأه السيد وقد حلق الجندي لحيته ، فأمر يده على ذقنه وقال في رفق ولطف : يا أخي : ما أملسه من ذقن ! ونفذت كلمة السيد في قلب الرجل نفاذ السهم ، واستحيا في نفسه وسكت .

ولما جاءه الحلاق وأراد أن يحلق لحيته ، قال له الجندي : إليك عني أيها الرجل إن ذقناً قد مسته يد السيد لا تمسه يد حلاق ، وأعفى لحيته منذ ذلك اليوم .

وكان الجندي في فرقة الفرسان مع السيد الامام يوم مهيار ، وكان يمر على الصف وينادي : سووا صفوفكم أيها الاخوان ، وكونوا كالبنيان المرصوص .

---

(١) كان اسمه « كالي خان » وكان من المهاجرين الهنديين .

وبينما هو يطوف على الصفوف إذ جاءتــه قنبلة أصابته في كشحه الأيسر ، فوقع على الأرض جريحاً وأخبروا السيد بالحادثة فاسترجع وتأسف .

وأدركه الناس وبــه رمق ، وحملوه إلى حجرة في مسجد القرية ، ولسانه رطب بذكر الله وهو يسأل مرة بعد مرة لمن كان النصر ، والأمر غمة لا يدري من المنتصر ، حتى أسفرت الحرب عــن انتصار السيد الامام وانهزام الأعداء ، فأخبروه وبشروه بالنصر فقال : « الحمد لله الحمد لله » وفاضت نفسه .



وفي سبيل الله ما لقيت

شاب في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره ، وهو قريب العهد بالعرس ، قتل أبوه [1] في معركة قريبة ، فما رؤي مسروراً ضاحكاً منذ ذلك اليوم ، وسمعه الناس يقول لأصدقائه وأترابه : إن شهدت معركة شفيت نفسي وقتلت في سبيل الله .

أخبروا السيد الامام بكلمة السيد موسى [2] وهو ابن ابن أخته السيد أحمد علي الشهيد ، فأحب أن يكون معه حتى لا يتهور ولا يأخذه طيش الشباب ، فقال له : أعط فرسك رجلاً آخر ، وكن معنا يا ولدي ، ولكن الشاب سأل جده أن يتركه وشأنه ، وأن يسمح له بأن يكون في فرقة الفرسان تحت قيادة الضابط عبد الحميد خان فأذن له السيد ، وعرف عزيمته .

ولما أقبل العدو في ساحة مهيار ، وهجموا على المجاهدين رفع الفارس الشاب عنان فرسه ، وغاص في صفوف الأعداء وخرقها ووضع فيهم السيف : يقتل ويجرح حتى شج رأسه وانخلعت كتفاه ، ووقع على الأرض جريحاً .

---

(١) هو السيد أحمد علي ابن أخت السيد الامام قتل في وقعة « بهلرا » كما مر في فصل سابق.
(٢) كان اسمه حسن المثنى واشتهر بموسى في عشيرته تخفيفاً على عادة الهنود .

يقول خادي خان : بينما أمـــر إذ سمعت صوتا من بعيد ، كأن قائلا يقول « الله الله » ولما دنوت عرفت أنه السيد موسى وقد سال دم الرأس إلى الوجه ، فأطبق عينيه ، فدنوت من الجريـح ، وقلت له يا موسى : أأحملك وأنقلك إلى مكان ؟ قال من أنت ؟ ولمن كان الفتح ؟ قلت أنا خادي خان وقـــد فتح الله لسيدنا الامام ! قـــال « الحمد لله » ونشط قليلاً وقال : دونك ! فحملته على ظهري ونقلته إلى القرية .

يقول السيد جعفر علي : ذهب السيد ليعود سبطه الشاب المغامر فجلس إليه وقال : إن ولدي أبدى من الفتوة والفروسية مـا لم يكن في حساب ، ووفى نذره ، وأرضى به ، ثم خاطبه بقوله : حمداً لله وشكراً له أن يديك ورجليك قد أصيبت في سبيل الله ولقد قال القائل قديماً :

هل أنت إلا إصبع دميت ... وفي سبيل الله ما لقيت

وكان سعيك مشكوراً ، وعملك مبروراً ، وإياك أن تحسد شابا يركب جـــواده ويركض ركضـاً ، ويوجف [1] في السير ، ولا تذهب نفسك عليـه حسرات وتقول ، لو كنت سليماً صحيح البدن ، موفور القوة لكنت فارساً في الميدان ، مشاراً إليه بالبنان ، فانه لا محل لهذه الحسرة ، ولا داعي إلى الغبطة ، فان الله تعالى قد تقبل يديك ورجليك ، وياليد ورجل تصاب في سبيل الله ، وتستخدم لرضـــا الله ، وإياك أن تنظر إلى بطـل ملاعب بالسيوف والأسنة بحسرة وغبطة ، وتحزن على أن لا سبيل لك إليه ، فان القوائم السليمة يخشى عليها من التورط في معصية ، ولكن أطرافك قد ادخرت عند الله . وأمنت من اقتراف ذنب أو تلوث بمعصية ، ولك أسوة في سيدنا جعفر الطيـــار بن أبي طالب ، فلما أصيبت عضداه في سبيل الله لقب بذي الجناحين يطير بهما في الجنة ، وعوض عنهما بعضدين من زمرد .

---

(١) أوجف الفرس : جعله يعدو عدواً سريعاً ، والوجيف : العدو السريع .

قال الفتى الجريح السيد موسى : إنني أحمد الله بألف لسان ، وإن قلبي يفيض بالحمد والشكر ، ولا أجد في نفسي لله موجدة ، وقد رافقتك لهذه الغاية ، وقد نلتها ، ولكن لي أمنية واحدة ، وهي أن تشرفني بلقائك كل يوم، فإنني قد حيل بيني وبينه لما أصابني من الجروح والتعطل ، ولست أحزن إلا على هذه الخسارة .

هنالك قال السيد لأحد أقاربه، إن هذا إليك ، فإذا رأيتني فارغاً ذكرتني بذلك فأزوره وأقضي معه بعض الوقت وأثنى عليه ودعا له .

ومات السيد موسى من أثر هذه الجروح وبلغ السيد نبأ وفاته ، وهو في طريقه إلى « بالا كوت[1] » .



(١) كما سيأتي قريبا .

النظرة الايمانية والعقل المؤمن

رجع المسلمون من ساحة القتال في « مهيار » ظافرين،وقد اغبرت وجوههم وثيابهم بالنقع ، حتى تقنعت وجوههم وتنكروا .

وقام الرئيس بهرام خان بالمنديل لينفض النقع عن وجه السيد الإمـــام ، فقال السيد مهلاً يا أخا الأفغان ، فان هذا النقع هو الغبار الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم[1] » وما جئنا إلى هنا،وما تحملنا المشاق إلا لأجل هذا الغبار،فمهلاً يا أخا الأفغان مهلاً !

ومكث المجاهدون ولم ينفضوا عنهم الغبار في ذلك الحين .

وصلى المجاهدون الظهر وحسر السيد رأسه[2]، ودعا دعاءاً طويلاً أكثر فيه من الحمد لله والثناء على قدرته وربوبيته ، وعظمته واستغنائه ، ومن إظهـــار الافتقار والبراءة من كل حول وطول ، والاطراح على عتبة عبوديتـــه ، وكانت دموعـــه تجري غزاراً حتى اخضلت لحيته ، وكذلك كان شأن النـــاس ، ومكث برهة بعد الدعاء ، ثم توجه إلى « تورو » وصلى العصر هناك .

---

(١) في السنن .

(٢) كان من عادة السيد ان يحسر رأسه في اكثر الاوقات في الدعاء اظهاراً للذل والافتقار ، وليس من السنن الثابتة في الدعاء ولا من آدابه .

وجيء بالشهداء للدفن ولم يغسلوا ودفنوا في ثيابهم ، وقـال الشيخ محمد اسماعيل غطوا وجوههم بعمائمهم ، وانظروا إذا كان في ثيابهم وفي جرابهم نقود تأخذونها ، ونزل أحد المجاهدين في القبر ، وغطى وجوههم ، وفتش عن مناطقهم وثيابهم ، وقام بعض الناس فمدوا رداء، وأهال الناس التراب عليهم، وقام الشيخ اسماعيل فدعا لهم بالمغفرة ، وقد غلب الناس البكاء ، وهم يقولون لقد بلغوا منيتهم ونالوا وطرهم ، وجعل الله لنا نصيباً من هذه الشهادة ، وأذن للمغرب وصلى الناس ، ودعا السيد للشهداء بالمغفرة ، ودعا لنفسه وللمجاهدين بالرضا والقبول ، والشهادة في سبيل الله وبالاخلاص في كل عمل ، وللاسلام بالقوة ، والانتشار والازدهار ، ولأعداء الاسلام بالذل والهوان ، ولضعاف الايمان من المسلمين ، بالهداية إلى الصراط المستقيم ، وبعلو الهمة في نصرة الدين .

وهنالك قال أحد المجاهدين لقد بلغ عدد الشهداء إلى أربعين وجرح كثير، وكان لكل بلد نصيب من هؤلاء الشهداء والمجروحين ، ولكننا لم نر من إخواننا من أهل « بهلت[1] » من أكرمه الله بالشهادة، والجراحة في سبيل الله إلا الشيخ عبد الحكيم البهلتي ، قال السيد : رفقاً يا أخي باخواننا البهلتيين ، لا تصبح عينك،فعسى أن يكرمهم اللهبالشهادة في مكان واحد،ويدفنون في مكانواحد.

هكذا كان ، فقد استشهدوا جميعاً في معركة « بالا كوت » الأخيرة ، وما عاش منهم إلا الشيخ ولي محمد ، والشيخ وزير ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « رب أغبر أشعث لو أقسم على الله لأبره[2] » .

---

(١) « بهلت » قرية كبيرة في مديرية مظفر نكر في الولاية الشمالية ، نهض منها علماء كبار وكان فيها للسيد محبون وأنصار .

(٢) حديث صحيح .

فتح بشاور

وآن أوان فتح « بشاور » عاصمة الحدود الشمالية الغربية ، وأكبر مدينة بين « كابل » و « لاهور » وقد قامت الحجة على سلطان محمد خان الذي زحف على المجاهدين بجيشه اللجب[1] ، وحاربهم حرباً شعواء[2] ولم يأل فيهم إلا[3] ولاذمة ، ولم يراع حقاً ولا حرمة أهدر بذلك كرامته وفتح الطريق لفتح « بشاور » .

وتوجه السيد بجيش المجاهدين إلى « بشاور » ، وكان راكباً على فرسه في فرقة الرجالة ، وخلفه وأمامه فرقة الفرسان ، وكانت في الجيش ثلاث رايات تخفق في الفضاء ، وكان الشيخ رحمن علي ينشد نشيد الجهاد الذي نظمه الشيخ خرم علي بأعلى صوته وفي لحن شجي يأخذ بمجامع القلوب .

وقضى السيد في « مردان » ليلتين ثم سار متوجهاً إلى بشاور وشكا إليه بعض أهل القرى أن جيش « بشاور » اعتدى عليهم وعاث في أرضهم فساداً وهم مسلمون خاضعون لحكمهم ، وقد أغرق الدرانيون السفن التي عبروا بها

(١) الكثيف العظيم ، يقال جيش لجب أي ذو جلبة وكثرة .
(٢) حرب شعواء متفرقة ممتدة .
(٣) الال العهد .

النهر لئلا ينتفع بها المجاهدون وعبر المجاهدون نهر « سوات » من أحد معابره ، وأقام في « متة » وكان أهلها مسرورين بقدوم هذا الجيش، إنه يشتمل على نحو سبعة آلاف جندي بين فارس وراجل ، وقد نزل بأرضنا ، ولكن لا اعتداء ولا ظلم بعكس الجيش الدراني ، فانه إذا ورد منه اثنان غادرنا بيوتنا ، وخرجنا إلى الجبال ، وهكذا لم يمر الجيش بموضع إلا ورحب به أهله، وحمدوا الله على قدومه ، وشيعوه إلى مكان بعيد ، وكان الناس بين رجال ونساء يقومون على حافتي الطريق ويحيون السيد تحية طيبة ، ويتبركون به .

وجاء عمد[1] القرى ودهاقينها[2] إلى السيد ، وسألوه أن يتسلم حكومة « بشاور » وسألهم السيد عن عادة الدرانيين في الجباية ، فقالوا انهم يأخذون نصف الحاصل والحبوب ، ويلزمون أهل القرية تكاليف الكتاب والكيالين والحرس ، فلا يبقى عند الرعية إلا ثلث الحاصل ، وقال السيد يكفي الرعية أن تدفع إلينا ثلث الحاصل نقداً ، والامام مسؤول عن جميع النفقات، والأمور الادارية ، ولا سخرة عندنا ، فإذا استخدمنا أجيراً ، أو شغلنا رجلاً دفعنا إليه أجره ،ولكنه يجب على رؤساءالقرى وملاكها أن يضيفوا العامل على الصدقات، والجابي ، ويعتبروه أخا لهم ، ولكن لا يجوز له أن يقترح شيئاً ، فإذا فعل حوسب . وشكا إليه بعض أهل الجيش من أن الدرانيين صادروا أملاكهم واستولوا عليها ،وقدموا الصكوك والوثائق، فردت إليهم أملاكهم وضياعهم .

ولما دنا الجيش من « بشاور » بلغ السيد أن سلطان محمد خان قد أرسل أسرته إلى « كوهات[3] » ولجأ بجيشه إلى قرية قريبة ، وهنالك جاء « أرباب فيض الله خان » رسولا من سلطان محمد خان يخبره بأن سلطان محمد خان نادم

---

(١) جمع عمدة ، ما يعتمد عليه ويتكأ .
(٢) دهقان ج دهاقنة ودهاقين ، رئيس اقليم ، وهو كبير القرية والمسؤول عنها .
(٣) مدينة جبلية في الحدود الشمالية الغربية ثكنة عسكرية كبيرة في باكستان اليوم .

على عمله ، مقر بخطأه، يسأل السيد أن يسامحه ويصفح عنه، ويرجع إلى مركزه، ويقول : لو أن رجلاً من الكفار أسلم لقبل منه إسلامه ، وأنا مسلم وسليل المسلمين ، معترف بخطأي ، أتوب من ذنبي ، وسأظل وفياً للسيد ، مطيعاً له مدة حياتي ، قال السيد لا بد من دخول « بشاور » وسندخل « بشاور » غداً بإذن الله ، ونستخلفه فيها ، إذا تحقق صدقه ووفاؤه ، فإنا لم نقبل إلى هذه البلاد ، إلا لنجمع كلمة المسلمين،ونقاتل أهل الكفر والمفسدين « ولتكون كلمة الله هي العليا » أما إذا انصرفنا من هنا لم يعترف سلطان محمد خان بفضل أو منة ، بل نسبه إلى وهن فينا ، أو خوف ، أو رعب .

أصدر السيد الامام تعليمات صارمة إلى الجيش ، وقال : سندخل اليوم بإذن الله في « بشاور » فلا يعتدين أحد على أحد ،وليلتزم الجيش الآداب الاسلامية والتعليمات النبوية بكل دقة وصرامة ، فان سلطان محمد خان قد مد يد الصلح ، وإن أهل البلد في ذمتنا ، وفي جوارنا وحمايتنا .

وأعلن مسير الجيش ، وأخذ المجاهدون أهبتهم ، وأذن للعصر ، وصلى الناس ، ودعا السيد ، وسار إلى « بشاور » وكان الرجالة أمامه ، وفرقة الفرسان خلفه ، ودخل الجيش في « بشاور » وقد أغلق الناس دكاكينهم ، وأقيمت السقايات للسابلة، وكان في بعضها الشراب المحلى ،وأنيرت المدينة فرحاً بدخول المجاهدين وقد غمر الناس سرور عام ، وأبدوا فرحهم واستبشارهم بدخول هذا الجيش المبارك وانطلقت الألسن بالدعاء والثناء .

ونزل السيد بجيشه في « الخان[١] » القديم ، المعروف بـ « كول كتهرى » وعين الحرس ، وأخذ الجيش حذره ، حتى لا يؤجد على غرة ، ونصب الحراس على الطرق والدروب والحارات ، وصلى السيد الفجر في منزله الذي نزل فيه ،

---

(١) محل نزول المسافرين .

ودعا الله ، وأرسل إلى التجـار ، وأصحاب الدكاكين أن يفتحوا دكاكينهم ، وأن لا خطر عليهم ، فلا ظلم ولا اعتداء ، وفتحت الدكاكين ، وعادت الحياة إلى النشاط والهدوء ، والمدينة إلى الحركة ، واختفت البغـايا والمومسات ، وغادرن البلد ، وإذا قصد إحداهن أحد الفساق ، حذرته وخوفتـه من جيش المجاهدين ، وأن لا مطمع في ذلـك اليوم ، وغلقت الحانات ، ومراكز السكر والدعارة ، وتغيب زبائنها ، وأصـدر السيد تعليماً صارماً إلى الجيش أن لا يقتطف أحد في الجيش فاكهة في بساتين « بشاور » ولا يقتطع ثمارها .

وظل الجيش جائعاً يومين كاملين ، وبات طاوياً [1] ، وقد كانت في المدينة مخازن للحبوب ، ولم يطمح إليها الجيش ، ولم يمد إليها يد النهب والغارة ، وقام « أرباب بهرام خان » فاستدان الصرافين في البلد ، واشترى الدقيق من عـدة دكاكين ، وأمر أصحاب التنانير أن يخبزوا الخبز ، ودفع إليهم أجرتهم وأكل الجيش الطعام بعد يومين ، وكان كثير من الناس يتحدثون في الطريق عن فواكه « بشاور » ويمنون أنفسهم بهـا ، ويقولون إذا دخلنا « بشاور » أخصبنا ، وتوسعنا في المطاعم والمشارب ، فـ « لبشاور » بلد الخيرات والطيبات معروفة بجودة رزها ولحوم النعاج والخروف ، فنطبخ ونأكل وننعم ، ولما طال عهدهم بالطعام ، فما وجدوه إلا في اليوم الثالث ، قالوا هذا عقاب استرسالنا في الأماني والأحلام ، واتباعنا غير سبيل المجاهدين المتقشفين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وكمن جزء من جيش الدرانيين وترصد لجيش المجاهدين يريد أن يغير عليهم على غفلة ، ولكنه لم يجد فرصة للاغارة ، وتفرق جيش سلطان محمد خان خوفاً من جيش المجاهدين ، وتعلل أكثرهم بعذر أو حاجـة ، ولجأووا إلى قراهم ، ولم يجـد سلطان محمد خان سبيلا إلى الحرب ، وقرر الاستسلام والخضوع ، فأرسل أحد خاصته ، وهو « أرباب فيض الله خان » إلى السيد ، وكان من

---

(١) جائعاً لم يذق طعاماً .

المخلصين للسيد ، قد بايعه ، وكان وفياً ناصحاً لصاحبه سلطان محمد خان أيضاً، وكان صاحب أمانة وصدق ، فاستأذن السيد في الدخول ،والكلام معه ،وبلغه رغبة سلطان محمد خان في المصالحة والطاعة ، وأنه نادم على فعلته التي فعل ، مقر بخطأه ، عازم على التوبة والاصلاح .

وحكى السيد الحكاية بطولها ، وما ظهر من سلطان محمد خان وأخيه من الغدر والنفاق ، وتقليب الأمور ، وتربص الدوائر بالمجاهدين ، والزحف السافر الوقح ، والحرص الشديد على استئصال شأفتهم ، وأنه لا ثقة بوعده وحلفه ، وأنه يتلون كالحرباء ، ويهب مع الرياح ، ويدور مع مصالحه ، ويخضع لأغراضه، وأنه يريد بهذا الطلب للصلح أن يخرج من هذا المأزق [1] ، ثم يعود إلى ما كان عليه من عداء ، وحرب وكيد ، وأنه لا شأن لنا بـ « بشاور » أو « كابل » ولم نجيء لننتزع ملكا ، أو نستولي على بلد ، إنما جئنا لاعلاء كلمة الله ، وتطبيق شريعة الاسلام وأحكامه ، وليكون للاسلام عز وغلبة ، فاذا تحقق لنا صدقه ووفاؤه ، وتاب عما نهى الله عنه ورسوله ، وكف عن موالاة الكفار ، ووالى المسلمين لم يجد منا إلا ما يسره .

وبلغ « أرباب فيض الله خان » رسالة السيد إلى صاحبه ، ونقل له كلامه حرفياً ، وأبدى « سلطان محمد خان » ندمه ، وأبدى عزمه على الطاعة ، وعلى قطع كل صلة عن الثوار والكفار ، وعن ولائهم ، وعلى مشاركة المجاهدين في الجهاد ، وطلب أن يأذن له السيد باللقاء ، فيجدد البيعة على يديه ويتوب عن كل ما نهى الله عنه ورسوله ، وأبدى استعداده لتقديم التعويض المالي ، وكل ما كلف الجيش في هذا المسير غرامة على نفسه ، وقال إنه مستعد لتقديم أربعين ألف روبية يدفع منها عشرين ألفاً نقداً ، وعشرين ألفاً بعد وصول السيد إلى مركزه .

---

(١) المأزق ، المضيق ومكان الحرج .

وشاع في الناس أن السيد يريـــد تسليم « بشاور » إلى سلطان محمد خان ، وفزع الناس ، وجاء بعض أعيان البلد إلى الشيخ محمد إسماعيل ، وقالوا له ، لقد فرحنا بدخول السيد في « بشاور » وحمدنا الله على أنـــه أنقذنا من براثن الظالمين ، ولكن أخبرنا أنـــه يعيدنا إليهم ، وأشار عليهم الشيخ محمد إسماعيل بأن يستعينوا في ذلك بـ « أرباب بهرام خان » فزاروه وأبدوا له عدم ارتياحهم وقلقهم من هذا الخبر ، وبلغ « أرباب بهرام خان » رسالتهم إلى السيد أن أهل البلد يخافون أن تشتد وطأته عليهم يبطش بهم إذا رجع جيش المجاهدين ، لأنهم فرحوا بقدومه ، ووالوه ،وذكر أن أهـل البلد مستعدون لتقديم مئات آلاف من الروبيات إلى الجيش ليصلح بها شأنه ، ويستعين بها على الحرب ، والدفاع ، وأنهم يشكون في امانة سلطان محمد خان وصدقه ، وذكر له أنه إذا كان لا بد من تسليم البلد فليسلمه إليه ، فانه جدير بثقته واعتماده ، وأنـه من أبناء هذه البلاد يعرف طبائع أهلها ، وأوضاعهم ، وأنـه يستطيع أن يسوس البلاد ويضبط الأمور ، ويواجه الطوارىء .

سمع السيد مقالته في هدوء ، وسكت هنيهة ، ثم تكلم فشكره على نصحه وإخلاصه ، وأثنى عليه ، وقال : إن ما أعلمه من حقيقتهم ، وما شرح الله له صدري ، وفتح علي به من معرفة كنههم ، وما تخفيه صدورهم هو أعظم مما علم الناس وتكلموا به ، ولو علموا ما جهلوه ، وفصلوا ما أجملوه لحاروا ودهشوا ، ولكننا يا أخي لم نهجر الأهل والوطن ، ولم نتجشم الخطوب والمحن ، ولم نركب الأهوال ، ونجازف بالنفوس والأرواح ، إلا لنعمل ما فيه رضا الله ، لا نخاف في ذلك لومة لائم ، ولا رضا مخلوق ، ولا سخط ساخط ، فلا قيمة عندنا لشيء من ذلك ، ولا يزن عندنا جناح بعوضة ، وإن عملنا بقول الشاعر :

فليتك تحـــلو والحيـــاة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبـــين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب [١]

إن الذين لا يعرفون الحقيقة يعتقدون أننا أقبلنا طالبين للدنيا ، راغبين في ملك وسلطان ، لقد جهلوا الحقيقة وجانبوا الصواب ، ولم يعرفوا حقيقة الاسلام ،ولسنا أهل حقد وثارات ، وضغينة وترات [٢] ، لقد طهر الله نفوسنا عن الحسد والبغضاء ، والحقد والشحناء ، وقد وفقنا لنحسن إلى من أساء إلينا، ونصل من قطعنا ، ونعطي من حرمنا ، ونجزي السيئة بالحسنة ، والشدة بالرحمة ، والجريمة بالعفو والصفح ، وإن لم نفعل ذلك فنحن أسرى نفوس ، وعباد شهوات ، لا فرق بيننا وبين الملوك الزاحفين ، والقادة الفاتحين إذا احتلوا بلاداً ونزلوا في أرض لم يتنازلوا عنها ، ولم يصرفهم عنها صارف ، ولم يعملوا فيها بحكم الله ، وإن هذا الجهاد الذي نعلنه ، ونقيد نفوسنا به ، لا شأن له باتباع الهوى ، وبطريق الملوك والسلاطين في الفتح والتسخير ، والاستيلاء والاستعلاء ، أما إشفاق أهل البلد من تنكيلهم بهم ، وبطشهم ، فلا محل له فانهم قوام ملكهم وعماد سلطنتهم ، وبهم عمران بلادهم ، فكيف يخربون بلادهم بالقضاء عليهم ، واستئصال شأفتهم ، وهل يبيد صاحب الجنة جنته ، ويجعلها قاعاً صفصفاً [٣] ، وهل يهدم صاحب البيت بيته ، ويجعله خراباً بلقعاً [٤] ، أما تقديمهم لمئات آلاف من الروبيات لنقيم بها أودنا [٥] ، ونصلح

---

(١) الأبيات للشاعر العربي ، والأمير الفارس أبي فراس الحمداني ، خاطب بها ابن عمه سيف الدولة ، وقد تمثل بها كبار الصالحين ، والائمة المصلحون كالشيخ عبد القادر الجيلي ، والشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وإنما أوردناها هنا على لسان السيد ، فهي خير ما تمثل فكرته : وتعبر عن غايته وعقيدته .

(٢) انتقام وظلم .

(٣) مستو مطمئن .

(٤) البلقع ، الأرض القفر .

(٥) الاعوجاج .

بهـا شأننا ، فانه لا شأن لنا بها ، فاننا لا نفعل ما نفعل إلا طمعاً في رضـا الله وثوابه ، وإنا لا نبالي بعد ذلك هل أقبل الملك، أو أدبر عنا ، أو رضي الناس، أو سخطوا علينا .

وإذا كان سلطان محمد خان قد ندم على فعلته ، وتاب من ذنوبـه ، وقبل جميع أحكام الشرع ، ووعد بأنـه لا يعود إلى الثورة ، والعصيان ، ويريد أن يصفح عنه ويمنح فرصة أخرى للاصلاح والتدارك ، كيف يسعنا أن نرفض طلبه ، ونشك في نيته ، وقد أمرنا بالعمل بالظواهر ، وأن نكل السرائر إلى الله ونحكم بعلمنا بما يأمر به الشرع في مثل هذا الحال ، وأي حجة لنا عند الله إذا رفضنا كلامه ، وإنني مستعد بحول الله أن أعدل عن رأيي إذا أقنعني أحد العلماء الراسخين ، وقامت عليه الحجة الشرعية ، فاننا لم نؤمن إلا بالله ورسوله ، ولا نتحاكم إلا إلى الشريعة والكتاب والسنة .

يقول الراوي الذي شهد المجلس ، إن السيد كان يتكلم ، وكأن غاشيـة من السكينة والرحمة الالهية تغشانا ، وقد أجهش « أرباب بهرام خان » وأخوه « أرباب جمعه خان » من البكاء ، وقد ذهلا عن أنفسهما ، وبقيا مدة في سكوت وإطراق ، ولما انتهى السيد من الحديث ، قال « أرباب بهرام خان » إن كلامه كله حق وصواب ، وقـد ذقنا طعم الاسلام ، وحلاوة الايمان في هذا الوقت ، وعرفنا أننا بمعزل عـن معرفة حقيقة الاسلام ولبابه ، والتفاني في رضا الله ، والاصاخة [١] لأمره ، والتجرد عن الأنانية ، والانسلاخ عـن غوائل النفس ومكائد الشيطان ، وهأنذا أتوب على يدك ، وأبايعك من جديد وادع الله لي .

وزار السيد وفد من التجار الكبار من المسلمين وغير المسلمين ، وتقدم منهم هندكي اسمه « بدهرام » وقد حمل عدة سلال من فاكهة ، ومالا كثيراً ، وتكلم

---

(١) أصاخ له واليه ، أصغى واستمع .

مع السيد ، وأبدى استعداده واستعداد زملائه لتقديم نفقات الجيش وما يستعين به من أموال ونقود ، وأنه يستطيع أن يستخدم من شاء للخدمة العسكرية ، ويقاتل بهم أمراء « بشاور » وحاكم « لاهور » وشرح السيد له فكرته وعقيدته ، ومقاصده من هذا الجهاد ، وانقياده لأوامر الله تعالى ، وما ورد في الشرع في شأن التوبة والتائب ، وما يجب على المسلمين إذا غزوا قوماً ، أو زحفوا على بلد من إنذار ، وإقامة الحجة والتخيير بين الاسلام والجزية والقتال ، فاذا كان ذلك في شأن الكفار ، فكيف في شأن المسلمين .

وسمع تاجر « بشاور » حديث السيد في هدوء واحترام ، واعترف باخلاص السيد وحسن طويته وصفاء سريرته ، وسمو نفسه ، وأنه من طراز إنساني خاص لا يبلغ غوره ولا تكتنه حقيقته ، وأنه لا يصح قياسه على الملوك الفاتحين ، والقادة الطامحين الذين عرفهم وعرف كيف يخاطبهم ، وأما السيد فانه لا يعرف لغة ضميره ومنطقه الايماني إلا مؤمن رسخ في الدين وذاق حلاوة الايمان ، فأذعن له بالطاعة والاجلال ، وانصرف عن مجلسه حائراً مدهوشاً (١) .

---

(١) لقد كانت قضية التنازل عن بشاور ، ومنحها لسلطان محمد خان الذي تولى كبر معارضة السيد ومحاربته ، مشكلة حار في تعليلها كثير من المؤرخين المدافعين عن هذه الحركة وقائدها ، فرأى بعضهم أنه كان تسرعاً في الحكم وخضوعاً زائداً للعاطفة النبيلة ، والكرم الأصيل الذي طبع عليه وأنه كان في ذلك تابعاً لسياسة جده سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه التي تقوم على المبادىء والأخلاق ، وكان خليقاً بأن يتبع فيه سياسة سيدنا معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) التي تقوم على أصول الحكم .

ويرى بعض من تعمق في معرفة الاوضاع السائدة في ذلك العصر ، أن السيد اتبع في ذلك سياسة رشيدة عملية لا مغمز فيها ، وأنه كان عملياً أكثر منه خيالياً ، وأنه إذا اتبع الخط المعاكس لذلك ، فبقي مستولياً على بشاور ، أو ولاها أحد خاصته لم تختلف النتيجة اختلافاً كبيراً ، وكان نفس المصير ، وقد قال لي بعض الثقات الذين لهم اختصاص في معرفة طبائع الافغان ، واطلاع واسع على ما كان يجري في ذلك العصر ، وعاشوا في أفغانستان زمناً طويلا ،

أن السيد كان بعيد النظر ، عميق الفكر في هـذا المشروع ، فان أسرة « بائنده خان » التي كانت مسيطرة على بـلاد الافغـان والحدود الشمالية ، وكانت لهـا عصبية ليست لاي قبيلة في أفغانستان لم تكن لتحتمل أي حاكم بشاور غير سلطان محمد خـان كبير الاخوة وزعيمها ، ووالي بشاور من زمن طويل . فأذعن السيد للأمر الواقع ، وجمع بين الاخلاص ، والتجرد عن الاثانية ، وحب الملك ، وبين السياسة العملية ، واختيار أفضل الطرق في ذلك الوقت ، وفي تلك الظروف والملابسات الدقيقة المعقدة ، ولا يعـلم الغيب إلا الله ، وكل مجتهد يخطىء ويصيب . ويعجبني بهذه المناسبة ما قاله الاستاذ عباس محمود العقاد في الحـكم على مواقف سيدنا علي بن أبي طالب ونقد الناس لها .

« والذي يبدو لنا نحن من تقدير العواقب على وجوهها المختلفة أن العمل بغير الرأي الذي سيق إليه لم يكن مضمون النجاح ولا كان مأمون الخطر بل ربما كان الامل في نجاحه أضعف والخطر من اتباعه أعظم » .

وقوله : — « هـل خطر لاحد من ناقديه في عصره أو بعد عصره أن يسأل نفسه ا كان في وسع على أن يصنع غير ما صنع » ؟ .

(عبقرية علي بن أبي طالب)
للاستاذ العقاد



هبة ملك ومنحة دولة

طلب سلطان محمد خان أن يجتمع بالسيد ويلقاه ، واجتمع رأي أهل الرأي من الجيش ، أن يكون أول لقاء بين والي « بشاور » وبين الشيخ محمد إسماعيل حتى يكون الشيـــخ على بينة من أمره ويتثبت من نيته وقصده ، ووافق على ذلك السيد الامام واستحسنه .

وهكذا كان ، فتلاقيـا للمرة الأولى في مـــنزل « أرباب فيض الله خان » في قرية « هزار خاني » من ضواحي « بشاور » ومع كل أربعون وخمسون رجلاً من رفاقهما ، وأخذ كل واحد منهما بالاحتياط ، وقد شاعت الأخبار بسوء نية سلطان محمد خان ، وأنــه يقصد غيلة أو خديعة ، وتاب سلطان محمد خان على يد الشيخ وبايعه الشيــخ نيابة عن السيد ، وتلاقيا مرة ثانية في نفس المكان ، وسأل سلطان محمد خان أن يلقي السيد الإمام فقبله السيد .

وصلى السيد والمجاهدون ثلاث جمعات في المدينة وقـــام الشيخ مظهر علي العظيم آبادي ، فألقى موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، وعـــلا النشيج[١] والبكاء ، وكانت موعظته تدور حول الدعوة إلى الجهاد، وكان يلقيها بالفارسية

---

(١) النشيج : الصوت مع البكاء ونشجت القدر : غلت فسمع لها صوت.

والأردية ، وعين الحافظ عبد اللطيف ، وخضر خان القندهاري على الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فطافا بالبلد وأحيائه ومساجده ، ودعوا الناس إلى إقامة الصلوات والمحافظة عليها ، والتزام الجماعة .

وجاء اليوم الموعود للقاء سلطان محمد خان ، وأخذ المجاهدون حذرهم ، وعين « رحبة هزار هاني » للقاء ، واستعرض الشيخ محمد اسماعيل المحل ، وأخذ بالحيطة[1] وتأهب لجيش المجاهدين ، وسيق إلى الميدان ، وتوضأ السيد وجمع عليه ثيابه وتسلح ، وصلى ركعتين في مسجد الخان ، وقلده كثير من المجاهدين ، ثم دعا دعاء مبتهل ، والناس في ذهول ، ثم ركب جواده ، وتقدم إلى الميدان ، وقد خرج آلاف من أهل « بشاور » ينظرون إلى هذا اللقاء التاريخي ، وصلى السيد الظهر هناك ، وتقدم سلطان محمد خان في رهط من أصحابه ، ونزل السيد عن الفرس ومشى إليه راجلا ، ومعه الشيخ محمد إسماعيل و « أرباب بهرام خان » وتقدم سلطان محمد خان مشياً على الأقدام ومعه « أرباب فيض الله خان » وأحد ندمائه اسمه « مراد علي » وتبادلا التحية ، وتصافحا .

وافتتح السيد الحديث ، وقص على سلطان محمد خان قصة وروده في هذه البلاد ، وما جرى له ، وللمجاهدين وما كان منه ومن أخيه من نقض للعهد ، وتقليب للأمور وموالاة للكفار ، وسأله عن السر في ذلك ، وما حمله عليه ، واعتذر سلطان محمد خان واعترف بأخطائه ، وقدم إلى السيد سجلا ملفوفاً ، وقال : ستعلم إذا تصفحت السجل السبب فيما كان بيننا من سوء تفاهم ووحشة وتوتر ، فإذا به محضر عليه توقيعات كثير من علماء الهند ، وأبناء المشايخ ، ومغزاه : إننا نخبركم يا أمراء بشاور ! أن رجلا يدعى بالسيد أحمد ، قد جمع حوله لفيفاً من علماء الهند وتوجه إلى بلادكم في جماعه كبيرة من أتباعه ، يعلنون الجهاد في سبيل الله ، ويضمرون الكيد والخديعة ، إنهم خالفوا ديننا ،

---

(١) الحيطة اسم من احتاط .

ودين آبائنا ، واخترعوا ديناً جديداً ، إنهم لا يرون لولي من الأولياء ، ولصالح من الصلحاء فضلاً وحقاً ، بل يذمونهم وينكرون عليهم ، وإنهم جواسيس الانجليز وعيونهم ، قصدوا بلادكم لاستطلاع شؤونها وأوضاعها ، فإياكم أن تنخدعوا بهم وتقعوا في شباكهم ،فإن في ذلك ذهاب ملككم ،وزوال سلطتكم ، وقد بذلنا لكم النصيحة ونبهناكم على الخطر ، وستندمون إذا فرطتم في هذا الأمر ، ولا ينفعكم الندم .

ولما قرأ السيد هذا المحضر أخذته الدهشة والاستغراب ، وقال السلطان محمد خان : إن في الهند جماعة كبيرة من العلماء المحترفين ، والشيوخ المتكسبين الذين اتخذوا العلم والطريقة صناعة ووسيلة للمعاش ، يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله ويغالون في تقديس المشايخ ، ويتخذون قبورهم أوثاناً تعبد وأعياداً تقصد ، ويرون ذلك ديناً وشريعة ، ولا يميزون بين حلال وحرام ، وكفر وإيمان ، وتوحيد وشرك ، ولما هدى الله بدعوتنا وموعظتنا مئآت ألوف من الناس ، وتمسكوا بالدين الخالص ، والسنة الصريحة المحضة ، كسدت سوق هؤلاء المحترفين ، وركدت ريحهم وزهد فيهم أهل الحق ، وانصرف عنهم الناس ، ولما عجزوا عن مقاومة هذه الحركة المباركة ، وعن الصد عن سبيل الله تشبثوا بالبهت والافتراء ، والتقول والارجاف ، وكتبوا هذا المحضر ، وقد أخطأت خطأ كبيراً إذ لم تخبرنا بأمر هذا المحضر ، وكان في ذلك ضرر على دينك ودنياك ، ولو كنت فعلت لبينا لك الأمر ، وأثلجنا صدرك ، وحسمنا الشك والريبة من قلبك ،ولعل في ذلك حكمة خفية لله ، ولف السيد المحضر وقدمه إلى الشيخ محمد إسماعيل ، وقال له : كن ضنيناً بهذا المحضر ، فلا يطلع عليه أحد ، ولا تحدث به أحداً ، فإن في أصحابنا من إذا أطلع على البهت والافتراء ، دعا على هؤلاء العلماء وأبناء المشايخ فلحق بهم الضرر ، وكان وبالا عليهم ، وقد عقدنا النية على أن نحسن إلى هؤلاء المسيئين إذا جمع الله بيننا وبينهم فلا يروا منا إلا ما يسرهم ويرضيهم .

وأقبل السيد على سلطان محمد خان ، وقال له : إن أرباب فيض الله خان قد بلغنا استعدادك لتقديم أربعين ألفاً من الروبيات تعويضاً لجيش المجاهدين ووعدت بذلك ، فلا تشغل بالك به ، ولا يهمنك هذا ، فقد تنازلنا عنه وتساهلنا لك فيه « ولله خزائن السماوات والأرض » وأنت أخونا في الدين والاسلام ، فلا نريد أن نغرمك ، ونرهقك من أمرك عسراً .

قام السيد بعد ذلك ، وتوجه قافلاً ، وقام سلطان محمد ، وانتهى المجلس ، وطلب سلطان محمد خان أن يعين السيد في « بشاور » قاضياً من أصحابه يحكم بالشريعة بين الناس ، ويعظ في الجمعة ، قال : نحن نطيعه وينتفع الناس بوعظه ونصائحه ، واختار السيد الامام الشيخ مظهر علي العظيم آبادي ، وولاه قضاء « بشاور » وأرفقه برهط من المجاهدين ، ووضع يده في يد أرباب فيض الله خان ، وقال نستخلفه في « بشاور » على طلب صاحبك فاستوص[1] به خيراً .

وأمر السيد جيش المجاهدين بالقفول والعودة إلى معسكره ، ولما دنا الجيش من « بنجتار » استقبله أهل البلاد استقبالاً عظيماً ، وكانوا يغنون الأبيات في مدح السيد ، ويضربون الطبول ، ويأتيه الناس أرسالاً وفي جماعات ، ويطلبون الجوائز ، وكان السيد يجيزهم ولا يردهم إلا مسرورين ، وقد أطلق من بقي من المجاهدين في « بنجتار » إحدى عشرة طلقة من المدافع ، ونزل السيد من الفرس ، وبدأ بالمسجد ، وصلى فيه ركعتين ، وتبعه أكثر المجاهدين ، ودعا دعاءاً طويلاً أمن عليه الناس ، وأذن للناس أن ينزلوا في منازلهم وخيامهم ، ونزل في منزله القديم ، ولما كانت الجمعة خطب الشيخ أحمد الله الميرتهي وصلى السيد بالناس ، وخطب فيهم ومما قال في هذه الخطبة :

« يا إخواني ! إن الله قد نصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ، وانتصرتم على جيوش كبيرة ، وعدو قوي ، وتطاول كثير منكم وقال : لقد انتصرنا في

---

(١) استوصى بفلان قبل وصية من وصى به .

الحرب ، وهزمنا العدو ، فلا يغرنكم هـــذا ، اتقوا الله يا إخواني واخشوه ، وأكثروا من التوبة والاستغفار، إن العظمة لله وحده ، وقد ورد : العز إزاري والكبرياء ردائي فمن ينازعني في واحد منهما فقد عذبته[1] .

هو الذي غلب الضعفاء على الأقوياء ، والفقراء على الأغنيـاء ، وهو مالك الملك يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، لا رادّ لقضائه، ولا معقب لأمره ، يملك أحداً في طرفة عين ، وينتزع منه الملك في طرفة عين ، و « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون[2] » .

(١) رواه مسلم .
(٢) سورة يس الآية ٨٢ .

بين الشريعة الالهية وشرع الناس واعرافهم

لقد نشأت في بلاد المسلمين ومجتمعهم وخاصة في بلاد العجم وفي الأقطار البعيدة عن مركز الاسلام عادات جاهلية وأعراف محلية كانت لها جذور عميقة في العقول والنفوس وتمسك بها المسلمون على مر الأيام كتمسكهم بالشريعة الإلهية والمنصوصات الدينية والواجبات والفرائض الشرعية بل أشد وأقوى وعضو عليها بالنواخذ وتواصى بها الآباء والأبناء وتوارثتها الأجيال بعد الأجيال وتغلغلت في أحشاء الأسر والقبائل فامتزجت بلحومهم ودمائهم حتى أصبح الفصال عنها أشق على النفس من فطام الصبي عن الرضاع، وفصل الرجل المتدين عن الدين وشعائره، وكان لهذه العادات والأعراف كل ما يكون للأديان والشرائع السماوية من قدس وحب، وحمية وعصبية وحماس، يتهالكون عليها ويستميتون في سبيلها ويتعيرون من التهاون فيها والخروج عليها ويتفاخرون بالتمسك بها والمحافظة عليها.

هكذا نشأت شريعة ازاء شريعة، وفقه وتشريع إزاء فقه وتشريع، تزاحم هذه الشريعة البشرية الجديدة الشريعة الإلهية الخالدة بكل قوة وسلطان، وبكل دليل وبرهان، وتريد أن تستولي على مكانها من النفوس والقلوب وعلى رقعتها ومنطقتها من الحياة والعادات وهي تستخدم جميع المصطلحات التي استخدمها علماء الشرع وأهل الدين، ففيها فرائض وواجبات وسنن ومستحبات من خرج

عليها سمي مبتدعاً متبعاً غير سبيل المؤمنين ومن حفظها وحافظ عليها سمي مستقيماً راسخاً في الدين ولذلك قال الله تعالى : « أم لهم شركاء زعموا لهم من الدين ما لم يأذن به الله[1] » وقال : « إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان[2] » .

ولما نبعت هذه الشرائع والأعراف من أهواء النفوس وأغراض الكبراء والأمراء وتجارب الشعب وعامة الناس وقياس بعض العقلاء والأذكياء ، وكان كثير منها من فلتات العقول وسوانح الآراء ولم يكن مصدرها تشريع الحكيم العليم كانت مزيجاً عجيباً من بقايا الجاهلية ونزعات النفوس وقصر النظر وضيق التفكير والشدة والمغالاة والاسراف والتبذير ، أجحفت[3] بحقوق كثير من أعضاء الاسرة وجرت على المجتمع بلاءاً عظيماً وشقاءاً طويلاً ، وأفقدت الدين يسره وبساطته والحياة حريتها وسرورها وأصبحت اصراً وأغلالاً وقيوداً وأصفاداً على المجتمع الذي آمن بهذه الشرائع وتمسك بهذه الأعراف ، يعيش منها في سجن ضيق مظلم ، وفي حياة نكدة منكوبة ، قد أحلوا ما حرم الله وحرموا ما أحله الله ، وضيقوا ما وسعه الله ، فصدق عليهم قول الله تعالى « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار[4] » .

وقد فاقت في ذلك القبائل الأفغانية التي ضعفت فيها الدعوة – لأسباب تاريخية كثيرة – إلى الدين الخالص والسنة المحضة ، واقتصر أكثر علمائها في الزمن الأخير على دراسة كتب الفقه وما إليه والعلوم الآلية والعقلية ، وعرفت

---

(١) سورة الشورى الآية ٢٠ ،
(٢) سورة الاعراف الآية ٧١ .
(٣) الاجحاف : النقص الفاحش والاضرار .
(٤) سورة إبراهيم الآية ٢٨

من القديم بشدة التمسك بالعادات والأعراف وطريـق الآباء والأسلاف ، ترى العدول عنها قيد شعرة مروقا من الدين واتباعاً لغير سبيل المؤمنين [١] ، ونشأت فيها مع تطاول الزمن وتهاون العلماء والمشايخ عادات جاهلية رسخت في الناس وتواضعوا عليها .

فكان ممـــا جرت العادة أن كثيراً منهم كانوا لا يزوجون بنـاتهم إلا إذا تسلموا ممن رغب في ذلك من الشبان والرجال مبلغاً من المال يختلف باختلاف القبائل والمستوى المالي والنسبي حتى يصبحن عوانس [٢] قد تجاوزن سن الزواج ، وقد يتورطن من ذلك في معصية وقبايح أو يضر ذلك بصحتهن ويعشن حيـاة غير طبيعية مرهقة [٣] .

وقد أرسل عـــدد من بنات الأشراف العوانس رسالة إلى السيد الامام على لسان أحد أتباعه من الأفغان وهو أحمد خان كاكا يستغثنه فيها على هذا العرف الظالم والقانون الغاشم ، ويطلبن منه العناية بهـذا الموضوع ومحاربة هـذه العادة الجاهلية ويناشدنه الله أن ينتهز لذلك أول فرصة ، واهتم السيد بهذه الرسالة

---

(١) بقيت هذه القبائل مـــدة طويلة وهي ترى رفع السبابة في التشهد بدعة منكرة وذنباً لا يغفر حتى كان بعض المتحمسين منهم يكسرون سبابة المصلي وهو في الصلاة لما جاء في بعض الكتب الفقهية ـ كخلاصة الكيداني ـ من تحريم رفع السبابة في التشهد .

(٢) عنست الجاريـة ، طال مكثها في بيت أهلهـــا بعـد إدراكها ولم تتزوج فهي عانس ج عوانس .

(٣) وفي بعض المناطق الهنديـة وخاصة في ولاية بهـــار عكس هذه العادة الجاهلية فهنالك يطالب الراغبون في الزواج والمرشحون له من الشباب بمبالغ خطيرة وهدايا وطرف من آباء البنات فـــلا يتزوجون إلا إذا وعدوا بذلـك أو تسلموه ، وأصبحوا يغالون فيـه إلى حـــد الارهاق والتكليف مما لا يطاق ، حتى بدأت تقع حوادث الانتحار لاجل ذلك ، ويفضل كثير من الآباء التخلص من هـــذه الحياة والذل والعار ، وصدق الله العظيم « وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون »

وفزع لها وبقي برهة صامتاً لا يتكلم ثم شكر الرسول وقال : كن على ثقة بأننا سنبذل جهدنا في القضاء على هذه العادة الجاهلية واجتثاثها [1] من هـــذه البلاد وقل لبنات المسلمين إننا سنحارب هذه العادة الجاهلية بكل طاقتنا ولا ندخر في ذلك وسعاً .

وجمع السيد الناس من غـــد ووعظهم برفق وحكمـة وذكر فضل النكاح وأهميته وحاجة الانسان إليه ، وأن قيام السلالة البشرية والمدنيـة الفاضلة والشريعة السمحة بـــه وما في تعطيله أو تأخيره عن أوانه وإحداث العقبات والمصاعب في طريقه واشتراط الشروط المجحفة من مفاسد وقبايح ، وقال : إنكم قد بايعتموني وقبلتم أحكام الشرع وتبتم عـــن جميع المعاصي والمنكرات فعليكم خاصة أن تتوبوا عن هذا المنكر والظلم الفاحش وأن تزوجوا بناتكم في أقاربكم وقبائلكم كما تقول الشريعة ويأمر به الله ورسوله ، وتقلعوا عن هـذه المساومة الظالمة التي ما أنزل الله بها من سلطان وعن هذا التعويض الجاهلي الذي لم يأمر به الشرع .

وكان من هـذه العادات الجاهلية أن كثيراً من الآباء لا يسرحون بناتهم لأزواجهم ولا يخلون بينهم وبينهن حتى يتم ما يجهزونهن به ، وقـد لا يتحقق ذلك ولا يتيسر لهم هـــذا الجهاز سنين طوالا فيبقين في بيوت آبائهن معطلات معلقات لاهن من ذوات الأزواج ولامن الأيامى [2] وشكى إلى السيد كثير من الشبان الذين طـال على نكاحهم العهد وبدأوا يدخلون في سن الكهولة وقـــد أملكهن الشرع وأحلهن لهم ولكن آباءهم قـــد حالوا بينهم وبينهن لأسباب

---

(١) الاجتثاث : الاقتلاع من الاصل .

(٢) ولا تزال لهـذه العادة الجائرة بقايا في الهنـد خصوصاً في البيوتات الكبيرة ذات النسب والحسب .

مصطنعة مفروضة ، وشق ذلك عليهم أصرّبهم ، واستغاثوا بالسيد في محاربة هذه العادة كما استغاثت بـه الفتيات المسلمات ، وطلبوا منه التوسط في ذلك وزجر الآباء وتنبيههم .

وقـد عنى بذلك السيد كما عنى بقضية الفتيات العوانس ، وأصدر أوامر بتسريح هذه المتزوجات إلى أزواجهن في مدة قريبة وأن يعلم بذلك وعين عمالاً من عنده أن يتولوا ذلك إذا رفض آباؤهن أو اعتذروا ، وتقرر أنه إذا استغاث الزوج إلى الحاكم الشرعي أو القاضي أن صهره لا يسرح منكوحته وقد بلغت، طلب أبو المرأة مع الأولياء الشرعيين ونبه على ذلك ، فاذا قبل عين له يوم وإن لم يقبل عين الحاكم يومـاً وذهب مع رجال قد عينت أسماؤهم وجـاء بزوجه إلى بيته .

وكان عمـل القبائل الأفغانية بقانون وضعوه ووضعه لهم رؤساء القبـائل وأمراء البـلاد ودرجوا عليه من قرون وأجيال وتمسكوا بـه تمسكاً شديداً ، وكانوا يسمونه « آئين أفغاني » أي القانون الأفغاني ، وكان يقوم على أغراضهم ومصالحهم ويشتمل على تقاليد قديمة وعادات محلية ، وكان فيه للأمراء والعلماء حظوظ معينة وحقوق ثابتة ، كان الناس يدفعونها كالزكاة والصدقات ، وقـد أحسن أحد رؤساء القبائل وهو « عناية الله خان السواتي » التعبير عن هـذه النفسية ، وكان ممثلاً في ذلك لأهل بلاده ، متكلماً بلسانهم إذ قال جواباً لخطاب الشيخ محمد إسماعيل لما أراد أن يمر ببلاده ويدخل « باجور » .

« إنكم لا تحيدون عـن الكتاب والسنة قيد شعرة وإن الكتاب والسنة والعلماء في جانبكم ولكن الأحكام التي ثبتت من الكتاب والسنة يشق علينا أن نعمل بهـا ، لذلك نمنعكم من التوجه إلى « باجور » ولا نسمح لكم به أبـداً وسنحاربكم إذا لجأنا إلى ذلك وسنظل متمسكين بتقاليدنا الأفغانية فاذا كان

الظفر لكم ودخلت هذه البلاد في حكمكم غادرناها ولجأنا إلى بلد من بلاد الكفار حتى نستطيع أن نعمل بطريق آبائنا وأجدادنا ونعيش عليها » .

وقد كانوا دخلوا في بيعة السيد وإمارته واختاروه إماماً وأميراً وهم يظنون أنه لا يتدخل في قضاياهم الخاصة وتقاليدهم وأعرافهم القديمة ويقتصر على الوعظ والارشاد والدعوة إلى الأعمال الصالحة والعبادات الدينية شأن المشايخ والعلماء وكثير من الصلحاء والأولياء ، وإذا توسع فانه يأخذ منهم العشر وهم أحرار فيما يفعلونه وفيما يؤدونه ، ولا شأن له بالحياة المنزلية والعادات القبلية والأعراف المحلية ، وخاب ظنهم ورأوا أنه نظام شرعي جامع مستوعب للحياة كلها لا يؤمن بمبدأ فصل الدين عن السياسة والعبادات عن العادات ، ولا بمبدأ « أدوا لقيصر مالقيصر وأدوا لله مالله » ويرى أن الاسلام دين ودنيا وعبادة وتشريع وأخلاق ومعاملات وأن المسلم لا يجوز له أن يجمع بين الاسلام والجاهلية وبين الله والطاغوت وبين التمسك بالأحكام الاسلامية في العبادات والأحكام الجاهلية في العادات والحياة ، وفاجأهم ذلك وفزعوا له وصاروا يحاولون التخلص منه وخلع ربقته ويلتمسون له كل حيلة ووسيلة .

وساعدهم في ذلك استثقال العلماء لهذا النظام الشرعي وكراهيتهم له ، فقد زاحمهم في حقوقهم ونصيبهم الذي جروا عليه من أحقاب وأجيال ورأوه حقاً لهم بالوراثة وبالعرف والعادة .

وزاد الطين بلة ما رأوا في جماعة السيد من تصرفات لم تسغها عقولهم من التنكيل بالمنافقين والمفسدين والبغاة والخوارج من رؤساء القبائل وأمراء العشائر كما وقع « لخادي خان » و « يار محمد خان » من الهلاك والاستيلاء على حصونهم وأملاكهم .

وكذلك ما قد كانوا يرونه من التحقيق في بعض المسائل والعمل فيها بنص

الكتاب [1] والسنة واختيار بعض الجزئيات التي هي أقرب إلى التطبيق بين الفقه والحديث ، وذلك كله في إطار المذهب الحنفي السائد المنتشر في الهند وبلاد الأفغان وتركستان ، ولم يألفه علماء الأفغان من مدة طويلة لضيق الدائرة العلمية التي نشأوا فيها ، وعدم وصول كتب المحققين المحدثين كشيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي إلى بلادهم ومدارسهم وللجمود العلمي الذي سيطر على هذه البلاد من زمن طويل ، زد على ذلك ما نقل إليهم ووشى به من اتباع قائد هذه الجماعة وأصحابه الكبار للطريقة السلفية التي لا تقوم على تقليد إمام وإنما تقوم على اتباع الهوى [2] والاعتماد على العلم والتحقيق الشخصي .

ومما لا شك فيه أن بعض من عهدت إليه الحسبة على الناس في هذه الأعراف الجاهلية والعادات الشائعة ، وإزالة هذه المنكرات ورد المظالم والسعي في تزويج الفتيات العوانس وتسريح البنات المتزوجات إلى أزواجهن كان قاسياً غير لبق ولامرن في إجراء هذه الأحكام وفي ممارسة السلطة الشرعية متسرعاً فيها في بعض الأحيان ، غليظاً شديداً في أحيان أخرى ، وقد ظهر من بعض العمال على الصدقات وبعض رجال الحسبة والشرطة سوء تصرف وشعور زائد بالقوة والحكم ، وقد كان ذلك من أسباب سخط أبناء هذه البلاد الذين تمتعوا بحياة

---

(١) كان في جماعة المهاجرين والمجاهدين عدد قليل من العلماء الذين كانت لهم اختيارات فقهية وكانوا يعملون بالحديث الصريح في بعض الاحكام والعبادات كان على راسهم الشيخ محمد إسماعيل حفيد الامام ولي الله الدهلوي وصاحب رسالة « تنوير العينين في إثبات رفع اليدين » وكانت الجماعة تعمل بالتسامح في مثل هذه الاختلافات فكانوا إخواناً متحابين متعاونين على البر والتقوى لا ينكر بعضهم على بعض في المسائل الخلافية .

(٢) اقرا ذلك مفصلاً في الرسالة التي ارسلها السيد رداً على هذه الشائعات وتبييناً لمذهبه ومنهجه الى علماء بشاور – سيرة سيد احمد شهيد ج ٢ ص ٣٢٤ - ٣٣٠ .

الحريـة والنظام القبلي زمنـاً طويلاً وكانوا ممتزين بنفوسهم وأنسابهم وكانوا مرهفي [٢] الحس رقيقي الشعور في هذا الشأن .

وكان الباعث الحقيقي لحركة السيد ونهضته ودعوته ، وكان رائـد جميع أفعاله وأقواله وفي كل مـا يأتي ويذر ، هو الحرص على إعلاء كلمة الله وإظهار دينه وإحياء سنة نبيه وتطبيق شريعته وتنفيذ حدوده ، وأن يعيش المسلمون حياة إسلامية لا حظ فيهـا للجاهلية والأهواء النفسانية والعادات والأعراف القديمـة المضادة لله ولرسوله ، وأن يخرجوا من حكم الطاغوت إلى حكم الله ومن الحرب إلى السلم ومن عبادة النفس إلى عبادة الله ، ذلك الذي حمله على الهجرة والجهـاد وعلى مفارقة الأهل والأوطان ومواجهة الأهوال والأخطار ، وذلك الذي نـذر له نفسه ووهب له حياته ، ولا قيمة عنـده للهجرة والجهاد ولا لحكومة إسلامية إذا لم يتحقق ذلك المطلوب ، يقول في كتاب أرسله إلى سليمان شاه والى « جترال » .

« لا شأن لهذا الفقير بالمال والثروة ولا بحصول المملكة والدولة ، فمـن قام من إخواننا المسلمين بتحرير بلاد المسلمين عن نير الكفار وحكمهم وقـام بترويج أحكام رب العالمين وتطبيق سنة سيـد المرسلين ، وتقيد بقوانين الشريعة في الحكومة والعدل تحققت أمنية هذا العبد ونجح في مشروعه » .

ظلت هذه العوامل الخفية تعمل لاثارة سخط القبائل الأفغانية التي نشأت على هـذه العادات والأعراف والتقاليد والنظم والعقائد والأفكار ورأتها ديناً يتبع وشريعة تطاع ، وألهب هذا السخط رؤساء القبائل وأمراء البلاد واتخذوه ذريعة للتخلص من هذا النظام المزاحم لنظامهم ولهذه السلطة المنافسة لسلطتهم وقد نشط السيد الامـام وأصحابه بعد العودة من « بشاور » في نصب القضاة

---

(٢) ارهف السيف ، رقق حده ومرهف الحس ، صاحب حساسية سائدة وانفعال .

والمحتسبين والعاملين على الصدقات ، والوعاظ والدعاة وفي محاربـــة العادات الجاهلية وذمها وتهجينها ، ورأى الناس منهم الجـد والعزم ورأوا تفسير قوله تعالى : « الذين إن مكناهم في الأرض أقـــاموا الصلاة وآتووا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور »[1] .

وكان رد الفعل على كل ذلك هي الجزرة الهائلة التي نحكي قصتها في اختصار بقلب متقطر وقلم متعثر



(١)

بأي ذنب قتلت ؟

وطفحت الكأس عند الدرانيين ورؤساء القبائل والذين حد من سلطتهم المطلقة وحريتهم الزائدة ، وعيل [1] صبرهم ورأوا أنه إذا طال الأمد على هذا النظام الشرعي ودرج عليه الناس فلا أمل في عودة الحياة الحرة الأولى وصاروا يشعرون بأن الأرض تنقص من أطرافها وأن المجال لا يزال يضيق وأن التأخير في التخلص من هـذا الوضع يزيد النظام والامام قوة وشوكة ويزيدهم ضعفاً وتخاذلاً .

وكان سلطان محمد خان لم تنسه الأيام وتطاول الزمان وبر السيد الامـام وإحسانه إليه ورده إليه ملكه السليب وعهده إليه بالنيابة والسلطنة ، لم ينسه كل ذلك المصير الذي صار إليه أخوه يار محمد خان ، ولم يندمل الجـرح الذي أحدثته في قلبه وفاته جريحاً قتيلاً ، طريداً ذليلاً ، وكان صلحه مـع السيد هدنـة على دخنة [2] وتسليماً للأمر الواقـع ، لم تطب له نفسه ولم ينشرح له صدره فصار يتحين الفرصة للخلاص من هذا الكابوس [3] الذي يخيل له ويزعجه

---

(١) عال وعيل صبره ، غلب .

(٢) الهدنة ، المصالحة – والدخنة ، كدرة في سواد ومنه حديث « هدنة على دخن » اي على فساد واختلاف تشبيها بدخان لما بينه من الفساد الباطن تحت الصلاح الظاهر .

(٣) ما يحصل للانسان في نومه فيزعجه وكأنه يخنقه .

والذي يرى معه أنه مكتوف اليد مقيد السلطة ، وفي « بشاور » الشيخ مظهر علي العظيم آبادي نائب السيد والقاضي الشرعي يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويفصل الخصومات ويحكم بالشرع ، وفي « سمه » – موطن القبائل الأفغانية الذي كان يحلم من قديم الأيام ببسط نفوذه وسلطته عليها وقد حاول ذلك هو وأخوه مراراً فأخفقا – قوة تنمو وتكبر وتستطيع أن تفتح بشاور وتتحدى حكومة « لاهور » ، فلا بقاء مع هذه القوة لسيادته وقيادته لهذه البلاد وأبنائها وكان يرى له ولأسرته التي حكمت أفغانستان والحدود الشمالية وقادتها حقاً دائماً على هذه المنطقة ، لا يسمح لأحد أن يشاركه فيه أو يزاحمه .

وكان في كل قرية كبيرة وفي كل مركز من مراكز المنطقة السهلية الواقعة بين « بشاور » « ومردان » قاض ومحتسب ، وجاب للعشر وعامل على الصدقات يحدون من سلطة رؤساء هذه القبائل ، وقد يتدخلون في شؤونهم ، ويملون عليهم أحكام الشرع فيتضايقون بذلك ويحتملونه على غصص [1] .

التقت هذه العناصر الكثيرة المختلفة فيما بينها على نقطة واحدة هي نقطة التذمر [2] من هذه الحياة التي لا عهد لهم بها ، ومن هذا النظام الذي لم يألفوه ، ولم يكن عندهم من قوة الايمان والعقيدة والذكاء والوعي ، والشعور بالسيف المصلت على رقابهم ما يتغلب على النزعات الجاهلية والأغراض الفردية والأنانية المضرة بالمصلحة الاجتماعية .

ولم ينسجم مع الأسف أبناء هذه المنطقه مع إخوانهم في الدين والذين نزح آباء كثير منهم في مدة قريبة من هذه البلاد إلى أرض الهند لالتماس رزق كريم أو إظهار فروسيتهم وروحهم العسكرية ولا يزالون محافظين على كثير من

---

(١) غص يغص غصصاً ، اعترض في حلقه شيء فمنعه التنفس .
(٢) تذمر ، لام نفسه على فائت وتغضب .

العادات الأفغانية والخصائص القبلية ، وذلك لوجود التفاوت الكبير بين أخلاقهم وأخلاق أبناء هذه البلاد ، ولتربيتهم الدينية الجديدة ، وكان كثير منهم قد تزوجوا فيهم وصاهروهم ، وتلمذ كثير من أبناء هذه البلاد عليهم في الدين والأشغال الروحية ، ولكن الفجوة لا تزال قائمة بينهم ، وإن للمصالح الشخصية والفوائد المالية منطقاً ساحراً لا يقاوم ، ورنيناً في الآذان والقلوب يخلب العقول ويبلد الشعور .

وعلى كل فقد ظلت القدر تغلي في القبائل والمؤامرة تدبر وتحاك في بشاور ، ويتردد رؤساء القبائل إلى سلطان محمد خان ويستشيرونه ويأخذون منه تعليمات سرية ويرجعون إلى بلادهم والمهاجرون في شغل شاغل بأداء واجباتهم والقيام بأعمالهم منصرفون إلى الاستعداد لمحاربة حكومة « لاهور » ، وتوسيع النظام الشرعي إلى المناطق القبلية التي لم تدخل في هذا النظام وقمع الثورات التي تحدث بين حين وآخر في المناطق التي يحتلونها ،وكانت تربيتهم الدينية التي نشأوا عليها لا تسمح لهم بالتشكك في نيـة هؤلاء الذين بايعوا أميرهم على السمع والطاعة وعاهدوا الله على نصره وولائه وقبلوا النظام الشرعي عن طواعية ، وأعان على ذلك أنهم يجهلون لغة البلاد التي يتكلم بها أبناؤها ، والتي كانت تستخدم في تبليغ هذه الرسالة السرية وخطة المؤامرة بين القبائل وزعمائها .

وقد شعر الشيخ مظهر على العظيم آبادي بأن هنالك تغيراً في معاملة سلطان محمد خان وأن وجهه غير الوجه الذي كان يلقاه به ، وقد أثار معه موضوع قتل أخيه يار محمد خان وخاض في الحديث بعض علماء « بشاور » فأفحمهم الشيخ بالدلائل الشرعيه وسكتوا على غصص ، وسلطان محمد خان على غيظ وحنق ، وكتب الشيخ إلى السيد يخبره بذلك ويطلب من الشيخ محمد إسماعيل أن يكتب إليه بالدلائل الشرعيـة والنصوص الفقهية ويستطلع رأيـه في وجود النفاق والمنافقين في هذا العصر ، فقد ادعى بعض العلماء أن النفاق كان في عصر النبي

ﷺ وانقرض هذا العصر، فلا نفاق بعد، فاما مومن مخلص أو كافر مجاهر [1]، ويستشير السيد في بقائه أو لحوقه به، وأشار عليه الشيخ محمد إسماعيل بأن يستأذن سلطان محمد خان وينتقل إلى مركز المجاهدين.

وسمع المجاهدون بعض أهل البلاد يتهامسون بذلك، ونبههم بعض المخلصين من أبناء البلاد على أن الأمر له حقيقة وأنه ليس مجرد شائعة وإرجاف وأن سلطان محمد خان ورؤساء القبائل قد تواعدوا على يوم معين ينفذون فيه خطتهم، ويقتلون القضاة والعمال في مناطق نفوذهم في وقت واحد، وقد عينوا لذلك رمزا خاصا واصطلاحاً فاذا نطق بهذا الاصطلاح نفذ المشروع وانطلقت موجة القتل والفتك فلا تبقى وتذر.

ولما بلغ السيد هذا الخبر أصدر تعليمات سريعة إلى العمال والمهاجرين المتفرقين في القبائل أن يغادروا مراكزهم ويلحقوا به قبل أن يأتي اليوم الموعود للقضاء عليهم، ولما علم المتآمرون أنه قد تسرب السر أعجلوا الأمر وأرسلوا إلى جميع المناطق بتنفيذ المشروع فوراً.

وانفجر البركان وانطلقت موجة عارمة للقتل والفتك تحولت بسرعة إلى مجزرة هائلة لم يشاهدها التاريخ الاسلامي من مدة طويلة، وكان أول فريستها العالم الرباني الشيخ مظهر علي العظيم آبادي وأرباب فيض الله خان الذي شفع عند السيد لسلطان محمد خان فطال تردده بينهما، وكان صاحب الفضل عليه في البقاء في « بشاور »، والتمتع بالحكم والسيادة فقد طلبها سلطان محمد خان يوماً وأمر بضرب رأسها.

---

(١) قد انحسم الخلاف في هذه المسألة واتفق على ان النفاق من طبائع البشر وخواص الفطرة الانسانية التي لا تختص بعصر دون عصر، وقد بسط هذه المسألة شيخ الاسلام ولى الله الدهلوي في رسالته الفريدة « الفوز الكبير في اصول التفسير » وقد بحثنا فيها في كتابنا « رجال الفكر والدعوة في الاسلام » راجع ترجمة الامام حسن البصري.

وأصبح المهاجرون المنتشرون في القبائل المعينون على القضاء والحسبة والجباية وهم أفراد معدودون أو جماعات قليلة العدد مغمورة محاطة بأهل البلاد الأصليين هدفاً لهمجية نادرة وضراوة بالدم الانساني لم تشهد من زمن بعيد، وصار أبناء البلاد يقتنصونهم اقتناص الصيادين الماهرين لظباء وادعة أو نعاج ضعيفة، وصاروا يتخطفونهم بالسيوف والأسنة ويرشقونهم بالرصاص ويذبحونهم في كثير من المواضع ذبح النعاج في أيام الأضاحي، وليس لهم راحم ولا راث، ويستغيثون بالاسلام وينشدونهم بالله فلا يسمح لهم، ولجأ كثير إلى المساجد فحوصروا حصاراً شديداً وهددوا بالاحراق عليهم وهدم المساجد فاضطروا إلى الخروج وقاتلوا قتالاً شديداً وقتلوا على بكرة أبيهم [1]، وقد قتل الحاج بهادر شاه خان الرامفوري في الصلاة ساجداً في الركعة الأولى.

وقد ثارت العاطفة الانسانية في كثير من أبناء البلاد وكان في مقدمتهم العلماء والسادة من أبناء الرسول ﷺ والنساء فناشدوا هؤلاء القساة واستعطفوهم على هؤلاء الغرباء الضعفاء، وخوفوهم من عقاب الله، ومن بطشه الشديد، ونشدوهم بالله، وقالوا هؤلاء إخوانكم المسلمون يجمعون بين فضيلة الحج والهجرة والجهاد في سبيل الله، وتشبث كثير من النساء بأزواجهن أو أبنائهن أو إخوانهن وتعلقن بثيابهم ويقلن لهم: اتقوا الله في هؤلاء المسلمين الذين لم يصدر منهم ذنب يهدر دمهم ويوجب قتلهم، فلا يمتنعون ولا يرثون.

وتعدى الأمر إلى الهنادك وغير المسلمين وشفعوا لهؤلاء البائسين يقولون للمسلمين المحاصرين والعازمين على قتلهم: إننا معاشر الهنادك، لا نستحل قتل حيوان ولا نسمح به لغيرنا وأنتم تقتلون بني جلدتكم وإخوانكم في الدين، خذوا منا ما تشاؤن من الأموال فدية لهم وتعويضاً لقتلهم ونحن نعاهدكم على أننا سنوصله

---

(١) يعني عن آخرهم فلم يبق احد، وجاء القوم على بكرة ابيهم اي لم يتخلف منهم احد.

إلى « بنجتار » إلى إمامهم وأميرهم أو نعبر بهم نهـر السند وننقلهم إلى أرض الهند ، فيذهبون حيث يشاؤن ، ورفضوا طلبهم ولم يصغـوا إلى استغاثتهم ومناشدتهم .

ووقف بعض العلماء موقفاً محموداً في حماية هؤلاء البؤساء وخاطروا بحياتهم وأهلهم ، فألجأوهم في بيوتهم وأجاروهم وأبوا أن يسلموهم ، ولم يجد الظالمون إليهم سبيلاً ، وظهرت حوادث معدودة تجلت فيهـا العاطفة الانسانية ورقة البشرية والوفاء .

ونجا من هذه المجزرة العامة التي لم تفرق بين إنسان وإنسان وفرد وفرد عدد من المهاجرين بحزمهم وحكمتهم ورباطة جأشهم وحضور عقلهم ، كان في مقدمتهم الشيخ خير الدين الشير كوتي . فقد استطاع أن يخرج بجماعته من هذا التطويق الذي كان حوله ، ونجا بجماعته كلها مع مال المسلمين الذي كان معه ، ووصل إلى السيد سالماً ، فأثنى عليه وحمد الله على حياتـه ، وأطلق المدافع إعلاناً بقدومه سالماً وتخويفاً للمفسدين ، وأطلق إحدى عشرة طلقة وأمـر الناس بتضييفهم يومـاً وليلة وأمرهم بكسوة جديدة وأحذية جديدة وإصلاح شأنهم .

واجتمع في « بنجتار » عدد كبير من أهل البلاد وأبناء قبيلة فتح خان البنجتاري مضيف المهاجرين الذي آواهم ودعـاهم إلى « بنجتار » متسلحين يحملون رايات ، وجاءت جماعات تترى ونزلوا عند فتح خان ولما سئلوا قالوا : إنما جئنا لننصر السيد ونأخذ ثأره من المفسدين الظالمين وتحقق أنها مؤامرة خفية وأن لفتح خان إصبعا في هـذه الفتنة وأن هواه مع المفسدين وهو الذي دعا هؤلاء ليستخلص البلاد له ويقصي المهاجرين منها ، وكان قـد خرج من بنجتار قبل هذا الحادث ولم يعد إلا بعد أن انتهت المجزرة فأثار ذلك ريبة في نفوس المهاجرين ، ودلت القرائن على أنه كان من المتآمرين ولما علم بتشكك المهاجرين في اجتماعهم أشار عليهم بالعودة والتفرق فرجعوا إلى مواضعهم .

وكان ممن استشهد في هــذه المذبحة الشيخ مظهر علي العظيم آبادي قاضي بشاور والحاج بهادر شاه خان الرامفوري والشيـخ رمضان شاه رئيس القضاة والحافظ عبد العلي ، والحاج محمود خان الرامفوري مع عشرين من رفاقه وپير خان المورانوي مـع عدد من زملائه ومنهم من قتل مقاتلاً ومنهم من قتل في الصلاة ومنهم من قتل وهو يتوضأ يستعد للصلاة ومن قتل غيـلة وعلى غرة ، وكانوا صفوة المهاجرين المجاهدين علو همة وزهداً في الدنيا وإقبـالاً على الآخرة وقوة أمانة ، وكانوا أنضاء[1] عبادة وأطـلاح[2] سهر ، يقضون نهارهم في الفروسية وخدمة المسلمين ونصرة الدين ويبيتون لربهم سجداً وقياماً« تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً »[3] وهكذا لقيت هــذه الجماعة حتفها على أيدي المسلمين الذين جاءت لنصرهم وحماية أعراضهم وتحرير بلادهم قبل أن تمكن من محاربة عدوهم .

وهاتف الغيب يتساءل ويقول « بأي ذنب قتلت » ؟



(١) النضو ، المهزول .
(٢) الطليح ، الهزيل اللاعب .
(٣) السجدة الآية ١٦

هجرة في هجرة وجهاد في جهاد

كان أثر الحادث عميقاً في قلب السيد وقد رزق من كرم النفس ورحابة الصدر وقوة الاحتمال والصبر على الأذى والإحسان إلى الأعداء ما يحير العقول ولا يرزقه إلا الأفذاذ في قرون وأعصار ، وكان في ذلك مقتفياً لأثر جده ونبيه ﷺ ، يصل من قطعه ويعطي من منعه ويحسن إلى من ظلمه ، لا يعرف الغضب لنفسه ولا يحمل حقداً على إنسان فضلاً عن مسلم ، وقد عفا عمن سعى في إهلاكه بالسم وفي قتله غيلة وأنعم عليهم وزودهم واجتهد أن لا يقعوا في عنت أو يتعرضوا لسخط ، يظن من رآه أن المسيء إليه محسن وجب حقه عليه واستحق الشكر والجائزة ولعله كان أوفر نصيباً وأسعد حظاً من الذي أحسن إليه .

ولكن هذا الحادث كان من نوع آخر ، إنه كان صدمة عقلية وقضية اجتماعية لا تختص بشخصه ولا تتطلب رحابة ذرع وسعة صدر وسماحة نفس فحسب فعنده منها ما يسع هذا الحادث وحوادث كثيرة ولكنها تدعو إلى تفكير جديد واستعراض شامل للظروف والملابسات ، ومقارنة جدية بين الربح والخسارة .

إن مثله كمثل زارع بذر أكرم ما عنده من البذور السليمة الكريمة بل بذر

حبات القلوب ومهج النفوس وسهر عليها وجاهد في سبيلها وسقاها بدموعه ودمائه وأذاب فيها مهجته وحشاشة نفسه وسمدها بأكرم سماد ، ثم لما نما هذا الزرع واستوى على سوقه قصده أحد الجيران فأتلفه وعاث فيه وأشعل فيه النار ، وهكذا وقع مراراً كثيرة فكان ألف هادم أمام بان واحد ، فهل يعود الى الزرع وبذر الحبوب وانتظار الحاصل في هذه الأرض التي لم تقدره قدره ولم تشكر نعمته أم يقصد بقعة كريمة طيبة نقية في أرض الله الواسعة ، ويضن بهذه البقعة الباقية من البذور الكريمة التي انتقاها وتخيرها وبالفرصة القصيرة التي منحها .

إنه يعرف أن الكلب إذا تردد إلى بيت كان أليفاً ، عرف له أهل البيت حقاً وقدموا إليه كسرة خبز ، وألف هو ذلك البيت فلا يفارقه ولا يخونه ، فهل هو وجماعته أخس من الدواجن ومن الطوافين الآلفين من الحيوانات والدواب ؟ وهل لا يزال ينفخ في رماد ويصيح في واد ويجاهد في غير جهاد؟.

ومما زاد هذا الجرح عمقاً والنفس ألماً هو أنه تحقق له أن فتح خان البنجتاري الذي دعاه إلى النزول في أرضه ووعد بأن يكون هو وقومه كالأنصار للمهاجرين الأولين ، كان من المتآمرين المفسدين وأصبح بعد ذلك كل شيء مشكوكاً فيه لا يوثق بأحد ، ولا يعتمد على وفاء ، وقد أحسن السيد التعبير عن ذلك فقال فيما قاله لفتح خان « لقد أصبحت قلوبنا في حاجة إلى المداواة وأصبحت تشك في صدق من يدعي الاسلام وينطق بالشهادة وكلمة التوحيد ، وقد صدر منهم من قسوة واستهانة بحياة المسلمين وانتهاكهم لحرماتهم ما يتحاشى عنه كثير من الكفار .

وأراد السيد أن لا يتسرع بحكم ولا يبت في الأمر حتى يتحقق الأسباب التي حملت أهل البلاد على هذا الفتك الذريع والفعل الشنيع ، فوجه دعوة إلى علماء المنطقة والسادة والأشراف ، وبعض رؤساء القبائل وأمراء العشائر واستعان في ذلك بفتح خان أيضاً وأملى رسائل كثيرة وأرسلها أليهم ودعاهم

إلى بنجتار وأوصى أصحابه بالمبالغة في ضيافتهم وإكرامهم ، وأنهم إذا رأوا أحداً كانت له مشاركة في هذه المجزرة أن لا يتعرضوا له بعتاب ولا يتجهموا له [1] وأمرهم بأن يزيدوا في تكريمه ورفادته .

واجتمع عدد كثير فيهم الأبرياء ، وفيهم المتلوثون بدماء الشهداء ، ولم يفرق المهاجرون بينهم ووسعوهم ببرهم ورفدهم وطال الحديث بين السيد وبين المجتمعين فسألهم عما حملهم على هذا الفتك فذكروا الأسباب التي جرى البحث فيها مراراً ، والشائعات التي أشيعت حول هذه الجماعة وما يشكوه بعض أبناء هذه البلاد من سوء تصرف من بعض العمال وتسريح البنات العوانس إلى أزواجهن الذين قام بينهم وبينهن رباط النكاح الشرعي وتزويج البنات اللاتي تأخر زواجهن وذلك كله برضا الآباء والأولياء وتمسك بعضهم بأمر المحضر .

وقد أجاب السيد عن كل ذلك جواباً شافياً وتكلم المنصفون من علماء البلاد وأعيانها وظهرت أن حجتهم داحضة [2] وليس هنالك ما يبرر هذه المقتلة العظيمة التي قتل فيها خيار الناس وصفوة المهاجرين المجاهدين .

وقرر السيد أخيراً الانتقال من هذه المنطقة التي أحبطت مساعيه وجزت الاحسان بالاساءة والوفاء بالغدر وقطعت كل أمل في المستقبل ، ثم دعا الحاضرين وودعهم وكان اليوم القادم يوم جمعة وقد حضره جم غفير فأعاد ما قال بالأمس ووعظ ونصح وقد فاضت العيون ، وكلمه بعض أصحابه في البقاء في هذه المنطقة فذكر أن نفسه قد عزفت عن الاقامة في هذه البلاد وأنها تعافها كما يعاف الانسان من قيئه ، وأنه لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، وذكر أن من استشهد في هذه المقتلة كان خلاصة بلادهم ولبابها وقد اعتمدنا على الدعوة

---

(١) تجهمه وتجهم له استقبله بوجه عبوس كريه .

(٢) داحضة ، باطلة واهية ،

والتربية الدينية والترغيب والترهيب أولاً ثم لجأنا إلى السياسة وإقامة الحكم الاسلامي واستخدام القوة أخيراً ولم ينجح كل ذلك فان الأرض غير قابلة للزرع الكريم وأن القلوب جافة جامدة لا يؤثر فيها الاخلاص والاحسان .

وكان أربعة أمراء من « هزاره » وفي « وادي كاغان » يكررون دعوتهم إلى قصد بلادهم واتخاذها منطلقاً للدعوة ومركزاً للجهاد ، ورأى السيد وأهل الرأي في جيشه أن يتوجه إلى كشمير ويتخذها لحركته ونشاطه .

ولما انتشر الخبر في النواحي قصده المخلصون من كل صوب وناحية وأرادوا أن يصرفوه عن هذه الهجرة وقابلهم السيد بلطف وألأن لهم الكلام ورق في الحديث ودعا لهم وأشار إلى فتح خان وقال : لو أشار علي كل الناس بالهجرة ومغادرة هذه البلاد وأشار علي هذا بالبقاء لقررنا البقاء، ولو أشار علي هذا بمغادرة هذه البلاد وأشار علي الناس بالبقاء لقررنا المغادرة ، ثم أدنى السيد أذنه إلى فم فتح خان ليفضي بسره إليه ويخبره بما تضمره نفسه وتناجيا طويلاً لا يعرف أحد ما جرى بينهما من الحديث ؟ ثم أقبل السيد على قبيلته وقال إننا لا نحكم عليكم بالثورة وإننا لا ننتقل من هذه البلاد إلا لمصلحة وإننا نستخلف فتح خان فيكم تدفعون إليه ما كنتم تدفعونه إلينا من العشر وتطيعونه في معروف ، وأوصيكم في من يقصدكم من الهند فتحسنون ضيافتهم وتكرمونهم ، وخلع على فتح خان قميصه وكساه إياه ولاث عمامته على رأسه وكتب له بالخلافة .

وشكر رفاقه على النصر والوفاء وأقر بفضلهم وخيرهم بين مرافقته وبين تخلفه وقال إن الطريق شاق والسفر طويل فلا يختاره إلا من وطن نفسه على الصبر والتقشف وتحمل المكاره ، أما نحن فقد وهبنا نفوسنا لله وعزمنا على الجهاد في سبيل الله وإلى أن نلقي الله ، واختار جميع رفاقه من المهاجرين المخلصين مرافقته ولم يتخلف منهم أحد .

« من بنجتار الى بالاكوت »

وفي يوم من أيام رجب سنة ١٢٤٦ آذن السيد بالمسير واستقبل السفر وقابله في الطريق سبطه الجريح السيد موسى بن احمد على الشهيد وكان في آخر حياته وكان ينتظر السيد بصبر نافد ، ومكث السيد يوماً تطيبياً لخاطره ، وفي اليوم القادم بلغه نبأ وفاته وفي الطريق لحق به بعض زعماء الثورة وأرادوه على العودة وبكى بعضهم وأكثر من الملق والالحـاح ولقيهم السيد ببر وترحيب ووعدهم خيراً واعتذرهم عن العودة واعترى فتح خان ندم شديد واستعـان ببعض أصحابه في صرف السيد عن الهجرة وحمله على العودة ، فاعتذر السيد وأهدى إلى هؤلاء الثوار بعض الهدايا الكريمة وودعهم توديعاً حسناً .

وكان في الطريق يقوم السيد بالتذكير بالله وذكر فضل الجهاد والهجرة وما أعد الله للشهداء من رضا ورضوان وروح وريحان فتنتعش قلوب المهـاجرين وتعمل فيهم هذه المواعظ عمل الأمطار في الحقول والمزارع فتهـتز وتربو وترق وترف .

ولم يكن طريق هذه الهجرة أقل وعورة من الطريق الذي مر به المهاجرون بين الهند وأفغانستان فكانت تعترضهم جبال شامخة الذرى صعبـة المرتقى ، وواجههم برد شديد في بعض الأمكنة وجوع ومسغبة وتعب ، والقائد الداعي

يطمعهم في ثواب الله ويشحذ عزمهم على الجهاد واحتمال المشاق ويشاركهم في عسر ويسر ، يفيض وجهه بشراً وتتهلل أسارير وجهه كأنه يتقلب في نعيم ويطير على جناح الشوق إلى وكره ، ويؤنس الناس بحديثه ، ويلاطفهم بأخلاقه وشفقته ، يقيم في القرى أياماً ويصلح بين المتنازعين ، ويدعو إلى الجهاد في سبيل الله . ويرزقهم الله من حيث لا يحتسبون ، وتفاجئهم الضيافة الكريمة والايواء الكريم وتتمثل الحياة الاسلامية بمساواتها وإيثارها والتعاون على البر والتقوى .

وفي الطريق بلغه أنه لم يمض على خروجه من « بنجتار » قليل حتى زحف « هري سنغ » حاكم « هزاره » بجيش كثيف يشتمل على خمسة وعشرين ألف من الرجال وعبر نهر السند ونكل بأهل القرى وسطا بهم وبيوتهم وأملاكهم ، واختطف جيشه كثيراً من بنات المسلمين وأزواجهم .

وأقبل السيد على شعف[1] الجبال التي تقع في طريق كشمير ، وأمر بحراستها وضبطها ، وفي « راج دواري » بايعه المجاهدون بيعة أصحاب الصفة وعاهدوا أن لا يسألوا غير الله في حاجاتهم وأن يحبوا لاخوانهم المسلمين ما يحبون لأنفسهم .

وكان يسود في هذه المنطقة الجبلية اضطراب وعدم استقرار لغارات « السيخ » واعتداءاتهم وبسبب الحروب الأهلية التي يخوضها الأمراء المسلمون وقد استعان السيخ ببعض الأمراء على بعضهم وجلا كثير من الأمراء من مراكز سلطتهم وتشرد منهم كثير واستعانوا كلهم بالسيد .

وكان لا بد من جمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم للاستيلاء على كشمير واتخاذها مركزاً للدعوة والجهاد ، وكانت « بالا كوت » التي تقع في مركز « وادي

---

(١) الشعفة : رأس الجبل ج شعف .

كاغان » محصورة بالجبال من ثلاثة جوانب خير مكان للاقامة وخير منطلق وخير منطلق للتحركات العسكرية وكانت كقلعة حصينة ساعدتها الطبيعة على الحصانة والمناعة ، فاتفق الرأي على اختيارها مركزاً للمجاهدين وأمر السيد الشيخ محمد اسماعيل بالتوجه إليها وتقدم الشيخ خير الدين فنزل بها ثم لحقه الشيخ محمد اسماعيل وكانت الطرق مكسوة بالجليد وأصبحت بساطاً مستوياً لا تعرف فيه الوهاد والنجاد وكان الناس يزلقون على الثلج ويسقطون ، وكانوا يحملون الأثقال والعتاد الحربي ويخشى عليهم التلف والهلاك ويصيبهم البرد الشديد فيكادون يتلفون ، وما وصل الشيخ محمد اسماعيل إلى بالا كوت إلا بشق النفس وقد خرج من مخالب الموت .

وبقي الشيخ محمد اسماعيل والشيخ خير الدين ينتهزان كل فرصة لجمع كلمة الأمراء وحملهم على الجهاد وإعداد العدة له ، ومكث السيد زماناً في الطريق يدعو إلى الجهاد ويلهب الغيرة الاسلامية ويؤلف بين المتخاصمين المتحاربين ويقيم نظام العشر وبيت المال » ويبايعه الناس على العمل بالشريعة والسعي في الجهاد ، ولحق به الشيخ محمد اسماعيل وأقام عنده زماناً يدرس في المشكاة ويعظ الناس.

وهنا في ذي القعدة سنه ١٢٤٦ جاءته دعوة من حبيب الله خان كبير الأمراء في الوادي إلى القدوم إلى « بالا كوت » وأخبره بأن « شير سنغ بن مهاراجه رنجيت سنغ » قد نزل بجيشه على بضعة أميال من بالا كوت في جنوب نهر « كنهار » .



في بالا كوت

توجه السيد لأربع خلون من ذي القعدة سنة ١٢٤٦ بجيشه من « سجون » إلى بالا كوت يرافقه الشيخ محمد اسماعيل وكانت رحلة شاقة مضنية في الجبال ، وكان الشيخ محمد اسماعيل إذا أعيا جلس وشرع في الوعظ فينشط وينشط الناس ، وكان يتلقاهم الناس في كل موضع ببر وترحيب ، ويرزقهم الله من حيث لا يحتسبون حتى وصلوا إلى « بالا كوت » .

وقرية « بالا كوت » تقع على فم وادي « كاغان » وقد قامت الجبال الشامخة من ثلاثة جوانب ، الشرق والغرب والشمال ، وليس للوادي إلا منفذ في الجنوب يدخل منه نهر « كنهار » وقد قام جبلان في الشرق والغرب كجدارين متقابلين بينهما فجوة لا يزيد عرضها على نصف ميل ، وفي هذه الفجوة قامت قرية « بالا كوت » على ربوة عالية وجرى نهر « كنهار » ولا سبيل للوصول إلى « بالا كوت » إلا هذا المنفذ الجنوبي الذي يدخل منه نهر كنهار أو دريبة في الجبال في الجانب الجنوبي الغربي كانت في تخطيط ملوك الهند القدماء وتحتهم ، وقد نبتت فيها الأشجار العالية ونشأت فيها غابة وغطتها أحجار سقطت من قلل الجبال فلم يكن يعرفها إلا الذين نشأوا في البلاد وعرفوا مسالكها .

وقد نزل شير سنغ على شرقي نهر كنهار على بضعة أميال من « بالا كوت »

ولا سبيل له للهجوم على المجاهدين إلا عن طريق المسلك الجبلي الذي لا يسلك إلا بدلالة خرّيت ماهر من أبناء القرية أو إذا سلك مع النهر على الشاطىء الشرقي فيواجه قرية « بالا كوت » .

وقد عين السيد الامام فرقاً من الجيش على كلا الطريقين وكان قليل من من الجيش يكفي لصد جيش كثيف لضيق المسلك ووعورته ، وأخذ بالحيطة في كل مكان قد نصب جسراً من خشب على نهر بالاكوت ليتيسر العبور للجيش وإرسال الأمداد وقد كتب إلى صديقه وتلميذه وزير الدولة أمير « تونك » رسالة كتبت لاثنتي عشرة خلون من ذي القعدة سنة ١٢٤٦ هـ ، وكان الكتاب الأخير الذي أملاه ، يذكر فيه أسباب الهجرة وأهمية بالاكوت«الاستراتيجية» ويذكر جيش العدو الذي نزل إزاءه ويبدي ارتياحه إلى التنظيمات ورجاءه للنصر والفتح .

وقد أخبره الجواسيس بأن جيش « شير سنغ » قد وصل إلى قرية « مق كوت » ليسلك الطريق القديم الذي لا يعلمه إلا الخبيرون من أهل البلاد وقد وجد من يقوده إلى هذا الطريق ويهديه ، وأرسل السيد مدداً من الجيش لتقوية من كان يحرسه ولكن « السيخ » كانوا قد سلكوا هذا المسلك واستولوا على المكان الذي يبدأون منه زحفهم .

ولم ينقض النهار حتى فوجىء الناس بوجود الجيش على قلة الجبل المطل على القرية .

أشار الناس على السيد بالانسحاب من بالاكوت واللجوء إلى بعض الجبال وحينئذ يتراجع الجيش المهاجم ويرجع خائباً ، ورفض السيد هذا الاقتراح وقال : سنقاتل العدو في هذا الميدان فلا تفوتنا إحدى الحسنيين إما الوصول إلى « لاهور » عاصمة « سيخ » وإما الدخول في الجنة ، والجنة لا تعدلها الدنيا

بحذافيرها وبجميع حكوماتها ودولها ، وهنالك ملكة الايمان وغلب عليه الشوق فقال إنني أتمنى أن أقدم إلى الله أحب شيء إلى حق أنال رضاه ، أما بذل النفس له والموت في سبيله فهو أهون شيء عندي ولا فرق عندي بينه وبين حشيش آخذه وأرمي به مكسوراً محطماً .

وقال إننا لم ندخر وسعاً في الدعوة إلى الجهاد وقد أرسلنا خلفاءنا ودعاتنا إلى الهند وخراسان وتركستان وما قصروا في تبليغ الرسالة وإقامة الحجة ، وما مررنا بقرية ولا نزلنا في منزل إلا ودعونا أهلها إلى إحياء هذه السنة المماته وإقامة هذا الركن العظيم فلم يجبنا إلا أمثالكم من الفقراء ، وقد ظل كتابنا يكتبون الرسائل إلى أمراء المسلمين وملوكهم وانطلق سفراؤنا ورسلنا يحملون السفارات إلى هؤلاء العظماء والزعماء يخاطبون فيهم الايمان ويثيرون فيهم الغيرة ويحركون فيهم الحمية الدينية فلم يلقوا منهم استجابة ، فصدقوهم المعركة الأخيرة بيننا وبين الكفار فاما يكتب الله لنا النصر فنطأ أرض « لاهور » وإما يرزقنا الشهادة فنحل دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها لغوب ، وكان الناس صامتين لا حراك بهم ، قد غمرهم الايمان وغشيتهم سحابة من السكينة وتمثلت لهم الجنة بنعمائها ، ثم أقبل على الحاضرين فقال لهم ، أكثروا من التوبة والاستغفار في هذه الليلة واغتنموا هذه الفرصة فمن يدري من يكرمه الله بالشهادة غداً ، ومن تطول به حياته ويفسح في أجله ، ثم قام بالاستعداد لحرب حاسمة وأمر بالتحصينات وفتح عدة جبهات في وجه العدو وعين فرقاً من الجيش يقودها كبار المجاهدين كالشيخ محمد إسماعيل والشيخ ولي محمد وناصر خان وحبيب الله من أمراء البلاد وأمر بتحصين المساجد .

ونزل السيد من المسجد الذي كان يتكلم فيه إلى مخيمه وصنع له الغداء وطلب ملابسه وأسلحته وأهدى بعضها إلى بعض خاصته ، واختار بعضها لنفسه كأنه يستعد للدخول في مجلس ملك عظيم أو يشهد عرساً أو يحضر عيداً ، وكانت الليلة ليلة مظلمة موحشة ، وكانت السماء متغيمة وباتت الطيور تصيح .

مشهد بالاكوت

وأسفر صباح اليوم الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ١٢٤٦ هـ،أذن للفجر وتوضأ الناس ولبسوا السلاح وصلى بالناس السيد فكانت صلاة أخيرة ، صلاها إماماً وأذن لهم بالانصراف ، وجلس السيد مشغولا براتبه ، ولما ارتفعت الشمس صلى صلاة الاشراق ثم توضأ وابتهل ومشط لحيته ، ولبس أحسن ما عنده من الثياب ، وأخذ الأسلحة .

وتمثلت الجنة للمجاهدين الذين تغنوا بذكرها وحنوا إليها طويلاً وأعدوا العدة لها ، وقوى إيمانهم ورفع الغطاء عن عيونهم فاذا بهم يبصرون ما لا يبصره غيرهم يجدون ريح الجنة من دون جبل[1] « بالاكوت » .

يقول أحد من شهد هذه الوقعة : كان السيد « جراغ على البتيالوي » قد نصب قدراً على النار يطبخ الطعام مسلحاً مستعداً لأي مفاجئة وكان السيخ نازلين من الجبل وكان في يده مغرفة يديرها في القدر وينظر إلى السيخ مرة وإلى قدره مرة أخرى وحانت منه التفاتة إلى السماء فانفجر قائلاً : أنظروا بالله

---

(١) كلمة أثرت عن سيدنا أنس بن النضر وقد قال في غزوة أحد « إني لأجد ريح الجنة من دون أحد » .

إلى الغانية من حور الجنة في أحسن ثياب وأجملها ، ثم رمى المغرفة على القدر وقال سآكل الطعام من طبخك ثم طار إلى السيخ والناس يقولون له : مهلاً أيها السيد فسنرافقك ولم يلتفت إليهم وخاض في العدو وقتل شهيداً .

وكان السيد الامام على جبهته في فناء مسجد وكان الناس يتناوبون الحرس وكانت القنابل تسقط يميناً وشمالاً ولا تصيب أحداً ، وحضر الحلاق في هذه الساعة الدقيقة الحرجة فأصلح شعره ومشط لحيته ونزل عدد كثير من الجيش وصار يدنو من المجاهدين ومنع الناس من أن يبدأوا القتال حتى يحضر ، ثم قام من فناء المسجد ودخل المسجد وأغلق الأبواب واشتغل بالدعاء ثم فتح نافذة وسأل من ناداني ؟ قالوا : لا أحـــد ، وهكذا عاد مرتين أو ثلاثاً وفي المرة الثالثة خرج من المسجد ونزل في الميدان كليث ثائر وكانت القنابل تقع كوابل من البرد ، وأمر أحد رفاقه السيد أبا الحسن أن يتقدمه بالراية ثم رفع صوته بالتكبير ، وهجم على العدو وكان أرباب بهران خان يمشي أمامه كأنه مجنة وأمر الشيـــخ محمد إسماعيل أن يحيط به المجاهدون المسلمون فتحلقوا حوله وأحاطوا به إحاطة الهالة بالقمر ويفدونه بنفوسهم وأرواحهم ولما دنا العدو منه رشقهم المجاهدون بالرمى . فأنزلوا وابلا من الرصاص ومات منه الكثير .

وكان آخر أمر السيد أن رأه الناس جالساً على هضبة مستقبل القبلة يطلق البنادق وحوله جثث الشهداء ، وهو لا ينثني ولا يكل ، ورأى الناس أن خنصره اليمنى مجروحة تدمى ولعله أصيب برصاصة في كتفه اليسرى فسال الدم إلى أصابعه ، وفي يده بندقية وفي الأخرى سيف مصلت يحث على القتال ويقول : أحصوهم [1] عدداً واقتلوهم بدداً ولا تتركوا منهم أحداً .

وقد تصاعد دخان البارود وملأ الفضاء فلا يعرف أحد أحداً وقراطيس

---

(١) بدداً - لفظ الحديث « أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تترك منهم أحـــداً » والبدد بكسر الباء جمع بدة وهي الحصة والنصيب .

السيخ تطير في الجو كالجراد المنتشر وكانت تظل الجميع سحابة من وحشة وظلام وحزن وكآبة ولجأ المجاهدون إلى السيوف ورفعوا صوت التكبير ، وهاجموا العدو ، وقد انهزم السيخ إلى الجبل ووصل المجاهدون إلى سفحه وكانوا يأخذون بأرجلهم فيجرونها إليهم ويقتلونهم بالسيف .

وبينما هم كذلك إذ توارى السيد عن عيونهم ورؤى الشيخ محمد إسماعيل معلقاً بندقيته في عنقه ، بيده سيف مسلول وجبينه ينضح دماً وهو يمسحه بيده ، ولا يشعر أحد بأحد .

ودارت الدائرة على المجاهدين واستشهد الشيخ محمد إسماعيل وظهرت شجاعة المجاهدين وبسالتهم وحنينهم إلى الشهادة ، واستهانتهم بالحياة ، وحبهم للامام وإيثاره على أنفسهم وانقيادهم للأمير وخضوعهم للنظام ما جدد ذكرى القرون الأولى ورد التاريخ على أعقابه قروناً كثيرة .

ومن المرجح المعقول أن السيد الامام قد أكرمه الله بالشهادة وقد التبس الأمر على كثير من الغزاة لشدة القتال واشتباك الفريقين وكثرة القتلى وشبه لكثير من أنصاره وأعدائه فلم يتبين موضعه ، ومن الروايات ما تقول : « أن قائد السيخ بحث عن جثته فلم يهتد إلا بصعوبة وبدلالة ولد صغير لبعض المجاهدين . فكفنه في كسوة صوفية فاخرة وأمر المسلمين بأن يصلوا عليه ويدفنوه ، ومنها ما تقول : إن رأسه انفصل عن جسده فدفنا في مكانين مختلفين وليس هنالك قبر يوثق به ويعتمد [١] عليه .

وهكذا أجاب الله دعاءه وحقق أمنيته فقد روى أنه كان شديد الكراهة

---

(١) والقبر المنسوب إليه في « بالاكوت » والذي بنت عليه حكومة باكستان تذكاراً له لا تصح نسبته اليه والمرجح أنه لغيره .

لاقامة الضرائح والبناء على القبور ، وكان شديد الانكار على ذلك . كثير الاعتناء بازالتها فقيل له : إن المسلمين يعتقدون فيك الخير والصلاح ويحبونك حباً شديداً ومن كان هذا شأنه لم يهمله الناس فبنوا على قبره وشيدوه فقال : إني دعوت الله أن يلبس على الناس ويخفي عنهم مدفني فلا يتمكنوا من بناء الضريح واتخاذه عيداً (١) .

أما الشيخ محمد إسماعيل فقبره معروف في بالاكوت ، وأما الشهداء الآخرون فيزيد عددهم على ثلاثمائة شهيد وهم خلاصة بلادهم ولبابها كما قال السيد فقد دفنوا في مكان واحد .

ولما بلغ النبأ إلى لاهور فرح به « رنجيت سنغ » فرحاً عظيماً فأمر باطلاق المدافع إعلاناً بالسرور والانتصار ، وأمر بتنوير مدينة « أمرتسر » بالمصابيح ، المدينة المقدسة عند السيخ ، واعلان الأفراح ، وأنعم على الرسول الذي حمل هذه البشرى بسوارين من ذهب وعمامة من شال ثمين ، وأنعم على ولده القائد باقطاعة جديدة وأصدر أمراً إلى حاكم قلعة « كوبند كهر » الكبرى أن يطلق كل بندقية إعلاناً بالسرور والفتح ، وهنأ السفير الانجليزي المعين في البلاط الملكي « مهاراجا » على هذا الفتح العظيم وذلك في ٢٣ من مايو سنة ١٨٣١ م نيابة عن الحاكم العام الانجليزي (٢) في شملة (٣) .

هذا ، وكانت وقعة « بالاكوت » في اليوم الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ست وأربعين ومائتين وألف (٢٤ ذي القعدة من سنة ١٢٤٦ هـ الموافق ٦ / مايو سنة ١٨٣١ م) .

---

(١) رواه نواب وزير الدولة والي « تونك » عن السيد في كتابه « وصايا الوزير » .
(٢) هذه المعلومات مستقاة من الوثائق الرسمية المكتوبة بالانجليزية المشتملة على رسائل « الكبتان سي ، ايم ، ويد » المفوض عند حكومة لاهور وسكرتير الحاكم العام ، المحفوظة في المتحف الحكومي في لاهور وقد اطلع عليها المؤلف بنفسه وأخذ نقولها باذن حكومة باكستان .
(٣) مصيف الحكومة الانجليزية في الهند .

امتداد تاريخ الجهاد والبطولة

لم يتمتع « رنجيت سنغ » بهـذا الفرح طويلاً ، فقد عاش بعد وقعة « بالاكوت » ثماني سنوات ، ومات في سنة ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩ م) وتوالت بأخلافه الخطوب ، فمنهم من اعتبط واخترمته يد المنية في الشباب ، ومنهم من كان فريسة حادثة أو مفاجأة ، ومات ولده « شير سنغ » فاتح « بالاكوت » وولده الذي كانت تلوح عليه علائم النبوغ والنجابة في مدة قريبة في سنة ١٨٤٣ م ، ووقع بين أبناء هذا البيت تنافس شديد ، وحروب داخلية إلى أن استولى الانجليز على هذه المملكة الناشئة في سنة ١٨٤٩ م وانقرضت هذه الدولة انقراضاً كلياً ، ولم يبق لها عين ولا أثر .

أما المجاهدون ، فقد أفاقوا من دهشة النكسة ، وشهادة الامام ، وشهادة عدد كبير من المجاهدين ، في وقت قريب ، واختاروا لهم الشيخ ولي محمد البهلتي – من كبار أصحاب السيد – أميراً لهم ، وخلفه الشيخ نصير الدين المنكلوري ، ثم الشيخ نصير الدين الدهلوي (م ١٢٥٦ هـ – ١٨٤٠م) .

ثم آلت قيادة الجماعة إلى العالم الرباني والمصلح الكبير مولانا ولايت علي العظيم آبادي أحد كبار خلفاء السيد ، في سنة ١٢٦٢ هـ [1] ١٨٤٦ ، ومات

(١) قد الجأه الانجليز الى العودة الى الهند ولزوم بيته « وقضى هذه المدة في قلق عظيم كأنه »

في ٢٢ / محرم سنة ١٢٦٩ هـ (٥ / نوفمبر ١٨٥٢ م) وتولى القيـادة بعد وفاته شقيقه المجاهد الجليل مولانا عنايت علي العظيم آبادي ، وفي عهـده تم استيلاء الانجليز على بنجاب والحدود الغربية الشمالية ، فأصبحوا المنافس الحقيقي لنشاط المجاهدين وأهدافهم ، وقـد ثبت أن الحكومة الانجليزية التي كانت تملك جميع وسائـل التوسع والانتصار ، وكانت زاخرة بالحيوية والطموح ، كانت الخطر الحقيقي في شبه القارة الهندية بل في الشرق الاسلامي كله ، وكان السيد وجماعته مطلعين على هـذه الحقيقة التاريخية ، وقـد أنذر بذلك السيد قادة المسلمين وملوكهم وزعماءهم ، في رسائله البليغة التي وجههـا إليهم في الهند وأفغانستان وتركستان ، وقـد جاء في إحدى رسائله التي كتبها إلى الأمير كامران بن شاه محمود الدراني حاكم هراة « أن هدفه الحقيقي هو إقامـة الجهاد على الهند التي استولى عليها الانجليز فأفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة » .

فكان طبيعياً أن ينصرف المجاهدون إلى محاربة الانجليز وقد بدت طلائعه في عهد مولانا ولايت علي العظيم آبادي وقد كان من أعرف الناس بمقاصد السيد الحقيقية وكان صاحب سره وبطانته ، وتكامل ذلـك في عهد شقيقه مولانا عنايت علي وبلغ أوجه ، واستمر إلى عهد خلفائه كالأمير عبدالله والأمير عبد الكريم بني الشيـخ ولايت علي العظيم آبادي . وهو تاريـخ حافل بالبطولات والمغامرات ، وحوادث وخطوب ، تشيب لهولهـا الولدان ، وكانت حروب دامية وقتل وفتك ومصادرة للأملاك والأموال ومحاكات طويلة عريضة ، ونفي وتشريد ، وتفتيش يذكر بتاريخ محاكم التفتيش في أوربا في القرون الوسطى ، وتعذيب وتنكيل تقشعر منهـا الجلود ، ولو وضعت مآثر الفـداء والايثار

---

*سمك اخرج من الماء ، ولم تكد تنقضي هذه المدة حتى توجـه الشيخ الى مركز المجاهدين كأنه طائر يعود الى وكره في المساء ، ووصل اليه في ٨ / من ربيع الآخر سنة ١٢٦٧ هـ - ١٠ / نوفمبر سنة ١٨٥١ م .

والبطولة في الهند كلها ، التي يحكيها تاريخ حركة التحرير والكفاح الوطني ، في كفة ، ووضعت مآثر أهل [١] صادق پور (أسرة مولانا ولايت علي العظيم آبادي) وبطولاتهم في كفة أخرى لرجحت هذه الكفة الأخيرة رجحاناً ظاهراً [٢] .

وكانت للجهاد وتنظيم الجماعة وتسريب الأموال والشباب المجاهدين إلى « ستهانه » المركز الرئيسي (عبر الحدود الهندية الانجليزية) شبكة دقيقة قد انتظمت الهند كلها ، وكانت لهذه الأغراض مراكز سرية في ولاية بهار وبنغال ولغة رمزية يتراسلون بها ، ومتطوعون أوفياء يعدون بمئات الألوف [٣] ، لم تستطع الحكومة الانجليزية أن تصرفهم عن غايتهم وتغريهم بمال أو تهديد [٤] .

وقد نفخت هذه الحركة في الشعب « البنغالي » روحاً جديدة من الشجاعة والحماسة الاسلامية ، والحمية الدينية ، والإستهانة بالحياة ، وروح المغامرة ، وحب الشهادة في سبيل الله ، والتمسك بالجامعة الاسلامية ، وإيثار مصلحة الاسلام والمسلمين على كل مصلحة ، والاستقامة على المبادىء ،حولت هذا الشعب

---

(١) اسرة ربانية مجاهدة كانت في طليعة انصار السيد الامام وكان منها صفوة اصحابه وكبار « الفدائيين » وقد نهضت بأعباء هذه الدعوة والجهاد في سبيلها ، وكان لها القسط الاوفر في ذلك و « صادق پور » اسم حي من احياء مدينة عظيم آباد المعروفة الان بـ « پتنه » ، وهي عاصمة بهار ، وكان منها الشيخ ولايت علي ، والشيخ عنايت علي ، والشيخ احمد الله ، والشيخ يحيى علي وتسلسلت فيها امارة الجماعة في مركز المجاهدين .

(٢) اقرأه مفصلا في كتاب « الحركة الاسلامية الأولى في الهند » للاستاذ مسعود الندوي ، والجزء الثالث والرابع من سلسلة تاريخ السيد احمد الشهيد للمؤرخ الباكستاني الكبير غلام رسول مهر .

(٣) يقول رئيس البوليس الانجليزي في بنغال « لا يقل عدد اتباع قائد واحد من قادة هذه الحركة عن ثمانين الفاً من الأتباع ودواليك .

(٤) اقرا التفاصيل المدهشة في كتاب (Our Indian Mussalxmans للمؤلف الشهير W. W. Hunter) .

الوادع الذي عاش بعيداً عن حياة الفروسية ، وعن ميدان القتـــال إلى شعب باسل مناضل ، حتى اعترف بعض كبار القادة الانجليز بأن المجاهـد البنغالي لم يكن دون الأفغاني بسالة وشجاعة ، بل كان يفوقه أحيـــاناً في شدة البأس والمراس ، ولم تستطع « المباحث » والمخابرات والمخـاوف التي كانت تعترض في هذا الطريق الطويل أن تحول بين هؤلاء المتطوعين البنغاليين وبين عملهـم الشاق الدقيق[1] » .

ولم يتمكن الشيطان – لاستحواذ العقيدة الاسلامية والدعوة الدينية عليهم – من إثارة حمية جاهلية ، أو عصبية لسانية وثقافية ، أو عنصرية ، أو دموية ، ولم يتفاخروا إلا بالاسلام ، والسبق في ميدان خدمتـــه ونشره ، أو بصالح الأعمال ومكارم الأخلاق .

وقد اضطرت الحكومة الانجليزية إلى أن ترسل بعوثاً حربية يبلغ عددها إلى عشرين بعثة شارك فيها ستون ألفاً من الجنود المدربين ، وقـد أقر الدكتور هنتر بأن ثكنات بنجاب قد خلت من الجيش الانجليزي في بعض الأيام لتشاغل الجيوش بمحاربة المجاهدين ، وانسحبت الجيوش الانجليزية في عدة معارك ، حتى اضطرت حكومة بنجاب إلى استرجاع جيوشها في آخر سنة ١٨٦٣ م ، إلى أن تمكنت من القضاء على هذا الخطر المتحدي لها بسياستها المعروفة القديمـــة في التحريش بين القبائل وعزل المجاهدين عن أنصارهم وخلفائهم من أبنـاء البلاد في سنة ١٨٦٨ م .

وبدأت محاكمة المتآمرين في الهند ودامت مدة طويلة ، وحوكم عـــدد من قادة هذه الحركة كان على رأسهم وفي مقدمتهم الشيخ يحيى علي العظيم آبادي ، والشيخ أحمد الله العظيم آبادي ، والشيخ جعفر علي التهانيسري ، والشيخ عبد

---

(١) اقرأ التفاصيل في كتاب « مسلمو الهند » لويليم هنتر ، السابق ذكره .

الرحيم الصادق پوري ، حكم عليهم بالاعدام ثم بدل هذا الحكم بالنفي المؤبد إلى « پورت بلير » اندمان (في جزائر سيلان) ومات الشيخ يحيى علي ، والشيخ أحمد الله في الجزيرة ، ورجع الشيخ محمد جعفر وزملاؤه بعد أن قضوا في المنفى ثماني عشرة سنة في سنة ١٨٨٣ م ، وهي قصة مشجية مثيرة حكاها محمد جعفر في كتابه « المنفى الأسود[١] » أو « التاريخ العجيب » .

وتاريخ هذا الجهاد الطويل والبطولات النادرة موضوع كتاب مفرد وسفر مستقل ، وإلى القارىء فصلاً من فصول هذا التاريخ العجيب .



---

(١) اسمه في اردو « كالا باني » او « تاريخ عجيب » وقد طبع هذا الكتاب مراراً وذاع واشتهر .

من الشنق الى المنفى

في اليوم الثاني من شهر مايو سنة ١٨٦٤م (١٢٨٠ هـ) جلس (ايدورس) القاضي الانجليزي على كرسي في محكمة « أنبالة »[١] وجلس بجانبه أربعـة من المساعدين المستشارين من وجهاء البلد ليروا رأيهم في القضية، ووقف أمام هؤلاء أحد عشر رجلاً تنطق وجوههم وملامحهم بشرفهم وبراءتهم ، ولكنهم اعتبروا من كبار الجناة والمجرمين ، فانه يقال إنهم دبروا مؤامرةضد الحكومة الانجليزية في الهند ، وكانوا يساعدون أنصار السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد والمجاهد الجليل الشيخ اسماعيل الشهيد على حدود أفغانستان بالمـال والرجال يرسلونها سراً من داخل البلاد بحكمة عجيبة ،وقد وضعوا لمراسلاتهم لغة رمزية ، وكانوا يجمعون إعانات من رعايا الانجليز أنفسهم ويرسلونها إلى مركز الثوار ، عثرت على ذلك الحكومة بوشاية جنـدي مسلم في جنود الانجليز وألقت القبض عليهم في « بتنه » و « تهانيسر » و « لاهور » وحاكمتهم ، وهذا يوم يصـدر فيه الحكم عليهم .

غصت المحكمة بالزائرين فقد كانت القضية حديث المجالس ، وحـان صدور

---

(١) مدينة كبيره في شرقي بنجاب وكانت ثكنة انجليزية ومركزاً إدارياً كبيراً في العهد الانجليزي .

الحكم فشخصت الأبصار وأصغت الآذان واضطربت القلوب وخفتت الأصوات وإذا بالقاضي يتكلم في صوت الغضبان ويخاطب شاباً جميلاً قوياً يظهر أنه ربيب نعمة وسليل شرف :

« إنك يا جعفر رجل عاقل متعلم ، ولك معرفة حسنة بقانون الدولة وأنت عمدة بلدك ومن سراته ، ولكنك بذلت عقلك وعلمك في المؤامرة والثورة على الحكومة ، وكنت واسطة في انتقال المال والرجال من الهند إلى مركز الثوار ولم تزد إلا أن جحدت وعاندت ، ولم يثبت أنك كنت مخلصاً وناصحاً للدولة ، وها أناذا أحكم عليك بالاعدام ومصادرة جميع ما تملكه من مال وعقار ، ولا يسلم جسدك بعد الشنق إلى ورثتك ، بل يدفن في مقبرة الأشقياء بكل مهانة ، وسأكون سعيداً مسروراً حين أراك معلقاً مشنوقاً »

استمع الشاب في سكينة ووقار ، ولم يتغير ولم يضطرب ، ولما انتهى القاضي من كلامه قال محمد جعفر : « إن النفوس والأرواح بيد الله تعالى . يحيى ويميت وإنك أيها القاضي لا تملك حياة ولا مماتاً ولا تدري من السابق منا إلى منهل الموت .

فوالله ما أدري وإني لأوجل   على أينا تغدو المنية أول

ثار الرجل غضباً وجن جنونه ولكنه قد أطلق آخر سهم من سهامه لا يملك غيره .

استبشر محمد جعفر حين صدر عليه الحكم فتهلل وجهه فرحاً ، كأنما تمثلت له الجنة وتمثلت له الحور والقصور وتمثل بيت الشاعر :

هذا الذي كانت الأيام تنتظر   فليوف لله أقوام بما نذروا

أخذ الناس العجب مما رأوا ، ودنا إلى محمد جعفر ضابط انجليزي يقال له

«بارسن» وقال له: لم أرك كاليوم قد حكم عليك بالاعدام وأنت مسرور مستبشر، قال محمد جعفر: «وما لي لا أفرح ولا استبشر وقد رزقني الله الشهادة في سبيله وأنت يا مسكين لا تدري حلاوتها».

وحكم القاضي على رجلين آخرين بالاعدام أحدهما شيخ تلوح عليه سيما الصالحين وآية العابدين، قد تلقى النبأ في سرور وشكر، وهو مولانا يحيى علي الصادق پوري أمير هذه الجماعة، والآخر شاب يظهر أنه من الأغنياء والتجار الكبار، وأن أصله من بنجاب، وهو الحاج محمد شفيع، وحكم على الثمانيـــة الآخرين بالنفي المؤبد.

سمع الناس المجتمعون الحكم في حزن وأسف شديـــد، وفاضت العيون، وسالت الدموع، واجتمع الناس من رجال ونساء على جانبي الشارع إلى السجن ينظرون إلى هؤلاء المظلومين ويرثون لهم.

ووصلوا إلى السجن ونزعت ثيابهم وألبسوا ثيـــاب المجرمين، وسجن كل واحد من الثلاثة في حجرة ضيقة مظلمة لا يدخل فيها الهواء ولا ينفـــذ فيها النور، وباتوا فيها في حر شديد، بشر ليلة بات بها قوم، وجاءت بكرة برقية تسمح لهم بالمبيت في الميدان.

وفي النهار أعيدوا إلى حجراتهم الضيقة، كان لا يمكن أحداً أن يعيش في مثل هذه الحجرة الضيقة مدة أسبوع، ففتح بابها وعين جندي يحرس هؤلاء، وكان هؤلاء الجنود أكثرهم من غير المسلمين، فـــكان مولانا يحيى علي ينتهز الفرصة ويأتسى بأسوة يوسف الصديق عليه السلام، ويخاطب الحارس ويقول: «أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار» فيظل الرجل باكياً، فان نقل من مكانه حزن حزناً شديداً.

وهكذا غرس الشيخ في قلوب كثير من أصحاب السجن عقيدة التوحيد،

وبذر فيها بذور الايمان وكم من رجال أسلموا ، وكم من ناس تابوا ، وكان الشيخ لا يضيع فرصة فإذا صادف أحداً أمره بالمعروف ونهاه عن المنكر .

وبدأ زبانية السجن يصنعون لهؤلاء حبلاً وعوداً للشنق على مرأى منهم ومسمع ، وهؤلاء يرون كل ذلك مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

أما مولانا يحيى علي فهو من أشد الناس فرحاً كأنه من شوق الجنة في الجنة ، ومن انتظار النعيم في النعيم ، ينشد الأبيات في حنين ووجد ، ويتمثل بما قال سيدنا خبيب رضى الله عنه عند شنقه .

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع[1]

وكذلك رفقته ، وجوه ضاحكة مستبشرة ، ونفوس هادئة مطمئنة ، وقلوب راضية مسرورة ، خشوع في الصلاة وعبادة في نشاط ، وذكر وتسبيح وتلاوة آيات ، وحنين ووجد وإنشاد أبيات .

مات القاضي الانجليزي – الذي حكم على هؤلاء الثلاثة بالاعدام – فجأة على إثر الحكم ، وجن الضابط الانجليزي « بارسن » الذي ألقى القبض على محمد جعفر ، وضربه يوماً من الساعة الثامنة صباحاً إلى الساعة الثامنة مساءاً ، ومات في جنونه شرميته ، فكان كما أنذر محمد جعفر ، و« رب أغبر أشعث لو أقسم على الله لأبره[2] » .

وكان يدخل إلى السجن كثير من الانجليز والافرنجيات يتفرجون على هؤلاء

---

(١) الشلو العضو من أعضاء اللحم ، والممزع المقطع .
(٢) حديث صحيح .

السجناء يشمتون بمصير الأعداء ، وكانوا يقضون العجب من سرورهم ونشاطهم ويسألونهم لماذا لا تحزنون يا هؤلاء وأنتم على عتبة الموت وعلى موعد من الشنق؟ فيجيبونهم : هذا لأجل الشهادة التي ليس فوقها نعمة وسعادة .

ويرجعون إلى الحكام الانجليز ويحدثونهم بما رأوا وبما سمعوا ، فيزدادون غيظاً على غيظ ، ولكن ماذا يصنعون ؟ إنهم إذا أطلقوهم فقد أطلقوا أعداء قد ثاروا على الدولة ، وأنهم سيرجعون إلى ذلك ، وإذا شنقوهم وقتلوهم فقد بلغوهم أملهم واجتهدوا في سرورهم .

قد عز على الانجليز كل ذلك ولم تطب أنفسهم به .

فكروا في القضية ، وفكروا ، وفكروا ، ووجدوا طريقاً وسطاً بين القتل والاطلاق ، والانجليز أمة قانونية ذكية .

في يوم من الأيام جاء حاكم المدينة الانجليزي إلى السجن وتلا على الثلاثة المحكوم عليهم بالاعدام ، حكم محكمة الاستئناف .

« إنكم أيها الثوار تحبون الشنق وتعدونه شهادة في سبيل الله ولا نريد أن نبلغكم أملكم ، وندخل عليكم السرور ولذلك ننسخ حكم الاعدام ونحكم عليكم بالنفي المؤبد إلى جزائر سيلان » .

وهنا قصت لحاهم وشعر رؤوسهم ، وكان مولانا يحيى علي يرفع الشعر ويخاطب لحيته المقصوصة ويقول :

« وفي سبيل الله ما لقيت »

وشنق انجليزي بحبل وعود أعد لأولئك المسلمين فانعكست الآية .

وأمر المسجونون بالاشتغال بأعمال شاقة ، وأمر مولانا يحيى علي بنزع الدلاء من بئر ، وكانت كبيرة وثقيلة لا ينزعها الشبـــان الأقوياء إلا بشق الأنفس ، والأستاذ شيخ قد أضنته العبادة والسهر والسجن الطويل ، وكان اليوم صائفاً شديد الحر ، فنزف الدم في بوله ، ولكنه استمر في شغلهصابراً محتسباً لا يشكو ولا يئن ، ثم نقل إلى عمل سهل فكان يقوم به بأمانة ونصيحةويوصي المسجونين الآخرين بذلك أيضاً ويقول لهم : إذا كنتم تتمتعون هنا بطعام ولباس فما بالكم لا تؤدون وظيفتكم بأمانة ونصيحة .

ولم يزل الشيخ في السجن آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، داعياً إلى الله، واعظاً مرشداً حتى تاب كثير من المجرمين وأنابوا إلى الله .

ونقل الشيخ من « أنباله » إلى « لاهور » وأقام في سجنه عاماً كاملاً وكان هناك الجناة واللصوص وقطاع الطريق والفساق ، فـــكان يقبح لهم الجنايات والفسوق والعصيان ، ويزين لهم الدين والتقوى والعفاف ، ويحثهم على الطاعـة والتوبة والانابة وإصلاح الحال ، ويدعوهم إلى التوحيد والمحافظة على الصلوات والصيام ، ويحذرهم من عذاب الله ونقمته ، فتاب كثير من اللصوص وقطـاع الطريق وحسن حالهم ، وأخلصوا لله الدين وتابوا وأقاموا الصلاة .

وكان من هؤلاء رجل من « بلوجستان » شديد البطش جبـاراً ، وقد سطا بخدم السجن مراراً وضربهم بسلاسله ، وكان لا يقوم بأعماله ووظائفه ، وقـد عوقب عقاباً شديداً ولم يتب ولم يلن ، ويئس منة زبانية السجن وقطعوا منــه الرجاء وصادف مبيته مرة بالقرب من الشيخ وأثر كلامه في قلبه ، فحسن حاله وصار يؤدي وظيفتة وفكت سلاسله وأغلاله ، فصـــار يحافظ على الصلوات الخمس ويبكي خوفاً من الله ، ومن رأه شهد بأنه ولي من أولياء الله .

ولم يزل الشيخ ورفقتـــه ينتقلون من سجن إلى سجن ومن محبس إلى محبس

حتى وصلوا في الثامن من ديسمبر سنة ١٨٦٥ م إلى « بورت بلـير » من جزائر إندمان ، ومات الشيخ هناك بعد عامين قضاهما في عبـادة ودين ودعوة الخلق إلى الله وكان ذلك سنة ١٢٨٤ هـ (٢٠ من فبراير سنة ١٨٦٨) .

أما الشيخ محمد جعفر فقد صدر الحكم بالعفو عنه وإطلاقه في الثاني والعشرين من يناير سنة ١٨٨٣ بعد ما لبث في السجن ثمانية عشر عاماً .



شهداء بالاكوت يتكلمون[1] !

ونعود إلى حديث بالاكوت فنقول :

لقد استشهد في معركة بالاكوت نفوس أبية زكية ، كانت زينة الدنيا ، وبركة الوجود ، ومفخرة الاسلام ، وشرف المسلمين ، إن الرجولة والشهامة ، والصدق والأمانة ، والعفة والنزاهة ، والورع والتقوى ، والتمسك بالسنة ، واتباع الشرع ، والحمية الدينية ، والبطولة الاسلامية التي كانت عصارة أزهار وورود كثيرة ، بل حدائق منوعة ، وجنات مختلفة من هذه البلاد المترامية الأطراف الواسعة الأرجاء ، وكانت تستطيع أن تصنع للمسلمين تاريخاً جديداً وتفتح لهم عهداً زاهراً سعيداً ، وقد تعطر الدنيا كلها بشذاها إذا قدر لها البقاء بعض الوقت ، إنما أريقت على الأرض وضاعت في تراب « بالاكوت » في اليوم الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ١٢٤٦ هـ وصار قيام الدولة الشرعية والحكم الإسلامي على منهاج النبوة والخلافة الراشدة حلماً بعيد المنال ، أو ضرباً من الوهم والخيال .

---

(١) فصل من فصول كتاب « سيرة سيد احمد شهيد » ج ٢ للمؤلف ، نقله الى العربية بطلب من المؤلف ابن اخيه الاستاذ محمد الحسني رئيس تحرير مجلة « البعث الاسلامي » ليكون خاتمة هذا الكتاب .

إن أرض « بالاكوت » رويت بدماء طاهرة نقية لم تتلوث بالدنيا وأوضارها واعتزت وتجملت بشهداء لم نجد لهم نظيراً في القرون المتأخرة ، في الاخلاص والربانية ، والهمة والشهامة ، والبطولة والاستقامة ، والشجاعة والبسالة ، وفي عاطفة الجهاد ، وحب الشهادة ، إن من يطأ اليوم هذه المنطقة الجبليــة الوعرة بأقدامه ، ويقطع هذه الوهاد والأنجاد لحاجة من حوائجه ، وغرض من أغراضه ، لا يستطيع أن يتصور ما ضم هذا الوادي في أحشائه من كنز ثمين من المحبين والشهداء ، وما أخفى بين جوانحه ، من ثروة غالية من إعلاء كلمــة الله ومن الحب الخالص في سبيل الله .

لقد عاهدوا الله على أنهم سيجاهدون إلى آخر أنفاسهم ولحظات حياتهم ، لأعلاء كلمته وإظهار دينه ، ورفع رايته ، وتنفيذ شريعته ونشر هديه ونوره ولو كره المشركون ، وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وظلوا يجاهدون بكل نشاط وحماس وشوق ، لا يثني همتهم شيء حتى لفظوا نفسهم الأخير ووقعوا على وثيقة الحب والفداء بدمائهم السخية النقية ، ويا له من توقيع ، ولعل ليلة الخامس والعشرين من ذي القعدة كانت الليلة الأولى التي ناموا فيها نومة هادئة ، وقد تحرروا من أثقال رؤوسهم ، وأغلال أجسادهم ، ويا له من تحرر !

إنهم رجعوا بعد أن حملوا أوسمة الشهادة على صدورهم إلى ربهم الكريم الذي لا يبالي بتحقيق الأماني وبلوغ الأهداف ، ونتــائج الكفاح ، ولا يعاتب على الهزيمة والانكسار ، ولا يحاسب على الاخفاق في إنشاء دولة وإقامة حكم ووضع نظام وتحرير بلاد ، إنه ينظر فقط إلى شيئين اثنين .

الصدق والاخلاص ، واستخدام الوسائل وبذل المجهود .

وقد تحقق أن شهداء «بالاكوت» لم يدخروا وسعاً في بذل أنفسهم وأموالهم واستخدام وسائلهم ومواهبهم ، مخلصين صادقين ، حتى نالوا شرف الدنيــا والدين ، وحظوا بالقبول عند الله وعند المسلمين .

إن تلك الدماء التي غابت في تراب « بالاكوت » بمرأى من الجميع فلم يبق منها عين ولا أثر ، تلك الدماء التي لم تنجب دولة ولم تنشيء أمـة ، ولم تحقق حلماً ، أكبر وزناً وأكثر قيمة وأرفع منزلة في ميزان العـدل الإلهي من دول كبيرة قوية ، وامبراطوريات ضخمة ، إن هؤلاء المجاهـدين الفقراء الغربـاء الذين ضحوا بأرواحهم في غير مواطنهم وبلادهم، وما وجدوا ميرة ولا مدداً[1]، أشرف عند الله وأكرم عليه من أباطرة وملوك مستكبرين، حكموا امبراطوريات وأنشأوا حكومات ، والذين قال الله عنهم « وإذا رأيتهم تعجبـك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة[2] » .

مما لا شك فيه أن دماء شهداء « بالاكوت » لم تحدث تغييراً في خريطـة العالم السياسية والجغرافية وإن هذا الخط الدقيق من الدم الذي فاض في زاوية صغيرة من الأرض لم يجد مكاناً في الأطلس[3] الطبيعي ولا في التاريخ السياسي ، ولكن من يدري ما هي مكانتها في سجل القضاء والقدر ، ومـا هي حرمتها عند المليك المقتدر ؟ وكم غسلت من وصمات عـار ، ولو ثات إدبار ، عن طالع المسلمين ، وكانت سبباً في إجراء أحكام ومحو أخرى عنـد الله (يمحو الله مـا يشاء ويثبت وعنـده أم الكتاب[4]) فليس من المستغرب إذا هي آذنت لدولة قوية عتيدة بالأفول والزوال، وقضت لشعب متأخر فقير بالانتصار والازدهار ، فطلع بها نجم ، وأفل بها نجم ، وليس ببعيـد إذا هي حولت المستحيلات ، وكذبت القياسات والتخمينات ، إن كل ذلك في علم الله، وليس بمقدور بشر أن يستعرض آثار هذه الدماء في مسيرة الزمن بمجرد العقل والذكاء .

---

(١) المدد ، الغوث وما يمد به الجيش .

(٢) سورة المنافقون . الآية ٤ .

(٣) الاطلس ، مجموعة خرائط جغرافية مجلدة ، والكلمة من الدخيل .

(٤) سورة الرعد الآية ٢٩ .

إن كل شهيد من شهداء « بالاكوت » ينطـــق ويقول : « يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين[1] » إنهم يقولون بلسان حــالهم ، إننا جاهدنا ليجد المسلمون فرصة طيبة وجواً صالحاً يقيمون فيـــه شعائر الله ويمثلون فيه الحياة الاسلامية أصدق تمثيل ،ويتمكنون من تحكيم شرعه واجراء أحكامه وحدوده على عباده وفي بلاده ، ويقدمون نموذجاً مثالياً حيــاً للمجتمع الاسلامي ، يكسبون به للاسلام أعواناً وأنصاراً ، ويقيمون به على صلاحيته وخلوده دليلاً وبرهاناً ، مجتمع اسلامي حر لا تسيطر عليه النفس ، ولا يقوده الشيطان ، ولا يستبد به حاكم أو سلطان ، ولا تتحكم فيه التقاليــد والعادات الجاهلية « ويكون الدين كله لله[2] » مجتمع يفتح أبوابه على مصاريعها[3] للطاعة والعبادة ، والبر والتقوى ، ويسدها على الفسق والفجور ، والمعصية والعدوان ، تطبيقاً للآية « الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر[4] » .

لقد قدر الله لنا الشهادة في سبيله والفوز بمرضاته مقابل تحقيق هذه الأمنية الغالية والفوز والنجاح في الدنيا ، ونحن بقضاء الله راضون ،وبحكمه مرتاحون، وبنعمته فرحون ، فإذا قدر الله لكم فرصة لاعادة الحياة الاسلامية واقامـــة المجتمع الاسلامي في أي دور من أدوار التاريخ ، ووجدتم جواً حراً لتطبيق الشريعة الاسلامية ، ولم تحل بينكم وبين اقامة شرع الله واعادة حكم الله ،دولة دخيلة أو غاصب أجنبي ثم انسحبتم عن الميدان وتخليتم عن هذا الواجب ووليتم على أعقابكم مدبرين ، ورميتم بتلك الشروط والصفات والخصائص والسمات التي امتاز بها المهاجرون والمستضعفون في عهد نهضتهم واستعلائهم وتمكينهم في الأرض

(١) سورة يس الآية ٢٧ .
(٢) سورة الانفال الآية ٣٩ .
(٣) مصراع الباب ، احد غلقيه يقال فتح الباب على مصراعيه يعني فتحاً كاملا .
(١) سورة الحج الآية ٤١ .

عرض الحائط[1] كان ذلك نكراناً للجميل ، وجحوداً بالفضل، وكفراً بالنعمة ونقض عهد واخلاف وعد قد يندر نظيره في التاريخ .

ان دماءنا التي أهرقناها بسخاء في ساحات الوغى ومعارك الفـداء ، وفي مشهد « بالاكوت » في آخر المطاف توقيعات ووثائق على جهادنا وشهادتنـا ، فهذه المنطقة كلها مقبرة الشهداء ، أما أنتم فقد نلتم بمحاولة بسيطة حيناً،وبجرة قلم بعض الحين مساحات واسعة شاسعة ، جميلة خضراء من الأرض ، بل ورثتم بعض الأحيان دولاً عظيمة مرهوبة الجانب « ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون[2] » فان لم تنتهزوا هذه الفرصة السانحة وجعلتم هذه الحرية وهذا الانتقال مطية لأغراضكم وأداة لتحقيق شهواتكم ، ولم تقيموا حكم الله وشريعة الاسلام على نفوسكم وعشيرتكم ، وعلى شعبكم ، وأصبحت دولكم وحكوماتكم لا تختلف عن الدول الأجنبية ، والحكومات العلمانية المادية ، في الحضارة والمدنية ، والتشريع والقانون ، وأصبح حكامكم لا يختلفون عن هؤلاء الحكام في الأخلاق والسيرة ، والثقافة والتربية ، لم يبق عندكم عذر أمام شعوب العالم التي كنتم معها في صراع باسم الاسلام ، وأمـام الله العليم الخبير يوم يقوم الأشهاد ، حيث تحاسبون على كل صغير وكبير .

لقد أتاح الله لكم فرصة لم نتمتع بها ، فرصة ذهبية لا يجود بها الزمان إلا نادراً ، فرصة تعاقب لها الليل والنهار ، وقلب لهـا التاريخ الاسلامي آلاف الصفحات ، وعاش في آمالها المعسولة وأحلامها اللذيذة عدد لا يحصى من النفوس المؤمنة الزكية ، وأصحاب الطموح والهمة ، والغيرة والحمية ، وفارقوا هـذه الدنيا قبل أن يبلغوا مناهم ويرووا غلتهم ، فإذا ضيعتم هذه الفرصة الغاليـة ، فرصة تمثيل الحياة الاسلامية الجميلة ، بأجمل صورها وأروع معانيها ، وأوضح

---

(١) أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير .

(٢) سورة يونس الاية ١٤ .

أشكالها ، كان ذلك مأساة رهيبة في التاريخ ، وكارثة أليمة تقصم الظهور ، وتقلع الأمل من القلوب والصدور .

ان هؤلاء الشهداء الذين ينامون نومة هادئة وادعة في زاوية صغيرة في هذه القرية الجبلية البعيدة « بالاكوت » يتحدثون اليوم الى شعوب اسلامية نالت الحرية ، ونعمت بالاستقلال وملكت زمام القيادة ويقولون :

« فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم[١] .



(١) سورة محمد الاية ٢٣ .

لمحـــة موسعة

عن حياة الشهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد احمد بن عرفان الشهيد رحمة الله عليه

من المولد إلى الشهادة

١٢٠١ هـ / ١٧٨٦ م — ١٢٤٦ هـ / ١٨٣١ م

[إعداد وتلخيص : السيد محمد الثاني الحسني رئيس تحرير مجلة « رضوان » الصادر من « لكهنؤ » ، الهند .

نقل وتعريب : واضح رشيد الحسني الندوي]



الهند في القرن الثالث عشر :

كانت الهند في القرن الثالث عشر للهجرة (أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر للميلاد) قد وصلت إلى الحضيض بالانحطاط السياسي ، والديني ، والخلقي ، وقد تفرقت عصا المغول ؛ فكانت الهند كلها خاضعة ، اما لشركة الهند الشرقية أو حلفائها أما الأجزاء المتبقية المنعزلة منها ، فكانت خاضعة لسلطة الاقطاعيين ، والراجاوات ، والنواب

الذين كانوا ينقادون بدورهم طوعاً أو كرهاً للانجليز ، ويسلّمونهم مناطقهم ، ولم يكن آخر الملوك المغول : الشاه عالم(الذي ولد السيد احمد الشهيد في عهده) إلا ملكاً بالاسم ، لا حول له ولا طول ، وكانت سائر المناطق الواقعة بين الجنوب الذي كانت فيه حكومة « حيدر آباد » إلى « دلهي » تحت رحمة المرهتيين ، أما السيخ فكانوا يحكمون المناطق الواقعة بين « بنجاب » إلى « أفغانستان » ولا يأمن استبدادهم الجزء الشمالي ، والمركزي للهند ، وكانت « دلهي » وضواحيها عرضة لغارات السيخ والمرهتيين حيناً بعد حين ، وكانت هيبة المسلمين السياسية قد خرجت عن القلوب ، ولم يكن لهم قائد يؤلف شملهم ، ويوّحد صفوفهم ، فعمّت الفتن والاضطرابات ، وتوالت عليهم المحن التي كانت تضعفهم وتزيد وهنهم ، وتؤلب عليهم أعداءهم .

سبّب تدهور الحالة الخلقية للمسلمين في البلاد ، في تفشي حياة الخلاعة والمعاصي ، ودخلت عادات قبيحة كثيرة في حضارتهم وثقافتهم ، وكانوا يتباهون ويعتزون بها فكان شرب الخمر أمراً عادياً بسيطاً ، لا يأنف منه المسلمون ، وعمّت الملاهي ونوادي الطرب والغناء والرقص ، واصطبغ الناس من الأغنياء ورجال الطبقة المتوسطة حتى الفقراء بهذه الصبغة ، وأصبحوا عرضة للفساد الخلقي ، ويمكن أن يقاس مدى انغماس الناس في الانحلال الخلقي ، والشرود الفكري ، والفتور القومي ، بأن عدداً من النساء المسلمات كنّ في دور التجار والحكام الأوروبيين قبل أن ترسخ قدم الانجليز كلياً في أرض الهند ، وعمّ الشرك والبدع في المسلمين ، فاتخذوا لهم شريعة خاصة لتقديس القبور والموتى ، وحلّ المشائخ ورجال الدين في قلوبهم محل كهنة النصارى واليهود ، وبلغ تقديسهم لهم مبلغ تقديس المشركين العرب أربابهم ، ودخلت طقوس وعادات الهنادك والشيعة في حياة أهل السنّة ، وصارت جزءاً لا يتجزأ منها ، وأصبحت السنّة والشريعة درساً منسياً ، وانصرف الناس عن الشعائر الاسلامية ، وكاد العمل بالقرآن والحديث يبطل ،

وتضاءل الاهتمام والعناية بها ، وكره الناس زواج الأرامل ، وإشراك البنات في الارث ، وتركوا السلام بطريق السنّة في كثير من الأماكن ، كما أن طائفة من العلماء أسقطت فرضية الحج ، وهو من أهم أركان الاسلام ، بعذر أخطار السفر واضطراب النظام ، وأصبح القرآن لهم لغزاً يقتصر فهمه ودراسته على العلماء والراسخين في العلم ، لا يقصده أحد غيرهم .

ولكن رغم هذه الظروف السائدة ، لا يصح أن يقال : إن الهند كان يسود عليها الظلام المطبق ، وانها تجردت عن النشاط السياسي ، والحرارة الايمانية ، في القرن الثالث عشر تجرداً كلياً ؛ فكانت آثار الحياة وإشعاعات النور تتخلل الانحطاط الذي قد أحاط بالهند ؛ فكان مستهل القرن الثالث عشر من أهم العصور في تاريخ الهند الاسلامي ، بالنظر إلى شخصيات بارزة ، كانت تمتاز بخدماتها عمّا أنجبته القرون السالفة من شخصيات ؛ فأنجب هذا القرن عدة شخصيات تمتاز بعلو كعبها في العلم ، والدين ، والذوق السليم ، والمعرفة الواسعة عن الكتاب والسنّة ، والذكاء ، والصلاحية ، والملكة الراسخة ، والسليقة العلمية ، والدرس والتدريس ، والتصنيف والتأليف ، والتبحّر العلمي ، والشعر والأدب ، والربّانية وتهذيب النفس، والعلوم الأخرى التي كانت تتفرّد فيها ، ولم يكن هذا العهد رغم الفقر في الرجال والنوابغ يخلو من طلب الدين وتقديره ؛ فكانت توجد في أماكنَ مختلفة ، شبكة للمدارس ومعاهد للتعليم الديني ، ومراكز التربية الروحانية، وكان العلماء في مختلف مدن البلاد يقومون بعمل نشر العلم والدين ، والتصنيف والتأليف ، ينهمكون فيها كل الانهماك ، منصرفين عن الأعمال الأخرى ، وكانت المدارس عامرة بطلبة العلوم الدينية ، ومراكز التربية الروحانية ، والزوايا ، بالقلوب الدفاقة، والمتعطشين إلى التربية الروحانية ، وكان يكوّن كبار رجال التدريس والسلوك ، كلّ بمفرده مدرسة عامرة ، وزاوية مستقلة ، وقد يجتمع المركزان العلمي والروحاني ، في مكان واحد .

لا شك أن هذه المراكز العظيمة ، والثروة العلمية والدينيـة ، التي قامت بمساعي السلف ، بدأت تنكمش بمرّ الأيام وتفنى ، لأنها كانت تحتـاج إلى دم جديد ، ومد جديد ؛ فقد كان باب الدعم والانعاش مغلقاً رغم وجود صلاحيات بارزة ، وكفاءات هائلة ، ولكنها لم تكن تجد منفذاً لإشعاعها وبسط نورها ، وكانت الصفات العالية مثل الشجاعة ، والجلد ، وعلو العزيمة ، وقوة الشكيمة والغيرة والحمية الدينية والأنفة ، تستخدم لتحقيق مقاصد تافهة حقيرة ، لأن الحياة كانت بلا هدف سام ، ولم يكن هناك اتجاه سليم لصرف الهمم ، وتوجيه الكفاءات ، فكانت العواطف والطموح تتجه إلى اتجاه خاطىء ، غير بنّاء .. أفراد ولا مجتمع ، أوراق ولا كتاب يؤلفها ، فكانت عجلة الحياة منحرفـة عن الخط السليم ، والجادة المستقيمة ، لم يكن هناك سمط لنظم الدور واللآلي ، فصارت الحياة بلا حركة نافعة ومجدية .

في مثل هذا الوضع المضطرب كانت الحياة تتعطش إلى شخص أو جماعـة تحوّلها إلى المجرى الصحيح ، وتستغل الثروة الدينية ، والكفاءات العلميـة استغلالاً صحيحاً ، ونافعاً مثمراً ، ويحيى روح الزوايا وعلم المدارس ، وحرارة الأولى ونور الآخرة ، ويعممها في سائر أنحاء البلاد ، والذي يضم في حضنـه مثل الزوايا ، ونماذج المدارس المتنقلة ، فيكون على متن الفرس عالمـاً ، وفي المحاريب مجاهدا ، يلهب جذوة الايمان من جديد ، ويعيد الحرارة إلى القلوب الفاترة مرة أخرى ، وينفخ الروح في الجسد الميت ، ويحيى الحرص على نيـل علم الدين ، والحمية الدينية من أدنى الأرض إلى أقصاها ، ويصرف السليقـة الطبيعية والكفاءة المرهوبة للمسلمين إلى الاتجاه السليم ، ببصيرته وتشخيصـه الصميم ، فلا يستهين بشيء ولو كان مهيناً ، ويستغل كل حبة من ذخيرة الأمة ، وكل ذرة من صحرائها لبناء صرحها من جديد ، وكل من يتصف بهذه الصفات السامية يعدّ إماماً في المعجم الاسلامي ، واحتل هذه المرتبة السامية في رجال القرن الثالث عشر بين مشاهير العلماء و كبار القادة السيد أحمد الرائي بريلوي

الذي يشتمل هذا الكتاب على نبذة من أحواله ، وقصصه ، ووقائع عزيمته ، وجهاده ، وتأثيره ، وقوة تربيته ، وحياته التي لا تعرف الهدوء والاستقرار .

أسرته :

كان شيخ الاسلام قطب الدين محمد المدني بن رشيد الدين الذي كان جده الثاني عشر محمد (ذو النفس الزكية) بن عبدالله المحض بن حسن (المثنى) بن حسن بن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – عالماً وعارفاً بالله ، وشيخاً عالي الهمة ، وهبه الله تعالى مع علمه وتقواه ، صفات الشجاعة وعاطفة الجهاد ، وقد وصل إلى الهند بطريق « غزنين » مع جماعة كبيرة من المجاهدين ، وبعد تعريجه على أماكنَ مختلفة فتح « كَـرَهْ » في ولاية « إله آباد » واستوطنها بعد فتحها ، وتوفي فيها ، وبها قبره ، رزق الله تعالى أولاد السيد قطب الدين مع السيادة والامارة ، العلم ، والفضل ، والزهد ، والورع ، وكان في أخلاق السيد قطب الدين الشيخ علم الله ، أحد كبار المربين في عهد الامبراطور « عالم كير » له أتباع وتلاميذ يكثر عددهم ، وقد أجازه السيد آدم البنوري أحد كبار خلفاء الشيخ أحمد السرهندي المعروف بـ « مجدد الألف الثاني » وكان متورعاً للغاية ، ومتبعاً للسنة ، وزاهداً ربانياً ، توفي في ١٠٩٦ هـ ١٦٨٤ م ، ودُفن في زاويته التي أنشأها في « رائي بريلي » .

مولده :

ولد السيد أحمد بن السيد محمد عرفان بن السيد محمد نور ، والشيخ علم الله جده الخامس في صفر ١٢٠١ هـ ١٧٨٦ م ، ودخل الكُتاب وهو لم يناهز أربع سنوات من العمر ، ولكنه رغم جهده لم يرعب في التعلم ، فلم يحرز أي سبق في الدراسة ، وقد كان ولوعاً منذ صباه بالألعاب ، والفروسية ، والرياضة ، فلما بلغ أشدّه جعل خدمة

الخلق نصب عينه ، فكان شغوفاً بها ، وكان يأتي بأعمال يعجز عنها حتى كبار الرجال الصالحين ، فلا يترك فرصة لخدمة الأرامل ، ولكن لا يقف ذلـــك في انهماك في العبادة فيقضي ساعات في تأملاته وذكر الله ، والتسبيـــح له بكرةً وأصيلاً ، ثم ينصرف إلى التمرينات الرياضية المختلفة للتربية الجسمانية ، وكان يتقن السباحة فكان يقضي وقتاً طويلاً في الماء .

السفر الى « لكهنو » في طلب الرزق :

توفي والده الشيخ محمد عرفان وهو في الثانيـــة عشرة من عمره ، فاقتضت الظروف أن يتولى مسؤوليات منزله ، ويفكر في طلب الرزق ، فخرج مـــع سبعة من أقاربه إلى « لكنؤ » سعياً وراء الرزق في السادسة عشرة من عمره ، وتبعد « لكنؤ » بنحو ٧٢ كيلومتراً عن « رائي بريلي » ، ولم يكن هنـــاك نظام للمواصلات ، وكان لديهم مركب واحد ، يركبه كل شخص بالتناوب ، وإذا أتى دور الشيخ احمد منحه لأحد أقاربه ، وأصر على إركابـــه ، وسار مشياً على الأقدام ، وقطع المسافة كلها خادماً يحمل أمتعتهم ، فوصـــل إلى « لكنؤ » وكانت « لكنؤ » عندئذ تحت حكم النواب سعادة علي خان خلف النواب شجاع الدولة ، وكان النواب ذا همّة عالية ، وقدرة إدارية فائقـــة ، ولكن كان الناس رغم ذلك .. يعانون بطالة ، وبؤساً عامـــاً باستثناء بعض الاقطاعيين ورجال التجارة .

وتفرق جميع الرفقاء سعياً وراء كسب العيش ،وانهمكوا في أعمالهم ،وكان العيش غالياً وفرص العمل غير متوفرة ، فلم يكونوا يكسبون بعد جد وكد ، وشغل شاغل طول النهار سوى ما يسدون به الرمق ، أما السيد احمد نفسه ، فقد كان ضيفاً على أحد الأثرياء ، الذي كان يكنّ لأسرته احترامـاً ، وينظر إليه بعين التقدير والاجلال ، وكان السيد احمد كلما ورد إليه غذاؤه ، آثر به رفقاءه ، واكتفى هو بما تيسر من الطعام الخشن .

في حضرة الشيخ عبد العزيز :

قضى السيد أحمد أربعة شهور في هذه الحال ، وذات يوم توّجـــه والي « لكنؤ » للصيـــد إلى منطقة جبلية ، ورافقه كذلك مضيف السيد أحمد ؛ فصحبه السيد احمد مع رفقائه ، وقطع هذه الرحلة أيضاً خادماً يقوم بأعمالهم ، ويريح بالهم ، ويخفف عنهم وطأة السفر ، وقد كابدوا في هذه الرحلة متاعب وصعوبات شديدة ، وكان السيد احمد طول الطريق يرّغب رفقته في السفر إلى « دلهي » ويحبّب إليهم الاستفادة من الشيخ عبد العزيز ، ثم توجه إلى « دلهي» وحده .

قطع المسافة بكاملها راجلاً ، يخدم المسافرين ، جائعاً عطشان ، حتى نقبت قدماه بالمشي الطويل على الأقدام ، ووصل إلى « دلهي » بعـــد أيام ، وحضر مجلس الشيخ عبد العزيز ، وقد كان الشيخ عبد العزيز الدهلوي يرتبط بعلاقات روحانية ، وصلات علمية مع مشايخ وأجداد السيد أحمد ، فأبـــدى سروره البالغ بعد أن تعرّف عليه فعانقه وصافحه ، وأنزله في منزل شقيقـــه الشيخ عبد القادر .

التكميل الباطني ، والاجازة والخلافة :

كانت إقامة السيد احمد عند الشيخ عبد العزيز والشيخ عبد القــادر فرصة غالية لكسب الرقي الباطني ، فارتقى خلالها إلى منازل ودرجات عاليــة ، لا يصل إليها كبار المشايخ إلا بعد جهد جهيد ، ومجاهدات مضنيــة ، وترويض نفس طويل ، ونال بعد مدة إجازة الشيخ عبد العزيز الدهلوي وخلافته ، وعاد إلى وطنه « رائي بريلي » ، وأقام عامين في وطنه ، ثم تزوج .

في جيش أمير خان :

كان السيد أحمد كما عرف من أول نشأته ، قد هيأه الله تعــالى لأمر عظيم ، وقد عجن طينته بحبه والاهتمام به ، وهو الجهاد في سبيــل الله ، وإعلاء شأن

المسلمين ، ونفض غبار الذل والهوان عن الاسلام ، فــكانت نفسه تتوق إلى مجال يُرضى فيه هذه الغريزة ، ويربي فيه ملكاته العسكرية ، ليقوم بـدوره الذي وكل إليه .

فقام برحلة أخرى إلى « دلهي » في ١٢٢٦ هـ ١٨١١ م ، وأقام برهـة من الزمان لدى الشيخ عبد العزيز ، ثم انضمّ بتوجيه شيخـه إلى جيش النواب أمير خان (الذي كان يقوم بقتال في « راجبوتانه » و« مالوه » واختار صحبته ورفقته للتربية العسكرية ، والجهد العملي ، ومقاومة خطر الزحف الانجليزي ، وكان النواب أمير خان قائداً أفغاني الأصل، ذا همّة عالية ، من سكان «سنبهل» (روهيلكهند) وقد التفّ حوله عدد كبير من المغامرين من أصحاب الطموح ، والفتوة ، والفروسية ، والرفقاء الأوفياء المتحمسين، ذاع صيته كقائدٍ عسكري وفارس ، وأصبح يخشى ويرجى في مناطق الأمراء الذين كانوا في صراع دائم ، ومعارك حربية مع الانجليز ، حتى أصبح بمر الأيام تحدّيـاً لم يكن الانجليز ليتغاضوا عنه ، ويستهينوا به .

مكث السيد احمد في جيش أمير خان ست سنوات ، وواصـل أعماله ووظائفه للاصلاح ، والتربية الروحانية ، بجـانب اشتغاله بالأمور العسكرية ، والعبادة والمجاهدة ، وبفضل جهده ودعوته ، تحول الجيش إلى مجـال واسع لأعمال الدعوة والارشاد ، وتحسنت حالة الجنود ، وصلحت حياتهم إلى حـد كبير ، وحدث انقلاب في حياة أمير خان نفسه .

العودة الى « دلهي » ، وجولات الدعوة :

قضى السيد احمد ست سنوات في هذا المعسكر ، وعندما اضطر أميرخان لبعض الظروف ، ومنها خيانة عدد من أقرب رفقائه إلى التصالح مع الانجليز ، عارضه السيد أحمد معارضة شديدة ، ولكنه دخل في صفقة مع الانجليـز رغم

معارضته ، وقبل ولاية « تونك » فيئس منه السيد أحمد ورجع إلى « دلهي » .

التفت إليه الناس هذه المرة لدى وصوله إلى « دلهي » التفاتاً كبيراً غير عادي، وبايعه خلال هذه الفترة اثنان من كبار علماء أسرة الشيخ ولي الله الدهلوي، وهما : الشيخ عبد الحي ، والشيخ محمد اسماعيل ، وكان لبيعتهما أثر عميق على سكان « دلهي » عامة ، فأقبل عليه العلماء والشيوخ ، وانضم إلى حلقته عدد لا يوجد له نظير ، فكانت سمعته ، والاقبال عليه يزداد يوماً بعد يوم ، وبدأ جولات الدعوة ، فاختار أولاً مديرية « مظفرنكر » و « سهارنفور » الآهلة بالسكان ، والحافلة بالأماكن التاريخية ، وزار مراكز أشراف المسلمين ، و« كده منكتيس » ، ومناطق واقعة بين النهرين : « جمنا » و « كنكا » و«رامپور» و « بريلي » و « شاه جهان پور » وهي مراكز الفروسية ، والحياة الاسلامية وأماكن أخرى ، وبايعه في هذه المناطق آلاف من الأسر والأفراد ، وتابوا الشرك والبدع ، وانضم إليه بالبيعة كبار العلماء والشيوخ، وبايعه في «سهارنفور» الشيخ عبد الرحيم ، وكان شيخاً مرموقاً له مركز كبير ، في تربية النفوس مع آلاف من مديريه ، ومتبعيه ، فكانت الجولة هذه رحمة واسعة ، وفيضاً عاماً ، يخلّف الخصب واليمن ، كلما مر بوادٍ أو سهلٍ ، ويتفق من شهد زياراته على أن بضع ساعات قضاها في مكان غيرت الجو وعمّرت المساجد، وأحيت السنّة، ونضرت الحياة والايمان ، وأعادت الشوق إلى اتباع السنّة ، وجدّدت الحمية الاسلامية ، وأحدثت النفور والاشمئزاز من الشرك والبدع ، وقضت على رواسب الرفض والشيعية ، وكان الشيخ محمد إسماعيل والشيخ عبد الحي في سائر هذه الجولات ، وكان لخطبهما تأثير عميق من القلوب فأحدثت انقلاباً ، وغيرت مجرى الحياة .

في الوطن :

عاد بعد هذه الجولات إلى وطنه «رائي بريلي » وكانت أيام جدب، وجفاف شديد ، يعم الفقر والبؤس ، والمعاناة والجوع في كل مكان ، وكانت نفسه تأبى

أن يأكل ويجوع جيرانه ، فتحمل بنفسه تغذية مائة شخص كل يوم ، ولكن لم يحدث بذلك أي تغير باد عليه ، كان يسود جو التوكل والثقة بالله والسكينة، وكان يحضره في ذلك الحين كبار علماء الهند ، والصوفية ، والزهاد، كل يغترف من منهله العذب ، ويقتبس من نوره ، رغم امتياز كل منهم في علومه وفنونه واختصاصه ، وكان السيد يشارك النـــاس في همومهم وأفراحهم ، ويشترك معهم في أعمالهم ، ويخدم المعترّ ، وذوي الحاجة ،فتحوّلت هذه القرية الصغيرة المنعزلة إلى مدرسة دينية ، ومركز للتربية الروحانية ، ومسرح للجهاد في آن واحد ، وكان ذلك العهد ، عهد ذوق وشوق ، وحلاوة واهتزاز النفس ، ونشوة روحانية ، ومجاهدة ورياضة ، وقام السيد خلال هذه الاقامة القصيرة بوطنه ، بجولات في مدن مهمة في الولايات الشمالية الغربية ، كـ « إله آباد » و « بنارس » و « كانفور » و « سلطانبور » . فكان يقابله الناس في كل مكان ينزل به ، جماعات ووحداناً ، ويدخلون في حلقته ويبايعونه .

جولة الدعوة والاصلاح في « لكنؤ » :

كان للأفغان مستعمرة في معسكر « لكنؤ » ، وكانوا من محبي السيد وشيوخه ، وقد بايع عدد كثير منهم مشايخ أسرته ، وأخصهم النواب فقير محمد خان قائد قواد الجيش في إمارة « أوده » فقامت على طلب منهم جماعة تتكون من ١٧٠ شخصاً بزيارة « لكنؤ » بغرض الاصلاح والدعوة الى الخير ، ورافقه في هذه الرحلة الشيخ محمد اسماعيل ، والشيخ عبد الحي ، وكان العهد عهد حكم النواب غازي الدين حيدر ، وكان النواب معتمد الدولة آغامير وزيراً له ،وقد عمّت في عهده الفوضى ، وحب المال وسوء النظام ، والظلم العام ، وحياة الترف والتبذير ، واللهو والمجون ، والمزاح والهزل ، وعدم المبالاة ، ولكن سكان المدينة كانوا رغم هذه الظروف القاسية والعاتية ، ميالين إلى قبول الخير ، يرغبون في الصلاح ، والرشد ، يوقرون الدين، ويعظمونه ،لكثرة العلماء والمشايخ ، ومراكزهم العامرة في « لكنؤ » حيث انتقل سعياً وراء

الرزق ، والسعادة في الحياة ، وتقدير العلم ، نخبة من الأشراف ، من الأسر ، والمناطق المجاورة ، فكان في خضم هذا البحر الهائل للانسانية مئات من الدرر واللآلي ، التي كانت كأنها تنتظر من يعرف قدرها ومحلها .

فأقام السيد ورفقاؤه على شاطىء نهر « الجومتي » على تل الشاه پير محمد ، ولم يكد ينتشر خبر وصوله إلا وتدفق الناس من كل مكان ، وتزاحموا عليه ، فما كانوا يبرحونه حتى المساء ، وقد أحدثت خطب الشيخ محمد إسماعيل ، والشيخ عبد الحي المؤثرة والمتواصلة حركة قوية في المدينة ، فتغيرت أحوال ألوف من الناس ، فكان الناس ينهضون من المجلس إليه للتوبة ، والانابة إلى الله ، والبراءة من أعمالهم ، ويدخلون في دين الله أفواجاً ، وقد انتفعت « لكنؤ » وسكانها بقدوم السيد وجماعته المباركة ، خلال هذه المدة القصيرة ، انتفاعاً عظيماً ، واكتسب الخير الكثير ، ولم تكن تخلو حلقة من حلقاته من العلماء والمشايخ ، الذين كانوا يحضرون للبيعة ، والتشرّف به ، وكان الشيخان عبد الحي ومحمد اسماعيل يلقيان كل يوم الجمعة خطباً ، وبايع السيد عدّة أسر وقبائل ، وتابت عن الشرك والبدع ، وأقيمت له ولائم كبيرة ، وظهرت في هذه الولائم كراماته التي حيّرت أهل السنّة ، وحتى الشيعة وغير المسلمين ، ورجال الحكم ، وأثرت فيهم ، فكسدت سوق الشرك والبدع ، وتاب المنغمسون في الجرائم والآثام ، وحياة المجون .

ولكن هذا الالتفاف العظيم ، والاقبال العام على السيد ، وخاصة توبة الناس عن الشيعية ، وكثرة دخول الناس في مذهب أهل السنّة ، سبّب قلق الحكومة ورجالها ؛ فلم يحتملوا ذلك ، فأبدوا أولاً عدم ارتياحهم بالكناية ، ولكن لم يلتفت إليهم السيد ورفقاؤه من العلماء ، فلم يكفوا عن عمل الدعوة إلى الدين الصحيح خوفة لائم ، وواصلوا مجهودهم بثبات وعزم وهمّة .

عاد السيد بعد شهر إلى الوطن ، وشعر بعد عودته بأهمية الجهاد ، أكثر مما

كان يشعر بها من قبل ، اشتد الحرص عليه لما علم الاضطهاد والظلم الذي كان يعاني منه المسلمون في « بنجاب » فأقلقته هذه الأنباء ، وأثارت فيه حميّته وغيرته ، فكان لا يرى شاباً سليم الجسم ، وقوي البنية ، إلا ويقول : إنه يصلح لعملي ، فكان يتقلد السلاح أحياناً كثيرة ، لكي يعرف الآخرون أهمية الجهاد ، ويقيم تمرينات عسكرية ، ويمارس أعمال الرمية والفروسية بصورة منتظمة ، ويخصّص لها أوقاتاً معينة .

الحج :

كان الحج إلى بيت الله الحرام من الشعائر الاسلامية الأخرى ، التي كادت تكون مهجورة في ذلك العهد ، فتركه المسلمون إما عن تعمد لما كان يلتمس له العلماء من أعذار فقهية ، ومبررات أخرى ، وإما عن تهاون في تأدية هذه الفريضة العظيمة التي هي ركن من الأركان الخمسة التي بني عليها الاسلام ، وقد أفتى بعض العلماء بسقوط فرضيته عن مسلمي الهند ، فتصدّى له السيد أحمد الشهيد ، وصدع بفرضيته ، ودعا إلى القيام به ولم يكتف بمجرّد توجيه الدعوة إليه ، بل استلزم اتخاذ خطوة عملية لإحيائه ، فصمم على أن يؤدي الحج مصحوباً بجماعة كبيرة من العلماء والأشراف ، وأرسل إلى جهات مختلفة رسائل تحث على الحج ، وتؤكد أهميته ، فأحدثت نيته للحج وإعلانه له ، ومكاتباته في هذا الشأن ، ودعوته العلنية له تحوّلاً ثورياً في الناس ؛ فتدفق الناس للحج من كل صوب إليه ليرافقوه في هذا السفر السعيد ، وغادر وطنه في غرّة شوال ٢ من يوليو ١٢٣٦ هـ ١٨٢١ م بعد صلاة العيد السعيد برفقة ٤٠٠ عازم للحج .

توجه من « رائي بريلي » إلى « دلمئو » ومنها ركب مراكب شراعية إلى « كلكتا » ، وكان الشيخ محمد إسماعيل والشيخ عبد الحي ، وعلماء آخرون تضمهم القافلة ، يلقون خطبا لرد الشرك والبدع ، فانكشفت الظلمات عن القلوب ، وصلحت المعتقدات والأعمال ،وبايعه آلاف من الناس رجالاً ونساء في

« إله آباد » في الطريق ، وقدر بعض الناس أنه لم يبق مسلم في بعض البلدان إلا وبايعه في هذا السفر ، وكذلك حدث في « مرزاپور » حيث بايعه جميع سكان المدينة تقريباً ، وبايع ألوف من الناس في « بنارس » ودخل العلماء والمشايخ في حلقته ، وأصيبت البدع وأعمال الشرك بضربة قاسية ، وصل إلى « پتنه » ومكث في « پتنه » أسبوعين ، وقام خلال هذه المدة بأعمال التعليم الديني ، والتوعية الاسلامية ، ونشر تعاليم الاسلام ، وإحياء السنّة ، وقمع البدع والشراك ، بحماس بالغ ، وبعث من « عظيم آباد » خلال إقامته بها عدداً من التبتيين إلى « التبت » لعمل الدعوة والاصلاح ، وامتدت جهودهم إلى «الصين» وصل بعد « عظيم آباد » إلى « كلكتا » وأقام هناك ثلاثة شهور ،وكان لاقامته بـ « كلكتا » أثر فعال في سكان « كلكتا » التي كانت كبرى مدن الهند ، وعاصمة للحكم الانجليزي ،فأحدث ثورة في الفكر ، وتحولاً في الحياة ،ورجوعاً إلى الدين ، فأعلن أعيان البلد وأشراف القبائل والأسر ، ورؤساء التنظيمات الاجتماعية في أسرهم وطوائفهم أنه من لم يدخل في بيعة السيد أحمد ، ولم يتمسك بأهداب الدين ، ولم يحتفظ بشروطه وحدوده ، تنقطع عنه العلاقات القائمة للأخوة ، وروابط الأسرة ، فاصطف آلاف من الناس تائبين،وأقفرت حوانيت الخمر ، ومراكز اللهو والخلاعة ، ودور التسلية والبغاء ، واستفاد أحفاد السلطان « تيبو » أيضاً، الذين كانت بين آبائهم وآباء وشيوخ السيد أحمد صلات الاستفادة والافادة ، والتربية الدينية . وغادر « كلكتا » بعد ثلاثة أشهر ، وكان معه إذ ذاك سبع مئة وخمسة وخمسون شخصاً من عازمي الحج ، واجتمع جمّ غفير من المسلمين والمسيحيين والهنادك « لزيارة السيد ورفقائه ، وازدحموا حتى لم يبق مجال للمرور ، كانوا يعرجون في الطريق على الموانىء ، والأماكن الساحلية ، ويلقون الخطب والمواعظ ، ووصلوا إلى « جدة » في ٢٣ من شعبان يوم الأربعاء ، ١٢٣٧ هـ ، المصادف ١٦ من مايو ١٨٢٢ م ، ودخلوا المسجد الحرام في ٢٨ من شعبان .

استمرت افادته أثناء هذا السفر الميمون أيضاً،فدخل في بيعته إمام الحرم

ومفتي « مكة » وعلماء آخرون ، كما استفاد به كبــار العلماء ، والاشراف ، والأعيان القادمون من الدول الاسلامية بهذه المناسبة ، وقضى شهر رمضان في مكة المكرمة وبايع رفقاؤه على الجهاد في أيام الحج في العقبــة الأولى ، حيث بايع النبي ﷺ الجماعة الأولى من الأنصار ، وكانت هي بداية للهجرة .

توجه من مكة المكرمة الى المدينة المنورة ، وأقام بها ، وكان هناك أيضاً مرجع العلماء والأعيـــان والمشايخ ، وعامة الناس وخاصتهم ، ثم رجع إلى مكة المكرمة ، وقضى شهر رمضان في السنة التالية أيضاً في مكة المكرمة ، وكانت له حجة ثانية ، وعاد إلى وطنه بـ « رائي بريـلي » في غرة رمضان ١٢٣٩ هـ ١٨٢٤ م .

في الوطن :

أقام بوطنه « رائي بريلي » عاماً وعشرة شهور من أول رمضان ١٢٣٩ هـ ، المصادف ٣٠ من ابريل ١٨٢٤م ، إلى ٧ / جمادى الآخرة(١٢٤١هـ (١٧/يناير ١٨٢٦ م) وكان ذلك آخر عهد له بوطنه في حياته ، وكان من أهمّ أشغال هذه الأيام التي قضاها في وطنه ، الترغيب في الجهاد ، والدعوة إلى الدين ، وتربيــة رفقائه الايمانية والعملية ، وانقضت هذه المـدة في جو كانت تسوده العواطف الدينية ، والأحاسيس والانفعالات الإيمانية ، وترقيتها وتنشيطها ، وإنعـــاش روح العمل من جهة ، والمجاهدة ، وترويض النفس ، وقضاء حيـــاة بسيطة عسكرية ، وتعليم التواضع من جهة أخرى ،وظلت قريته (دائرة الشاه علم الله) خلال هذه المدة بكاملها مركزاً للتربية العملية والروحانية .

الحاجة الى الهجرة :

كان السيد أحمد ببصيرته ، ونظره الثاقب ، وإدراكه الديني الحاد ينظر بأم عينيه ، ما كان يقاسيه الاسلام من جفوة ، وغربة ، وعجز علماء الدين ، وأهل

العلم ، ومحنتهم في تأدية فرائضهم ، كان يرى غلبة القوى المعادية للاسلام ، وحالة بؤس المسلمين ، وشقائهم في « بنجاب » ، والاضطهاد المفرط ، والاستبداد الذي كانوا يلاقونه بأيدي السيخ ، فكانوا يقضون فيها حياة الذل والاستكانة.

وقد أصيبت الأمة بكاملها بعدم الثقة ، والشعور بالحرمان والذلة ، كانت تصادر ممتلكات المسلمين وعقارهم ، بأعذار بسيطة لا قيمة لها ، وأسس مزورة ، وحولت غرف المسجد الشاهي في « لاهور » المعروف بفن العمارة ، وأهميته التاريخية إلى اصطبل ، وفرض الحظر في أماكن متعددة على الأذان ، وحرمت عدة شعائر اسلامية ، فثارت في المسلمين بهذه الحياة الذليلة الوضيعة آثار القلق والتبرم ، وهاجت فيهم حميتهم الدينية والاضطراب النفسي الذي يخامره الشعور بالخيبة ، وكيف كان يمكن احتمال ذلة المسلمين واحتقارهم ، وتسلط قوة معادية للاسلام عرفت بحقدها للاسلام والمسلمين ، وإرصادها لهم في هذه المنطقة الواسعة الواقعة على الثغور ، التي كانت دائماً مركزاً لأجيال المسلمين الأكفاء للخدمة العسكرية .

كانت هذه الطغمة الحاكمة خطراً دائماً على مركز الهند بـ « دلهي » وسائر أجزاء الهند الشمالية الغربية ، ومناطق الثغور ، و « أفغانستان » على الأخص فأدرك السيد أحمد ورفقاؤه بنظرهم الثاقب ، وفراستهم البالغة هذه الأخطار الكامنة ، فمنح « البنجاب » الأولوية لأعماله ونشاطه الجهادي .

أقلقت السيد أحمد سلطة الانجليز على الهند ، والحروب الأهلية القائمة بين المسلمين ، ومناظر انحطاط الاسلام ، وأثارت حفيظته ، وحميت بها حميته ، وغيرته الدينية ، أدرك أن إعلاء كلمة الله ، وإنقاذ الدول الاسلامية وحمايتها تطالب كل مسلم غيور يشعر بالمسؤولية بالجهاد ؛ فكان يعتقد أن الجهاد من أهم شعب الدين ، وخطوة إكمالية لها ، وكان يعتبر الهجرة مقدمة للجهاد ، لأن الجهاد في تلك الظروف لم يكن ميسراً بدون الهجرة ؛ فأثارته الآيات الصريحة

التي وردت في القرآن ، والأحاديث الواضحة على اتخاذ هذه الخطوة ، وكان الشوق إلى الحصول على رضا الله وحبه رائده ، فوطدت الحقائق والمشاعر التي كانت تتغلغل في أعماق قلبه وأغوار فكره ، العزم على الجهاد ، والخروج في سبيل الله .

كان السيد أحمد يهدف رئيسياً إلى تحرير الهند من حيث المجموع ، كما يتضح من رسائله العديدة التي بعث بها إلى ولاة الأمر ، والحكام في الولايات الهندية ، والأمراء وحكام الدول الأخرى خارج الهند ، ولكن « بنجاب » كانت تقتضي الاولوية والاسعاف العاجل نظراً لاستقرار حكومة « رنجيت سنكه » فيها ، ورسوخها عملياً ، وتعرّض المسلمين بسببها للظلم والاستبداد ، ثم ان المصالح العسكرية ، والوعي السياسي كان يقتضي أن تبدأ هذه الحركة من الثغور الغربية للهند ،باعتبارها مركز القبائل الافغان الاقوياء والبسلاء المتحمسين الغيارى الذين كانت تقوم مع أفراد أسرهم وأقاربهم علاقات البيعة ،والاسترشاد مع السيد أحمد وكان كثيرون منهم يشتركون في جيشه ، وأكدوا أن هذه القبائل ستنصره ، وتساعده في نيل هذا المرام ، ثم ان المنطقة كانت متصلة بحزام للحكم الاسلامي الممتد إلى « تركيا » ، فكان السيد أحمد يعد نفسه وجماعته لهذا الهدف السامي منذ بداية حركاته .

الهجرة :

ودع السيد أحمد وطنه « رائي بريلي » يوم الاثنين ٧، من جمادى الآخرة ١٢٤١ هـ ١٧ / يناير ١٨٢٦ م ، واجتاز للوصول إلى ثغور الهند الشمالية الغربية ولايات « مالوه » و « بلوخستان » و « أفغانستان » و صحراء ولاية الثغور ، وسهولها ، وجبالها ، ومضايقها ، وغاباتها ، وأنهارها ، ومستنقعات ، كانت عسيرة العبور ، فكانت في حد ذاتها نوعاً من الجهاد ؛ فواجه في بعض الاماكن نقص الماء ، وقلة التموينات الغذائية ، ووعورة الطريق ، وعسر المرور ،

وخطر النهاب ،وقطاع الطريق، وشدة الجوع والعطش،وغربة البلاد والاقوام، ولغات جديدة غير معروفة ، واختلاف الطباع بالاضافة إلى الشبهة ، والمخاوف والريب ، والتحقيق والتجسس ، وكانت جماعته تتكوّن من أفراد يرجع أصلهم إلى « دلهي » و « أوده » ومنطقة النهرين ، من أشراف وأعيان،وعلماء ومشايخ ، ونخباء أسر غنيّة ، وربائب النعيم ، وأفراد أنهكتهم متاعب الحياة وضعف الصحة ، ولكن كانت تنعشهم نشوة الجهاد ، والشوق إلى الشهادة ، وكان عددهم يبلغ ٦٠٠ شخص .

عرّج السيد أحمد أولاً على « دلمّو » ثم « فتح پور »فـ« بانده » ثم «جالون» و« مالوه »و« جواليار » ، ثم توجه إلى « تونك » وفي كل مكان ومقام توقف السيد ، قوبل بحفاوة بالغة ، ورحب به المسلمون ، وتشرفوا بالبيعة والارشاد، وتشرف في « جواليار » أميرها على دعوة منه باللقاء ، فقدم إليه الأمير هدية ، ثم ذهب السيد أحمد إلى « تونك » فرحب به أمير « تونك » أميرخان (الذي كان قضى السيد أحمد في جيشه ست سنوات) ترحيباً حاراً وشايعه إلى مسافة بعيدة في رحلته التالية ، ثم توجه من « تونك » إلى « أجمير » و« بالي » ماراً بصحراء « مارووار » العسيرة المرور ، ووصل إلى « حيدر آباد » بـ« السند » وبايعه في الطريق ألوف من الناس رجالاً ونساء، وصاحبه عدد كبير منالناس، وكانت السند في ذلك العهد منطقة مستقلة بالسيادة تحكمها أسرة واحدة ، وكان يسكنها مئات الألوف من المحاربين ، والأبطال المجرّبين في فنون الحرب، وكان مع ذلك عدد كبير من المشايخ الذين كان أتباعهم منتشرين ، في «السند » كلها ، فرّحب جميعهم بالسيد أحمد ، ووعدوا له بكل مساندة ومساعدة ، فقابله والي « حيدرآباد » مير محمد ، والأشراف ، والمشايخ الآخرون ، بحفاوة بالغة ، وأنزلوه منزل اكرام وشرف .

أقام بـ« حيدرآباد » مدة أسبوع ، ثم ذهب إلى « بيركوت » وأقام فيها أسبوعين ، ثم توجه إلى « شكارپور » ، وقابل المشايخ وصلحاء « السند » .

ومن « شكارپور » توجه إلى « جهتر بهاك » و « دهادر » ماراً بأماكن مختلفة ، قضى فيها بضعة أيام ، ليدعو الناس إلى الجهاد، والخروج في سبيل الله، وفي جميع هذه الأماكن تشرف بزيارته والاستفادة منه عدد كبير من المشايخ والعلماء ، ورجال الحكم ، فاختار لهذه القافلة طريق مضيق « بولان » الضيق والخطير ، ومضيق « بولان » هو نفق طويل في الجبل ، فتحه الله تعالى بقدرته لأولى العزم من الفاتحين والمسافرين المخاطرين في هذه السلسلة الطويلة للجبال ، التي تفصل بين « الهند » و « أفغانستان » فوصل إلى « كوئته » ماراً بـ « بولان » ، وأبدى أميرها حبه ، وأكرمه ، وبايعه العلماء .

في « أفغانستان » :

وصل إلى « قندهار » قادماً من « كوئته » ، وكان يحكم « أفغانستان » اخوة بارك زئي ، المعروفون بـ « دارنيين »، فكان يحكم « قندهار » پردلخان، وكان والي « غزنين » مير محمد خان ، و« كابل » دوست محمد خان والسلطان محمد خان ، و « بشاور » يار محمد خان ، وكان بين هؤلاء الاخوة صراع شديد، وتنافس في الملك ، وكانت بينهم شحناء وأحقاد عميقة قديمة ، فكانوا يخوضون معارك بينهم ، وتنشب حروب أهلية ، فكان من أهم أهداف السيد أحمد وثمار جهوده أن يجمع الاخوة المتحاربين بينهم ، على رصيف واحد، ويوحّد صفوفهم ويؤلف بينهم على كلمة الاسلام ، والجهاد مع أعداء الاسلام .

ولما وصل إلى « قندهار » استقبله حاكم « قندهار » وخرج ألوف من العلماء ، وأعيان البلد راجلين لاستقباله ، وازدحمت الشوارع بالمرحبين به ، وتوقف المرور عليها بسببها ، وأقام أربعة أيام في « قندهار » فكان كل شخص تواقاً إلى الجهاد معه،وحريصاً على الخروج معه في سبيله،وتوّجه إلى« غزنين» من «قندهار»،فرافقه أربع مئة تقريباً،من العلماء والفضلاء،وطلبة المدارس،وشيوخ الزوايا،في نشوءالجهاد،والحنين إلى الشهادة في سبيل الله،فاختار منهم مئتين وسبعين

شخصاً ، واستصحبهم ، وبعث عن طريق « غزنين » رسائل إلى مير محمد خان حاكم « غزنين » والسلطان محمد خان حاكم « كابل » وأخبرهم بقدومه ، وبيّن لهم أهدافه ، وأغراضه ، وأبدى رغبته في تعاونهم معه في هذا الغرض السامي ، فلما وصل إلى « غزنين » استقبله أعيان البلد ، ورجال العلم والفضل ، وعدد لا يحصى من الراكبين والراجلين خارج المدينة على مسافة ميلين ، ونصب خيمته بجوار ضريح السلطان محمود الغزنوي ، وبايعه في هذا المكان عدد كبير من الناس.

وأقام بغزنين يومين ، ثم ذهب إلى « كابل » فخرج كبار الأمراء والاشراف ، وألوف من الناس إلى خارج البلد لاستقباله ، فكان يتصاعد الغبار لازدحام الناس ، وأظلم الطريق ، وكان السلطان محمد خان والي « كابل » مع ثلاثة من اخوته ، وحرس يتكون من خمسين شخصاً ، ينتظر وصوله ، فاستقبله ، وقابله ، وأكرمه ، وأقام بـ « كابل » شهراً ونصف شهر ، فكانت أيام دعوة واصلاح بين الناس ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والاستعداد للجهاد ، وانتفع بصحبته عامة الناس وخاصتهم ، وانضموا إلى جماعة المجاهدين بتأثير رفقائه ، وأحوالهم وحنينهم للجهاد ، ومبادرتهم إلى الخير ، والشوق إلى الشهادة .

وحاول السيد احمد بما كان في وسعه من مجهود للاصلاح بين اخوة بارك زئي ، ومدّد إقامته لهذا الغرض ، ولكن مساعيه الطيبة لم تكلل كلياً بالنجاح ، فاضطر إلى مغادرته إلى « بشاور » وكان المسلمون في الطريق يستقبلونه بحماس ، وعواطف ودّية مماثلة ، جرّبها أثناء السفر كله ، فمكث في « بشاور » ثلاثة أيام ، ثم أقام في « هشت نكر » بضعة أيام ، وأعدّ المسلمين للجهاد ، وتوجه إلى « نوشهره » حيث استهل مهمته الحبيبة وعبادته العظمى ، وهي الجهاد ، الذي كان لب تعاليمه ، وجوهر دعوته ، وخلاصة جهوده منذ سنوات ، وقطع من أجلها هذه المسافة الطويلة ، وتحمّل من أجل هذة الصعاب التي تصرف همم أولى العزم .

حرب « أكوره » :

بعث من « نوشهره » رسال إلى حكومة « لاهور » وجه فيها الدعوة إلى الاسلام ، وإلا إلى دفع الجزية ، وطالب بالطاعة ، وهـدّد بالحرب ، إذا رفضت المطالبتان ، وكتب في ختام رسالته : « إنكم لا تحبون الخمر مثلما نحب الشهادة » فلما بلغت حكومة « لاهور » رسالة السيد أحمد ، أرسلت الحكومة جيشاً كبيراً من جنود السيخ لمواجهته ،فلما علم السيد أحمد ذلك ،بدأ استعدادات الحرب ، وسرت نشوة الجهاد في المجاهدين ، وحدث انتعاش وهزة ، كأن اليوم الذي كانوا يحلمون به قد حان ، وكان الشوق إلى الشهـادة يطيرهم ويهزهم ، كانت جماعة السيد أحمد تتكون من سبع مئة جندي ، بينما كان جيش الأعداء يضم سبعة آلاف جندي مسلح ، وواجهت فئة قليـلة جيشاً يساوي عشرة أضعافها يوم الأربعاء في ٢٠ / جمادي الأولى ١٢٤٢ ﻫ (٢٠ من ديسمبر ١٨٢٦) لدى منتصف الليل ، وقاتل المجاهدون بجراءة وشجاعة بالغة ، وبـدأ العدو ينسحب من المعركة منهزماً ، ولم ينقض نصف الليل إلا وانسحب العـدو ، وخلت ساحة المعركة ، فازداد المسلمون قوة بعـد قوة ، وارتفعت روحهم المعنوية ، والتفت رؤساء مختلف القبائل ، والعلماء ، والاشراف إلى السيد أحمد للبيعة ، وزادت ثقتهم به ، فأصلح بين الرؤساء والشيوخ ، وبايعه أيضاً قائـد قلعة « هند » السردار خادي خان ، وبناء على طلبه أقام السيد أحمـد مع رفقائه في قلعته ثلاثة أشهر .

غارة « حضرو » والبيعة والامامة :

بعد النصر الذي تحقق في حرب « أكوره » طلب « الأفغـان » من السيد أحمد بأن يبيّت على « حضرو » التي كانت سوقاً كبيرة خاضعة لحـكم السيخ ، فأذن له السيد أحمد ، ولكنه لم يشترك فيه بنفسه ، وقد اعتدى في هذه الغارة الليلية الجنود المحليون ، والأفغان ، وخرقوا القوانين ، فلم يتمسكوا بأوامر

السيد أحمد وتعاليمه ، وقاموا بكل ما حلا لهم من عمل ؛ فاتخـــذ العلماء في الجيش قراراً بالاجماع أن أهم أمر، وأرجحه اختيار إمام وأمير للقيام بالجهاد في ظله ، وحسب توجيهاته .

فبايع السيد أحمد بالامامة والخلافة بالإجماع في « هند » في ١٢ من جمادي الآخرة ١٢٤٢هـ (١٣ / يناير ١٨٢٧ م) وبايعه خادي خان ، وأشرف خان، وفتح خان ، وبهرام خان ، وجميع القواد والرؤساء علاوة على عدد كبير من العلماء من الهند الذين كانوا معه ، فقبلوه إمام لهم ، وأرسل السيد احمد رسائل إلى سائر ولاة الأمر في البلاد ، والعلماء ، والمشايخ ، والرؤساء ، يدعوهم فيها إلى البيعة ، ويفيدهم علماً بها ، فلما سمع السردار يار محمد خـــان « والسلطان محمد خان» من ولاة « بشاور » شعبيته والإقبال عليه ، وربانيته ، قدموا إليه بجماعة كبيرة ، وبايعوه ، ونفذ السيد احمد بعد انتخابه أميراً النظام الشرعي الاسلامي في سائر المنطقة ، وطبّق سائر قوانين الاسلام ، فبـــدأت المحاكم تسوّي سائر الأمور والقضايا في ضوء السنـّة ، وكان من أثر المحاسبة أن خلت البلاد كلها من تاركي الصلاة .

حرب « شيدو » والتسميم :

أصبحت المنطقة بعد إمامة السيد أحمد وخلافته بلداً متحداً ، ولما انتهت السيادات الاقليميه والحكم الذاتي ، والاقطاعية لقادة ورؤساء قبائل مختلفـــة صغيرة وكبيرة بتوحيد البلاد ، دّبت في قلوبهم المخاوف والاحقاد ، والحسد ، ولو أنهم كانوا يبدون انقيادهم وخضوعهم لحكم السيد أحمـــد ، وبايعوه بجراء التيار الجديد للطاعة والانقياد والحب السائد ، لكنهم كانوا يكنون في قلوبهم نوايا شريرة ، يحيكون له المكائد والدسائس ، فبدأوا يتآمرون سريـاً مع بلاط « لاهور » .

أبدى هؤلاء السادة والقادة ، الذين كانت أفواههم مع السيد أحمد،وأفئدتهم

مع بلاط « لاهور » بعد اشتباكات عديدة ، ومناوشات مع السيخ ، رَغبة أن تقوم حرب حاسمة ومدمرة ضد السيخ ، لتسوية المسألة كليـاً ، فاختبر بإشارة من هؤلاء السادة ميدان « شيدو » وبـدأت الاستعدادات للحرب ، إذ دسّ هؤلاء المنافقون السمّ في طعام السيد أحمـد ليلة ، وكان جيش المسلمين عندئذ يتكوّن من المحليين وغير المحليين ، وكان جميع الرؤساء والقـادة مع جنودهم وكتيبتهم ، وكانت كفة الحرب ترجح في صالح المسلمين ، وإذا بقادة « بشاور » ينحازون إلى السيخ ، وفر السلطان يار محمد خان مع رفقائـه من ميدان الحرب ، فلم يعد السيد أحمد بعد هذه الحرب يواجه السيخ فحسب ، بل كان ضده قادة ورؤساء « بشاور » أيضـاً ، و« الخوارج » ، ثم وقف جيش مسلح كامل للمنافقين ضد السيد أحمد .

في « بنجتار » :

وفي الوضع الجديد الذي حدث إثر هذه التطورات انتقل السيد أحمد على طلب من فتح خان وإلى « بنجتار » من « هند » إلى « بنجتار » وجعلها مقراً له ، وتقع « بنجتار » بالقرب من « سوات » في وسط الجبال ، وهي منطقة محمية ، وظلت « بنجتار » إلى مدة طويلة مقراً للمجاهدين ، وتشرّفت أن تكون ثكنة إسلامية ، ومركزاً للاصلاح ، والتربية الدينية ، فكانت هـذه الهضبة الصغيرة ثكنة عامرة للمجاهدين كانت كل ناحية منها آهلة بالمجاهدين والعباد ، تذخر بالذكر التلاوة والجهاد والمجاهدات ، والحب والأخوة ، والخدمة والإيثار .

لم تكن إقامة السيد بـ « بنجتار » وعمرانها به ممّا يسوغ والي « هند » وثار في قلبه الحسد ، وحقد على السيد أحمد ، فدبّر للاساءة إليه ، وعلى الجهة الأخرى ، لم تؤثر الهزيمة المفاجئة التي لقيها السيد أحمد في « شيدو » أي فتور في همـة السيد أحمد ، أو عدول عن دعوتـه ، وجهاده ، فقـام بجولة في « بنير » و« سوات » ثم « هزاره » وكانت هذه الجولة ناجحة للغاية في الدعوة ، والنفع

الديني ، والإرشاد ، والجهاد ، والدعوة إليه وتوجه من « بنجتار » إلى « خهر » وهي مركز لـ « سوات » وأقام بها عاماً كاملاً . وفي هذا المكان توفي الشيخ عبد الحي ، وكان شيخ الاسلام في جيش السيد أحمد ، وكان يحترمه السيد أحمد غاية الاحترام .

مواجهة القائد الفرنسي رنجيت سنكه :

أغار وينتورا القائد الفرنسي في جيش رنجيت سنكه على المجاهدين بجيش مكوّن من أكثر من عشرة آلاف جندي ، وساعده فيه خادي خان والي « هند » ولكن الجنرال وينتورا انهزم ، وانسحب لما عاين من الشوق إلى الشهادة ، والحماس للجهاد في المجاهدين ، ورجع إلى « لاهور » ثم زحف بجيشه من جديد بعد عدة شهور ، وتوجه إلى « سمّة » واستقبله خادي خان ، وساعده سرّياً ، فلما علم السيد أحمد بقدوم جيش وينتورا ، أخبر به رفقاءه ، وبعث برسائل ، ثم شيّد جداراً دفاعياً ، وبايعه المجاهدون ببيعة الموت ، وشاهد وينتورا أن المجاهدين منتشرون على هضبات الجبال ، والممرات الجبلية ، ومضايقها ، فرجع خوفاً ورعباً ، وقذف الله في القلوب الخوف ، ورعب المجاهدين ، وذاع صيتهم في سائر الضواحي ، وبدأ الناس يتدفقون إليه ، ويبايعونه ، فقام السيد أحمد بجولات في القرى والمدن ، وشدد النظام الشرعي للحكم ، ولكن خادي خان ظل على مكيدته وحقده ، ومؤامرته مع الأعداء ، رغم جميع وسائل الإفهام ، والشرح ، والإقناع ، التي اتخذت لترضيته ، فلم يبق أمام السيد السيد أحمد بديل إلا أن يغير على قلعة « هند » ويفتحها ، وقتل خادي خان في هذه الغارة .

حرب « زيده » ومقتل يار محمد خان :

انحاز أمير خان الأخ الأكبر لخادي خان ، إلى السردار يار محمد خان الذي كان قد دسّ السم في طعام السيد بأحمد في حرب « شيدو » وتآمر معه ،

وأجرى السيد أحمد محادثات معه ، ليمنعه عن الفرقة ، والاضطراب والفساد ، والفتنة ، لكنه شن حرباً ضد المجاهدين في منطقة « زيده » ولم يقبل نصحة ، فواجه المجاهدون هذا التحدي بثبات وحزم وقوة ، وحصدوا الجيش الدراني ، واستولوا على مدافعه ، فلاذ الجنود كلهم إلى الفرار ، وقتل يار محمد خان ، وهاجم الدرانيون على قلعة « هند » التي كان المجاهدون يحتلونها ، ولم يكن عدد المجاهدين يزيد عن ستين ، ولكنهم قاوموا هذه الغادرة بثبات ومثابرة ، وخيبوها .

أشيع في هذه الفترة أن المجاهدين يعتزمون الهجوم على « بيشاور » التي كانت تحت سلطة الدرانيين ، فانحرف الدرانيون عن « هند » والتفتو إلى بيشاور » وفي نفس الأثناء احتل المجاهدون « عشرة » و« أمب » .

كان يريد السيد أحمد أن يتوجه إلى « كشمير » وكان يقتضي ذلك احتلال « پهولره » فوجه جماعة من المجاهدين بقيادة ابن أخته السيد أحمد علي وهجم السيخ على هذه الجماعة بغتة ، فاستشهد عدد كبير من المجاهدين نتيجة لهذه الغارة المباغتة ، واستشهد السيد أحمد علي نفسه في هذه المعركة .

حرب « مايار » :

أقام السيد أحمد بـ « أمب » ونفذ نظام القضاء ، الاصلاح الاجتماعي ، والخلقي ، فعزم السلطان محمد خان على أن يخوض معركة حاسمة ، فقاد جيشاً عظيماً ، للدرانيين ، ومر بـ « جمكني » ووصل إلى « حارسده » . فتصدى له السيد أحمد مع رفقائه ، ونصب خيمته في « تورو » وحاول أن يمنع شيوخ « بيشاور » عن الصراع الذاتي والحرب الأهلية ، لكنهم لم يقدروا هذه العاطفة ، والمساعي الجميلة ، فحلف السلطان محمد خان ، وأبناء أخيه وأخوه حاملين المصحف بأيديهم فمر الجيش بكامله من الباب الذي كان قد علق عليه المصحف ، فنشب قتال عنيف بين « تورو » و« هوتي » في ميدان « مايار » واستولى الشيخ

محمد اسماعيل والشيخ ولي محمد علي المدافـــع ، فانهزم الدرانيون ، وتراجعوا وانتصر المجاهدون ، وقد سجل المجاهدون في هذه المعركة آيات من البطولة ، والثبات ، والجراءة ، وقوة الإيمـــان ، والانقيـــاد والطاعـــة ، والشوق إلى الآخرة ، وشوهدت مناظر لنصرة الله ، جـــدّدت ذكريات القرن الأول .

فتح « بيشاور » وتسليمها :

عمد السيد أحمد بعد النصرة في حرب « مايـــار » إلى « بيشاور » التي كانت ثانية أهم المدن في الشمال الغربي بعـــد « لاهور » و « كابل » وكانت عاصمة لولاية الثغور ، ومركزها منذ القديم ، وقد اقتضت الظروف الآن أن يتولى المجاهدون نظام هذه المنطقة وإدارتها مباشرة ، فلما رأى سلطان محمد خان أن المجاهدين ينوون الاستيلاء على « بيشاور » فخرج مع أفراد اسرتـــه ورفقائـــه من « بيشاور » ، وبدأ من هناك التراسل مع السيد أحمـــد ، فلما دخل السيد أحمد في « بيشاور » استقبله سكانها ،وأبدوا سرورهم بقدومه، ورحبوا به ،وأقاموا سقايات في الطريق، وأضاؤوا المصابيح والقناديل ابتاجاً بقدومه واحتفالا به وأظهر الجيش اقتداء بالجيوش الإسلامية فيالقرون الأولى، السيرة الاسلامية ، والتربية الدينية ، ومشاهد التقوى والورع ، والزهـــد في الحياة ، والأمانة ، وعرض السلطان محمد خان الصلح ، وعاهد على الطاعـــة ووعد حلفاً شرعياً ، أنه إذا أعيدت « بيشاور » إليه فإنه سينفذ النظـــام الشرعي ، ويحوّل هذه البلاد إلى حكومة إسلامية ، ولم يكن لدى السيد أحمد أي مانع في قبول هذا العرض ، لأنه لم يكن يطمعُ في الحكم ، أو القوة ، وإنما كان حريصاً على إقرار نظام إسلامي ، وتنفيذ حكم شرعي ، وكان ذلـــك هو الهدف الوحيد لهجرته لوطنه ، ووصوله إلى هذه المنطقة النائيـــة ، ولم يكن لذلك يؤثر نفسه على أحد ؛ فقبل عرضه ، وأتاح له فرصه أخرى ، فأعيـــدت «بيشاور » إلى سلطان محمد خان،وعاد هو نفســه من « بيشاور » إلى «بنجتار».

اغتيال العمّال والقضاة :

كان إقرار النظام الشرعي ، وتعيين العمال ومحصلي الصدقة، وتنفيذ الأحكام الشرعية عقبة في سبيل رؤساء القبائل ، وخاصة سلطان محمد خان ، وعلماء السوء المغرضين ، فلم تبق لهم فرصة لاستغلال الناس ، وتحقيق أغراضهم ، ومصالحهم المادية ، فعزموا على إزالة هذه العقبة من طريقهم ، والتخلص من هذه القيود .

ولم ينقض على تسلم « بيشاور » إلا مدة يسيرة إلا ودبر السلطان محمد خان مؤامرة لتضليل الناس ، وتشويه سمعة المجاهدين في عامة الناس وخاصتهم ، ولتحقيق هذا الغرض أعدّوا بياناً وقع عليه علماء السوء ، أن السيد أحمد والمجاهدين فرقة ضالة ذات معتقدات وأفكار فاسدة ، ثم أعدّوا خطة لاغتيال العمال ، والقضاة ، والآمرين بالمعروف ، والناهين عن المنكر ، والغزاة ، ورجال الحكومة الشرعية الذين كان السيد أحمد قد عينهم في سائر منطقة « بيشاور » و « سمه » سوى « بنجتار » في آن واحد ، وتمت هذه الخطة الخبيثة باغتيالهم فجأة بدون رأفة ، وبوحشية ، فقتل أحد أثناء الصلاة ، وآخر أثناء لجوئه بالمسجد ، ومنهم من قتل محارباً ، ولم يقبلوا في ذلك شفاعة أحد من العلماء والسادة ،وحتى النساء وغير المسلمين للرحمة ،فذبحوهم ذبح النعاج .

كانت هذه مأساة إنسانية ، منقطعة النظير ، وخسارة نخبة مختارة نشأت بعد عشرات السنين لتربية وتعليم ، وتثقيف طويل ، وخلاصة بشرية نقية ، تعلق بها الآمال ، وجوهر الهند ، ولبها الذي يفنى في لمح من البصر .

الهجرة الثانية :

تحطم قلب السيد أحمد لهذه المجزرة الوحشية التي تعرّض لها رفقاؤه ، وخيرة عماله ، وقد أقلقه جفاء المحليين ، ونكران الجميل ، والظلم والوحشية التي أبدوها ، فقرر الهجرة من هذا المكان ، ولاستشارة رفقائه جمع العلماء

والسادة في « بنجتار » ، وأجرى تحقيقاً على المأساة ، وذكر لهم أهــداف قدومه ، ومجهوداته ، فلما تأكد أن رفقاءه كانوا أبرياء من هذه الجريمة ، وأن السكان المحليين هم الذين لا يصفو ودّهم ، ولا تؤمن نواياهم ، فعزم على الرحيل ، فلما انتشر خبر هجرته ، قلق له العلماء والسادة المحليّون ، وجماعة من المخلصين والرؤساء المتبعين الذين كانوا في « بنجتار » ، وحزنوا كثيراً ، وتدفـق الناس على السيد أحمد ليطلبوا منه إعادة النظر في قراره ، وأن لا يهاجر ، لكنـه لم يقبل طلبهم ، لأنه كان يدري أن لفتح خان ورجال قبيلته يـداً في خطـة سلطان محمد خان ، واغتيال العمال والقضاة ، وأنه لم يقـدم بنفسه أيّ طلب بإقامة في هذه المنطقة ، بل إنه أيدّ هذا القرار سرياً ، ولكن السيد أحمـد لم ينتقم منه ، بل عفا عنه وأعرض ، وعامله معامـلة الامتنان ، والاعتراف بالجميل ، وأنعم عليه بالهدايا ، ولم يتزحزح في إرادته للهجرة ، فسلّم « بنجتار » إلى فتح خان ، وأقام بـ « راج دواري » وجـاء إليه في « ممـه » في الطريق (حيث قتل القضاة ، والغزاة ، والمخلصون) رجال يلتمسون منـه العودة ، لكنه قال : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

إلى « كشمير » :

واختار الآن منطقة « كشمير » لمواصلة أعماله ،وحركاته الدعوية والجهادية ، وتوّجه إلى « كشمير » مع مـا تبقى من الثروة البشرية معـه ، والمخلصين من الرفقاء ، الذين عزموا على أن يرافقوه في ساعة العسرة ،وفي حالة مريبة عسيرة ، فلم يقبلوا أن يتركوه في أيّ حال ، توّجـه إلى « كشمير » وهي وادٍ واسع آمن ، يتمتع بتحصنات طبيعة هائلة ، تستطيع أن تستغلها قيادة واعية ،ذات بصيرة لأغراضها ، وتستطيع كذلك أن تؤثر منها على الهند من جهة ، ومن جهة أخرى يمكن بها إنشاء علاقـات وروابط مع تلك الدول الاسلاميـة في آسيا الوسطى من الناحية العسكرية ، والسلالية ،والتي أنشأت في الماضي حكومات إسلامية قوية ذات شأن .

في « بالاكوت » :

كانت إمارة رؤساء « پكهلي » و « وادي كاغان » ورجال المنطقة الآخرين، تتزحزح ، وتتأرجح ، إما بسبب هجمات السيخ، وإما بسبب الصراع الداخلي، والاضطراب الذاتي ، فكانوا .... جميعاً يستنجدون السيد أحمد ، وكانت امارتهم تقع في الطريق إلى « كشمير » التي كان السيد أحمد ينوي جعلها مركزاً له ، وكانت هي هدف هجرته الثانية ، ووجهتها ، فكانت « بالاكوت » أنسب محل لخدمة جميع هذه الاغراض من مساعدة من يطلب النجدة ، وحمايتهم ، والدعم العسكري ، والتقدم إلى « كشمير » والاستعداد له ، وكانت « بالاكوت » تقع على الناحية الجنوبية لـ « وادي كاغان » ، وقد صدّ هذا الوادي في هذا المحل جدار جبلي ، فليس هناك طريق سوى منفذ نهر « كنهار » ويقع الوادي بين جدارين جبليين متوازيين ، يبلغ عرضه أقل من نصف ميل ، ويجري في هذا المكان نهر « كنهار » ويقع في شرق « بالاكوت» تل « كالوخان » العالي ، وفي غربها يقع تل « منى كوت » .

كانت هذه الرحلة الثانية للهجرة كذلك شاقة ومتعبة ، ومليئة بالخطر ، وكانت قمم الجبال ، والأودية مغطاة بالجليد من كل جانب ، والطرق وعرة معقدة ، ذات مرتفعات ومنحدرات ، لا يوجد فيها أيّ سبيل لإرسال المؤن والحمل ، فلم يكن هذا السفر إلا عبارة عن مغامرة عسيرة تدل على علو همته ، وقوة ثباته وعزمه ، ومثابرة رفقائه ، وقوتهم الإيمانية وصبرهم وأناتهم ، وتحمل كل مكروه في سبيل تحقيق هدفهم ، فوصل السيد أحمد إلى « سجون » قادماً من « بنجتار » عابراً عدة أماكن شاقة ثم توجه منها إلى « بالاكوت » وغادر « سجون » في ٥ من ذي القعدة ١٢٤٦ هـ (١٧ من أبريل ١٨٣١ م) ودخل في « بالاكوت » .

الحرب الأخيرة والشهادة :

لما علم الأمير « شيرسنكه » الذي عهد إليه والده مهاراجه « رنجيت سنكه »

بأن يحارب المجاهدين حرباً نهائية حاسمة ، أن السيد أحمد وغزاته يقيمون في « بالاكوت » فقاد جيشاً ضخماً للسيخ ، وعسكر على بعد ثلاثة أميال تقريباً من « بالاكوت » على الشاطىء الشرقي لنهر « كنهار » وبـدأ هذا الجيش تدريجيـاً يدنو من « بالاكوت » .

فلما اتضح أن جيش السيخ سيهاجم « بالاكوت » نازلاً عن « منى كوت » اتخذت اجراءات مؤثرة وحاسمة لخوض المعركة المصيرية ، وكان موقع البلد ووضع ساحة القتال الطبيعي يلائمان المجاهدين .

كان الموقع الجغرافي لـ « بالاكوت » مخيّباً لشير سنكه ؛ فأراد شير سنكه أن يعود يائساً خائباً ، لكن السكان المحليين أرشدوه الطريق الجبـلي الذي يؤدي إلى وادي « بالاكوت » الذي يقيم به السيد أحمد ورفقاؤه فوصل جيش شير سنكه إلى « منى كوت » في ٢٤ من ذي القعدة ١٢٤٦هـ (٦ / مايو ١٨٣١م) وأحاط بها من كل مكان كالسحاب ، وهاجم جيش شير سنكه الغزاة نازلاً من « منى كوت » وكان السيد أحمد يتقدم رفقاءه والمجاهدون يتبعونـه ، يمطر عليهم السيخ وابلا من الرصاص ، فكبر السيد أحمد ، وتقدم نحو الأعـداء ، فكان يمشي إليهم مشية الليث يهاجمهم كالضرغام على فريسته ، وكان حجر ضخم بارزاً في حقل يرتفع طوله ٢٥ أو ٣٠ قدماً فجعله سداً بينه وبين أعدائه ، وموقعاً لشن الغارات عليهم ، فكان يوجه منه إليهم الطلقات النارية ، فأصابت عدداً لا يحصى من الأعداء ، وقضت عليهم ، وأحدث ذلك ضجـة في صفوف الأعداء ، أجبرتهم على التراجع ، فبدأ العدو ينسحب ، ويخل التلاع والجبـال مخافة ، وطاردهم المجاهدون إلى مخارم الجبـل وجرّوهم بأقدامهم ، وقتـلوهم بسيوفهم .

في هذا الصخب واللجب ، اختفى السيد أحمد ، وأيقن المجاهدون أنه لقي ربه شهيداً ، فجعلوا يبحثون عنه ، وفي نفس الأثناء أصيب الشيخ محمد اسماعيل

برصاصة في رأسه فقضى نحبه ، واستشهد ، وأدرك الأعداء أن المجاهدين قد زحزحوا وفقدوا أعصابهم بشهادة قادتهم ، فشنوا هجوماً جديداً عليهم ، وصوبوا إليهم بنادقهم ، وواصلوا قصفهم بالنار ، فسقط كثير من المجاهدين شهداء ، وانقلب ظهر المجن ، ورجحت كفة ميزان الحرب في صالحهم ، وسقى الله كبار العلماء والمشايخ ، والمجاهدين كأس الشهادة ، فصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وقضوا نحبهم ، وبذلوا أرواحهم في سبيله ،وسجلوا أروع أمثال البطولة والفداء ، وما بدّلوا تبديلاً ، وقد استشهد في هذه التربة أكثر من ثلاث مئة مجاهد .

انتهى في هذه القطعة من أرض « بالاكوت » سفر تلك القافلة المباركة التي بدأ رحلتها السيد احمد في ٧ جمادي الآخرة ١٢٤١ هـ (١٧ / ينـاير ١٨٢٦) صباحاً ، مع رفقائه من الغزاة المجاهدين في وطنه « رائي بريلي » فوصلت إلى غايتها النهائية في ٢٤ / من ذي القعدة ١٢٤٦ هـ (٦ مـايو ١٨٣١ م) وضحّى للوصول إليه بشعبيته ، والإقبال عليه ، ورجوع الناس إليـه ، وحبهم له ، قطع في سبيلها الصحارى ، والأودية ، وعبر الأنهر ، وتسلّق الجبال ، وقطع الغابات ، والأوغال ، وقاسى جفاء الدرانيين ، وفتورهم ، ونفورهم ، وواجه الغدر والخيانة ، والطغيان،والعصيان في هذه المعركة التي جرت في «بالاكوت» شرب السيد احمد ، والشيخ محمد اسماعيـل كأس الشهادة مع عـدد كبير من أولئك الصالحين والأتقياء ، الذين كانت قلوبهم تتدفق بمحبة الله ، وتتوقد فيها جذوة الإيمان ، والشوق إلى الشهادة ، التي جعلت لهم أنفسهم وأموالهم هباء منثوراً ، ورؤسهم وجلودهم عبأ عليهم .

الفهرس